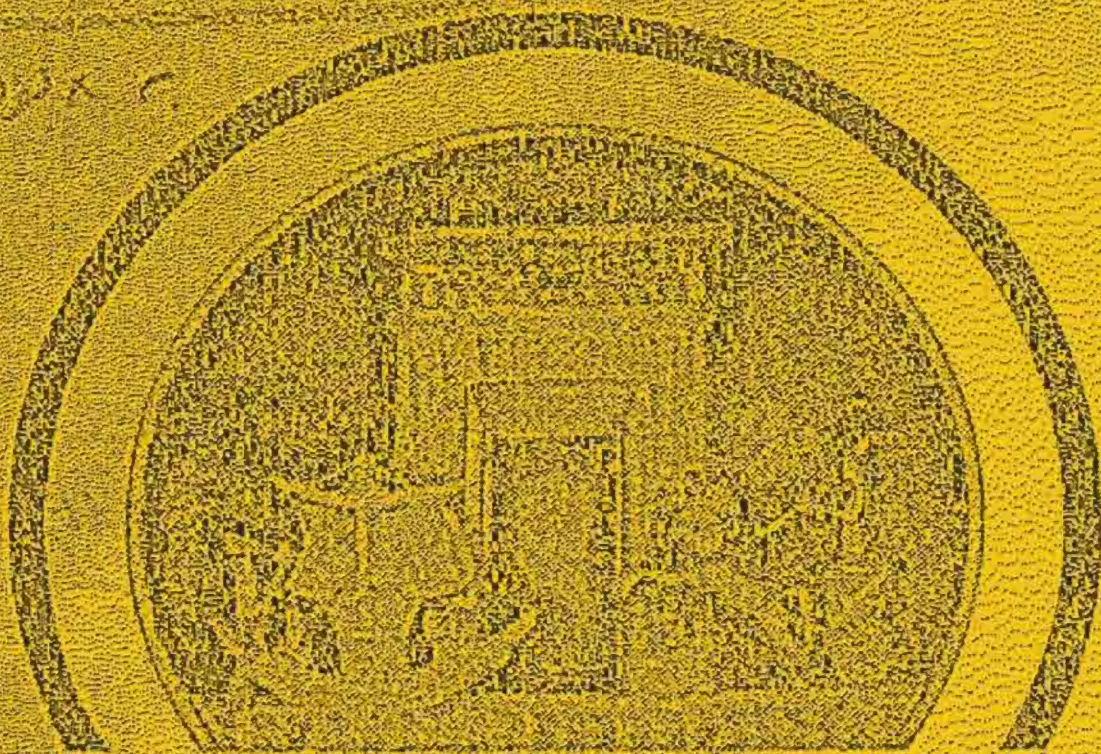


مكتبة
28182
مكتبة



مكتبة
مكتبة



مكتبة
مكتبة



رَأَيْتُ مِصْرَ الْقَدِيمَةَ

مقتطف سبتمبر ١٩٣٦

مقدمة

يسرُّ إدارة المقتطف ان تشترك مع قسم الخدمة العامة في جامعة القاهرة الاميركية وجامعة
البردي ، في اصدار هذا السفر النفيس المحتوي على بيان لدخائر الحضارة المصرية القديمة في
العلم والادب والفن والفلسفة ، ونوجه الشكر الخاص الى الاعلام الذين اشتركوا في وضعه ، والثناء
العطر على ادارة قسم الخدمة العامة في الجامعة الاميركية ومجلس ادارة جامعة البردي ونخص
بالذكر منهما الاستاذ حنا رزق والاستاذ حسين مؤنس

وبعد فعسى ان يكون في هذا الكتاب لورثة أمجاد المصريين القدماء ذكرى وعبرة

المقتطف ا

مصر وماضيها

لأستاذ حسين مؤنس

ليسانسيه في التاريخ من الجامعة المصرية

كنا نظن، يوم بدأنا العمل لاقامة اسبوع مصر القديمة اتنا وحدنا تفكر هذا التفكير، وكنا قد قدرنا ان لا غنى لنا عن دعاية واسعة النطاق، حتى يقدر الناس فكرتنا قدرها الصحيح، ويولوها ما هي جدرة به من عناية، ولـكـنـنا لم نكد نمضي في التنفيذ، حتى عرفنا ان الوهم كان قد اُضاف الى تفكيرنا شيئاً كثيراً، وان ما فكرنا فيه كان يدور في كل فكر ويجري على كل خاطر، كأنما لم يكن نقصنا كئنا الا أن يبدأ أحدنا المسير فيتبعه الآخرون خفافاً سرعاً. بل ما كادت المحاضرات تبدأ، حتى تقاطر الناس يستمعون اليها في شوق وشغف، كأنما تبدل الناس، فلم يعودوا يكتفون بان يكون علمهم بقدمااء المصريين قاصراً على انهم بناء الهرم واصحاب الهول، ولم تعد الغالبية منهم ترضى لمصر القديمة ان يكون ذكرها حديث الشبان المتحسين وحدهم أو أنشودة الاطفال في حفلات المدارس، ولم تعد دراستها قاصرة على العالم المتخصص، الذي ينظر الى دراسته كنوع من الهواية اللذيذة، او طوائف الاجانب الذين يفدون للمتعة وازجاء الفراغ، وأصبح التفكير في هذا الامر جدّاً خالصاً ولوناً من الوطنية يشعر به المصري دون الحاجة الى التنبه أو التوجيه، ولم يعد هناك شك في ان الشخصية المصرية لا تستقيم كاملة الا اذا ساهمت مصر القديمة في تكوينها، وان مصر الحديثة لا تزال تستبقي روح أمها القديمة، وان المصريين اليوم— والفلاحين منهم بوجه خاص — يمتون الى اجدادهم من اهل مصر القديمة وفلاحها بأوثق الاسباب

وعلى الذين يشكون في هذه الحقيقة، ويجادلون في قيمة هذه الدراسات وجدواها على هذا البلد، ان يذكروا أننا نعيش الى اليوم في رعاية مصر القديمة وبذكرها، وان الناس — إن كانوا يحترمونا ويذكرونا — فهو لا، الفراعين لا بأفئسنا ولا بماضينا القريب، فلا زال نصيب المصريين في بناء مصر الاسلامية موضع الشك عند الغالبية من المؤرخين، ولا زال مجد مصر الاسلامية قسمة بين العفاة والطائرين من مشارق الارض ومغاربها، لم يفيض الله له بعد من يدرسه على ضوء الحق، فيستن النصيب الذي ساهمنا به في بناء الحضارة الاسلامية. اما مجد مصر القديمة فلا خلاف بين المؤرخين على انه مجدنا وحدنا، واتنا أثمنا صراحةً بمجدنا وعبقرياتنا لا بمجد الاجانب الطائرين، فلا أقل من ان يذكرونا بالخير من يعجب بهم ويسبح بمجدهم، فنحن بهم لا تزال ولن نزال، حتى يهيء الله لنا الاسباب فتشدد سواعداً ونقوى، ويكون لنا من القوة ما يقيمنا على أقدامنا بغير حاجة الى رعاية اورفادة. فاذا هان هذا الماضي في حساب نفر من الناس فقد هانت عليهم مصر كلها، وأقروا صراحةً انهم اغراب لا نصيب لهم في هذا البلد، وجاز ان تقوم علينا البيئة بفراق هذا الوادي اذا غلبنا عليه غاز آخر له من القوة فوق ما لنا

ولعل أصحاب هذه الدعوى ينسون ان حقنا في هذه البلاد مكسوب من انتسابنا الى الفراعين ، وانه اذا ثبت اننا لسنا أبناءهم فقد سقط حقنا في المطالبة بهذه البلاد كحق لنا ، وهامي الخمسون السنة الماضية تؤيد هذا الرأي وتؤكد للكبار ان حقنا في هذه الارضين انما بدأ يتضح ويعترف به الناس من يوم ان تكشفت الاستار عن مصر القديمة وأهلها . ففي اوائل القرن السابع عشر كان المصري لا يرى نفسه صاحب هذه البلاد ولا أولى الناس بالمقام فيها ، وانما كان قصارى ما يطمع فيه ، ان يسمح له الحكم بالمقام الى جانبهم والعمل في أرضهم والسهر على راحتهم ، وكان هذا الكبر العليل في ضعفه وسوء حاله في هذه الايام ، لان استبداد الاتراك والمماليك بالامر من دونه لم يكن يهبط به الى هذا الدرك لو لم يكن هو نفسه موقفاً بأنه متطفل على موائدهم سائل ما ليس له فيه حق . ولو قد عرف انه صاحب هذه البلاد وأول من سكنها ، لكان موقفه من المماليك موقف صاحب الحق المهضوم الذي لا يني مطالباً ملحقاً ، ولا يعدم في يوم من الايام منصفاً يقر له به ولو مجرد الاقرار . وأولئك هم المؤرخون الاسلاميون بل المصريون ، لا نكاد نلمح في كتاباتهم ما ينم عن الشعور بحق في أرض مصر ، بل لا يكادون يرون انفسهم سواء مع المماليك والاتراك ، وانما هم مساكين يتسرون من المصرية ويتحاشون الاتصاف بها ، خشية ان تضرب عليهم الذلة والمسكنة التي حقت على مصر من يوم مست أرضها خيل عمرو الف ازية ، فلما ان نزل الفرنسيون مصر وبدأوا ينامون آثارها ورسومها ، ويشيرون أنها تتحدث عن ماض مجيد في السياسة والحضارة ، بدأ المصريون يرتفعون في أعينهم ، وبدأ حقهم في هذا البلد يتضح ويتجلى ، ولم يلبث نابليون ان أهاب بهم « وأي شيء في الممالك يميزهم عن غيرهم ، ويستوجب ان يملكوا مصر وحدهم ، فحينما تكون أرض خصبة فشي للمماليك ، ومثل ذلك أحسن الحوارى وأكرم الخيل وأجمل المنازل ، فان كانت الارض المصرية الزاماً للمماليك ، فليظهروا لنا الحجة التي كتبها الله لهم » (١)

وكان هذا أول البشرى ، اذ لاشك أن قرأ من المصريين قد تظن الى ما وراء هذه الصرخة من معنى عظيم ، فقفزت الحقيقة أمام أعينهم وبدأت تستقر في نفوسهم رويداً رويداً ، وكلما قدم العهد بالفرنسيين في مصر ، كلما تكشفت الاستار عن حجج جديدة وبنات لا يرقى اليها الشك بأن هؤلاء المماليك والاتراك ما هم إلا طغاة مستبدون ، وان المصريين الضعاف المنسكين هم أصحاب الحق الذي لا ينازعهم فيه أحد إلا بالباطل ، فما هي إلا سنوات حتى نجد الدعوة من أهل مصر أنصاراً ومؤمنين ، وحتى تبدأ فكرة « الاستقلال » تخامر النفوس وتتردد على الألسن ، ويتوافق الناس على الايمان بها ، ولا تكاد بضعة أعوام تنقضي حتى يجتمع نفر من

المصريين ويكتبون التماساً يطالبون فيه باستقلال مصر ، وردّها إلى أصحابها المصريين

وكان الفتح العربي قد أقام حدّاً سميّاً لا ينفذ منه النور بين مصر وماضيها البعيد ، اذ كانت الجنود الاسلامية الاولى قد أقبلت على ما فتحت من البلاد ، في عصر أظلمت فيه الاحوال وبلغت الانسانية فيه من الهوان دركاً سحيقاً ، فما عمّ الناس ان توافقوا على الترحيب بها والايان بما تحمل من عقيدة ، وزادهم إيماناً بها ما كانت عليه أجيال العرب الاولى من الصلاح والاعتدال وحسن السياسة ، فما هو الا قرن من الزمان حتى كان دين العرب وأبطالهم محل إعجاب العالم كله ، وانصرف الناس نحو هذه الوجهة ، واتخذوا منها مادة للحياة ، ومن ثم بدأ يضعف في حسابهم شأن أجدادهم وبلادهم ، فنسي المصريون فراعتهم ونسي الفرس أكرسهم ، وأخذوا ينتسبون بالباطل الى العرب وأبطالهم ، ليكونوا « مواطنين » في الدولة الاسلامية الفوية الكبرى ، وأخذ هذا الرأي يُتغافل في نفوسهم حتى ادّعى إيماناً لا يكادون يعدلون به غيره ، لا يقال من تعاقبهم به ضعف الدولة الاسلامية وتدهورها ، بل كلما اشتدّ الضعف بها ، كلما زاد تعلقهم بالجيل الاسلامي الاول ، الذي سمي في احلامهم حتى أصبح مثلاً أعلى يجلب الالباب ويستهي الافتدة ، وتعددت الاستار والحوازير بينهم وبين مواضعهم ، حتى لم يعد لها وجود حتى في احلامهم ، وزادهم انصرافاً عن هؤلاء الأجداد ، ان الدعوة الاسلامية لم تكف ساخطة عليهم متفصصة اياهم بحجة أنهم كفّار عبدة أوثان ، « وليس بعد الكفر ذنب » كما يقولون ، فهان فرعون على أهل مصر ، وهان كسرى على أهل فارس ، وأصبح كلاهما رمزاً للاستبداد والظلم والجبروت

لهذا كان طبيعياً ان يكون يأس الناس من الدولة الاسلامية وشعورهم بانها لم تعد قادرة على حمايتهم ، دافعاً لهم الى البحث عن حامي جديد ، فاذا لم يظفروا به لم يكن لهم بدّ من الاعتماد على انفسهم . ومن ثم أخذ تألق الاجيال الاسلامية الاولى يخبو في نفوسهم رويداً رويداً ، وبدأوا يتلفتون باحثين عن حضاراتهم القديمة ، فكان هذا بدء لعصر جديد في حياتهم ، عصر افل ما فيه الشعور بالشخصية والاعتماد عليها . بدأ هذا منذ اواخر العصور الوسطى واستمر حتى مطلع العصر الحديث ، حين تكشف الاستار عن ماضي مصر القديمة . وكان من سعيد المصادفة ان توافق ظهور الدعوتين على زمان واحد : دعوة اليأس من الدولة الاسلامية وضرورة اعتماد المصريين على انفسهم ، ودعوى الاشادة بمجد مصر وتكشف الاستار عن مجدها ، ولم تبق الا حلقة صغيرة تصل الدعوتين ببعضهما فتستقيم السلسلة ويتضح الحق ويبدأ العصر الجديد

على ان هذه الحلقة المفقودة لم تكن قريبة المتناول كما يتبادر الى الذهن من هذا العرض الذي

بسطناه، كانت مغيبة وراء آكام متراكمة من الزمان والرمال، وكان الايمان بها يتطلب العمل على اخراجها للنور والتفطن الى ما تضم من معنى وما تحوي من سر عظيم، اذ كانت آثار مصر القديمة، -- على رغم ما تحدث به من عظمة -- صامتة صمتاً لا تكاد تنبس عن شيء، حتى فيض للهيروغليفية بطلها الشاب شامبوليون، الذي أنفق حياته حتى كشف أمرها وحل سرها، فبدأت اليناث ترى والانوار تتوالى والبراهين تتوافق على مصر ومجدها، حتى أصبح الايمان بها علماً قائماً بذاته، لا دعاية وطنية تقوم على الحماس والاعلان، وصاحب هذا الوضوح في ماضي مصر واهلها الاقدمين، ارتفاع لشأن حاضر مصر واهلها المحدثين، فكلم كشف العلم والبحث أثره من آثار مصر المدفونة في رمالها، كان هذا الكشف وثيقة جديدة تؤيد حق المصريين المحدثين في هذا الوادي، وتشفع لهم عند أمم الغرب القوية المتجبرة

وكان عسيراً علينا --- نحن المصريين --- ان نساهم في هذا الميدان، ميدان البحث العلمي عن ماضي مصر، لانه علم خالص له اساليبه ومقوماته، فأن نحن من العلم بلغة هذه الآثار والمخلفات، وأن نحن من الفنون الكثيرة التي تحتاج اليها أعمال الحفر والتنقيب؟ لم يكن لنا بد من الاكتفاء، بادي الرأي، بأن نتسامع عن مجد مصر القديمة من هؤلاء العلماء الاوروبيين الذين كثر اقبالهم على بلادنا للبحث والتنقيب، وكانت صلتنا بهذا الماضي --- في أول الأمر --- لا تزيد على صلة الفرنسي أو الانجليزي به. كنا ندرسه للعالم به فقط لا نكاد نحس ان يبتنا وبينه سبباً --- وأن نحن من فرعون وآله --- وأن مصر الحديثة بما تعاني من ألوان الشقاء والمتاعب من هذه مصر القديمة بما لها من مجد سامق وعز وارف؟ ومن ثم اكتفى «العقلاء» منا بمذاكرة هذا الماضي على انه علم مقرر في بعض فترات الدراسة لا غنى عن دراسته للفوز في الامتحان، فاذا انقضت فترة الدراسة فلا معنى لهذا الذكر ولا سبب يربطنا به، فلندع العلم به لاصحابه يعنون به ويتفنون في الاعجاب به والتأليف فيه، ويبدلون الاموال في العنود على مخلفات اجدادنا، وينفقون الايام في دراستها والتفقه فيها، ومال المتحمسون منا الى الاشادة ببعض الشيء بهذا الماضي، اشادة كنا لا نشك --- فيما يبتنا وبين انفسنا --- ان فيها كثيراً من المصانعة والادعاء

على هذه الحال ظلمت العلاقة يبتنا وبين مصر القديمة زماناً طويلاً، كانت مصلحة الآثار ومتحفنا المصري «امتيازاً» للفرنسيين لا نكاد نحفل بالنظر نحوها، وظلمت الأقصر عشرات السنوات محط أنظار الاوربيين يقصدونها وحدهم للتسري والتفكه والتأمل، حتى المتحف المصري كان عماد على الاجانب والساحين، لا نكاد نحن ندخله الا اذا بلغنا من التغالي في الترف مبلغاً كبيراً، وكأين من رجل منا عاش ومات ولم يزر المتحف المصري، بل لم يخطر بباله ان يزوره ابداً بل عملت الحكومة على تيسير زيارته لنا وخفضت أجر الدخول، ومع هذا أبت الطرايش ان

تخطر في ساحاته، أو نحى فراغته الابحار وهم في جلالهم يثسهم طول الانتظار من لقاءنا .
 وكان أهل الادب منا — بحكم استعمال العربية — منصرفين الى العرب وأدبهم ينفقون الوقت
 في تحليله ودراسته ، فلا يكادون يذكرون مصر القديمة الأماماً . اذ كانت الثقافة العربية قد
 غرست في أذهانهم ان فرعون والعمود صنوان في الشر والبغي . فلما تأذن الله بالكشف عن
 مجد مصر القديمة وأقبل العلم بالبيّنات على ذلك بدأ الأمر يتبدّل ، وأنشأ الناس يميلون بالحب
 نحو هذا المجد السامق البعيد . وهذا اسماعيل باشا صبري يريد ان يلوم المصريين على تقصيرهم
 وهوان أمرهم ، فلا يجد الا فرعون المجيد يسوق الكلام على لسانه ، فيصوره يأساً من أهل
 مصر الحديثين ساخطاً بهم يتبرّم منهم ، ويؤكد ان هؤلاء الكسالى ليسوا قومه ولا أعوانه

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني اذا وفي يوم تحصيل العلا واني
 واست — إن لم تؤيدني فراعنة منكم — بفرعون عالي البأس والشان
 لا تقرّبوا النيل إن لم تعملوا عملاً فإؤه العذب لم يخلق لكسلان

ثم كانت الأحداث السياسية دافعا للناس الى ذكر مصر القديمة وتأكيده الاسباب بينها
 وبينهم ، وما من ثورة وطنية في مصر الا انصرف الناس بالغريزة الى التفكير في الماضي القديم ،
 كأنما أحسن الناس بالفطرة الهادية ان الأمرين قريب من قريب ، وان الاشادة بمصر القديمة
 ومجدها لون من الوطنية ، فهذا هو البارودي لسان الثورة العرابية الناطق ، وشاعرها العظيم
 تلاحظ عنده شيئاً يشبه الميل الى هؤلاء الاجداد والعطف عليهم والتقدير لماضيهم ، فتجده يبي
 مصر القديمة وآثارها الاولى وينعي على الذين عدوا على هذه الآثار فسلبوها كثيراً مما بها :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
 بناء أن ردّاً صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
 أقاما على رغم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البرية بالفخر

ثم يهيب بسامعه الى الاعجاب بعلوم مصر القديمة ومجدها :

فقم فعرّف خمر النهى من جفانها ونحني بأيدي الجد ربحانة العمر
 فقم علوم لم تقتنق كماها وثم رموز وحيا غامض السر
 ثم يأخذ يرثي معالمها ويحن اليها حنيناً شديداً ويعلن من أساءوا اليها وعشوا بآثارها
 ومخلفاتها :

وما ساعني إلا صنيع معاشر ألحوا عليها بالحيانة والغدر
أبادوا بها شمل العلوم وشوّهوا محاسن كانت زينة البر والبحر

ثم أقبلت الحركات الوطنية واستقام في الناس دعاة الحرية والاستقلال ، وأعوزتهم الحوافز التي تثير الهمم والحجج التي تثير في النفوس الحماس وتستفزها للجهاد . . . وهنا أبدت الأيام ما كان خافياً . . . فإذا الخطيب لا يجد إلا مصر القديمة يذكر الناس بمجدها ويعيد إلى أذهانهم ذكرها . . . وإذا الشاعر لا يجد غير الهرم وأبي الهول ينظم فيهما قريضه ليستثير العزيمات ويوقظ النفوس . . . وكما سمعنا في نمرات الثورة بمصر وماضيها . . . وكما تملأ هذا الإيمان في النفوس فتطلق به الطفل اللاعب والحدث الثاني . . . واستبان الناس في غير حاجة إلى البرهان أن العلاقة بين مصر القديمة والحديثة أمر يتصل أوثق الاتصال بقضية الوطن . وهذا سعد يقول مخاطباً المصريين : « أتم أنبل الوارثين لأعظم المدينيات » وما سعد إلا لسان هذه الأيام وقلمها الحفّاق . . . يعبر عن شعور الشعب أصدق تعبير . . . وفي مخاطبته المصريين بهذه العبارة معنى لا يكاد يخفى على لبيب . . .

وها هم اعلام الفكر في هذه الايام يكاد الاعتراف بمصر القديمة وماضيها ان يكون إيماناً غدهم ، يذكرونها بالتجالة والتقدير والاحترام العميق ، فهذا هو العقاد يقف بباب هيكل ادفو خاشع القلب اجلالاً واعظاءً :

دار البطالسة الكرام جلالاً	زالوا وهذا مجدهم ما زالا
هاك امنحينا من خلودك نفحة	فبقول فيك من الخلود مثالا
واستفتحني باب الرموز بمدنا	بالسحر لفظاً صادقاً وخيالاً
إني وقفت لديك أرفع اخصي	حذراً وأخفض ناظري اجلالاً
فخنت رأساً في وصيدك ما انحنى	من قبل إلا للإله تعالى

إلى . . . وهذا سوق يهبط عليه السحر من مصر القديمة ووحيا فلا يلبث ان ينطقه آية من أبلغ آيات فقهه وبيانه في نصيده التي مطلعها :

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا
فيفخر بملوك مصر القديمة ويساويهم بأعظم ملوك الاسلام :

أم المالكين بني أمون ليهنك انهم نزعوا أمونا
ولدت له المأمين الدواهي ولم تلدي له قط الأمينا

ثم يؤكد ان مصر اصل الحضارات :

مشيت بمنارهم في الارض روما ومن أنوارهم قبست أثينا
ثم يدعوا الصبح الى الحج الى آثار مصر القديمة، والخشوع ببابها والاعتراف بماضيها في
آيات من أصدق وأجل ما جادت به عبقريته :

خيلي أهبطا الوادي وميلا الى غرف الشموس الفارينا
وسيرا في محاجرهم رويداً وطوقا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا رفاق المجد من توتخينا
وقبرا كاد من حسن وطيب يضيء حجارة وبضوع طينا

الى آخر هذه القصيدة العامرة بالآيات البينات عن مصر ومجدها وماضيها والفخر بها
والاعتراف بفضائها علينا وعلى الدنيا كلها

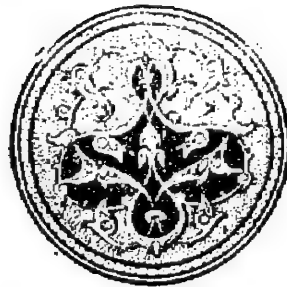
ولكن ذلك لم يكن كافياً، اذ لا زالت صلة المصريين باجدادهم غامضة لا تقوم على اقتناع
ثابت دقيق، يشك فيها البعض ويستهن بها البعض الآخر، وعلة ذلك ان مجد مصر القديم ليس
سهلاً مباحاً لكل من أحب الاتصال به ومعرفته، انه محجب خلف الرموز وفي باطن الارض
وفي اطواء متراكمة من الاسرار والادهار، التي لا يصل اليها الانسان الا عن سبيل العلم والدراسة،
وأن للمصريين العلم بهذه الآثار وطلاسمها وعن البحث عنها، وقد سار الاورليون فيه شوطاً
بعيداً، وتوفروا على درسه توفراً انتهى به الى ان يكون سلسلة طويلة من العلوم والدراسات
كلها صعب ثقل، بعضها اللغات الحية والقديمة، وبعضها العمارة وبعضها الطب، وبعضها التاريخ والفلك
وسا الى هذه من العلوم، أن للمصريين الامام بهذا كله والاتقطاع له والتوفر عليه ؟

هناك أقبلت جماعة من بني مصر الأبرار وعقدوا العزم على رياضة النفس على ما يتطلب بلوغ
هذه الغاية من صبر، واحتمال ما تتكلف من مال، ومضوا في سبيلهم لا يصدحهم أمر ولا تحول
عقبة يفتهم وبين ما يريدون. وكان الطريق وعراً شديداً، كان عليهم ان يدرسوا لغات اليوم وعلمه
وقد ليتصلوا بلغات الامس وعلومه وفنونه، وكان عليهم ان يكونوا مخلصين في هذه السبيل مستعينين
بالصبر الطويل الذي لا ينفد .. وكما كان الجهد شاقاً والطريق صعباً . وكما ليلة تقضت عنهم وهم
في غمرات الدرس وأوصاب البحث وآلام الكشف .. وهم مغتربون عن الديار نازحون عن
الأهل، لا يحفزهم غير هذا الحب القوي الذي حفظوه لبلادهم، ولعل منهم من ثارت الحرب
وهو في غربته وفصلت بينه وبين آله، فلم يحزن ولم يطر قلبه شماعاً . ولعل فيهم من تحمل
في ذلك من النفقة ما تعاظم وأورثه الدين العظيم، ولعل فيهم من كان يقعد به الجسد الضعيف

او العلة الطارئة عن المضي في هذه السبيل، فلم ينقطع له عزم ولم يتبدد له أمل، وانما مضى في سبيله كريماً عزيزاً

واليوم يتردد ذكر مصر القديمة على كل لسان ويجري مع كل خاطر، ويستقر حبها في النفوس ويأخذ مكانه في حيث ينبغي ان يأخذه من نفس كل مصري... وأولئك نحن مجتمعنا حب مصر القديمة واعزازها في هذه السلسلة القصيرة من المحاضرات، وأولئك هم صبية المدارس يتغنون بذلك المجد لا يكادون يعدلون به شيئاً. أأكون مخطئاً اذا قلت ان هذه الفئة الصالحة التي انصرفت الى مصر وتاريخها قد أحبت مصر من جديد؟ وانهم أولى الناس بالشكر والتقدير من كل فرد في كل زمان، أجل وها نحن نحني ثمرات ما غرسوا ونسعى لنقيم بناء القد قوياً عزيزاً، ونحن أوثق ما نكون من ان هذا البنيان ثابت على هذه الأسس القوية التي لا يدركها وهن...

لقد أثبتوا حقنا في بلادنا، وجعلوا بيننا وبين المجد سبيلاً، ومهدوا بيننا وبين العزة سبيلاً، ونثروا في طريق الاجيال المقبلة الزهور والرياحين



جيمز هنري برسترد

والبحث عن آثار الإنسان الأول في مصر

للدكتور مصطفى عامر

أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب في الجامعة المصرية

فكرة نبيلة تلك التي دعت اليها جماعة البردي ، اذ شاءت ان تعيد الحياة ، خلال أسبوع من الزمن ، الى مصر القديمة ، وان يحيي في نفس الوقت ذكرى عالم من اكبر علماء الآثار المصرية وهو الاستاذ جيمس هنري برستد ، الذي وافته المنية قرب نهاية العام الماضي . وما أحوج مصر الى احياء تاريخها القديم ، ففيه صفحات مجد ونخار ، وفيه دروس في الوطنية والعظمة القومية ، مما لا نعرف له مثيلاً في تاريخ اي شعب من الشعوب . ولا ريب ان تخليد ذكرى العلماء الذين ساهموا في ازاحة الستار عن تلك الفترة من تاريخ مصر القومي بعد ان بقيت مدة طويلة سرّاً من الاسرار التي لا يُعرف كنهها ، لمس الامور التي تستحق منا كمصريين كل عناية وكل اهتمام

لذلك كان من دواعي سروري ان دُعيت الى الاشتراك في احياء هذا الاسبوع ، وكان سروري اعظم اذ رأيت الفرصة قد سَنَحَتْ لدفع قسط صغير مما في غنقنا من دين كبير للراحل العظيم الاستاذ برستد فقد أنفق من حياته ، زهاء اربعين سنة ، في البحث والتنقيب عن آثار أجدادنا العظام ، وعكف على بحث نواحي التاريخ الفرعوني ، وكتب فيه ، بحماسة لا نعرفها عند المؤرخين من أبناء البلاد ، وأقام الأدلة وجمع الحجج ليظهر فضل مصر ، وفضل المصريين ، على العالم أجمع ، فوادي النيل عنده مهد الحضارة البشرية الاولى ، ومنه انتشرت ، حتى عمّ أثرها في النهاية بلاد الشرق وبلاد الغرب على السواء

وسوف يحاضركم زملائي الافاضل في مظاهر تلك الحضارة العظيمة ومدى انتشارها ، وأما أنا فسأقصر كلمتي على ناحية هامة من نواحي نشاط برستد ، وهي من ناحية ربما كانت غير معروفة تماماً للكثيرين ، وان كان قد خصها في السنوات الاخيرة من حياته بقسط كبير من عناية فقد كان برستد من المؤرخين القلائل ذوي الادراك الواسع الذين يدرسون تاريخ المجموعة البشرية كوحدة كاملة غير مجزأة . وقد رأى منذ زمن بعيد ، ان فهم التاريخ الاوربي يرتبط الى حد كبير ، بدرس تاريخ الشرق القديم ، وان تاريخ الشرق لا يكون واضحاً تماماً ، الا اذا عرفنا أدوار التطور التي مرّ فيها الانسان الاول منذ ظهوره ، في وادي النيل وفي غرب آسيا . ففي تلك الجهات ، قامت من قديم الزمان ، دول لها حضارات ، وعلى حدودها بقيت اوربا الهمجية لمدة ألفي سنة ، دون ان تتأثر بها الا من الجهة الجنوبية الشرقية منها ، حيث كان اتصال اليونان بوادي النيل من جهة ، وبساحل الاناضول ، موطن الحثيين من جهة أخرى . ومن اليونان

انتشرت ثمرة عقول سكان البحر الابيض الى ذلك العالم الاوربي المتأخر ، على انه كان انتشاراً بطيئاً للغاية ، ولم يصل اليه ، الا بعد وقت طويل من بزوغ شمس التاريخ وقد أصبح التاريخ القديم لاقطار الشرق الادنى ، بعد أن تمكن العلماء من حل رموز اللغة الهيروغليفية واللغة المسمارية ، حلقة عظيمة الاهمية ، من حلقات التاريخ البشري العام . فعنده تنهي الأ دوار ، المختلفة التي مر فيها الانسان خلال عصر ما قبل التاريخ ، ومنه تبدأ الحوادث العظيمة التي انتهت بظهور الحضارة الاوربية الحديثة

عرف برستد كل هذا وقدّر ما لتاريخ مصر وجيرانها من قيمة علمية لا تقدّر ، وعرف أن بحثاً شاملاً لتاريخ تلك الاقطار يتطلب مجهوداً جماعياً ، لا بمجهود فرد ، وتمكّن في النهاية ، على الرغم مما أحاط به من صعوبات ، من انشاء هيئة علمية ، تقوم بتنظيم نواحي الدراسة المختلفة وتعمل على إنفاذ تراث الشرق القديم من الضياع والاندثار . هذه هي الامة ، التي طالما كانت حلمًا من أحلامه ، تحققت في سنة ١٩١٩ ، اذ تم تأسيس «المعهد الشرقي» (Oriental Institute) بجامعة شيكاغو ، بمعونة مستر روكفلر الصغير . وقد وضع برستد برنامجاً جامعاً للمعهد ، وجعل له أغراضاً ثلاثة :

- (١) انشاء البعثات الاثرية للبحث عن الآثار من الجهات الهامة في الشرق الادنى ، وهي الجهات التي قامت فيها الحضارات القديمة
 - (٢) جمع المعلومات من كل تلك الجهات على ان تشمل النواحي الجنسية والثقافية والانثروبوجرافية (الجغرافية البشرية)
 - (٣) درس تلك المعلومات في المركز الرئيسي للمعهد ، وتحليلها وربط بعضها ببعض ، حتى تكون الصورة النهائية للنشاط البشري في تلك الجهات كاملة لا نقص فيها
- وقد جهّز برستد هذا المعهد بكل ما يمكن ان يكون لدى معهد علمي حديث من معدات للبحث والدرس ، وأنشأ له فروعاً في الاماكن الاثرية الهامة في الشرق الادنى ، وجذب اليه عدداً كبيراً من الباحثين والاختصاصيين من كل أمة ومن كل قطر ، حتى أصبح لدى المعهد عدد كبير من اصحاب الكفايات في كل علم من العلوم التي تتصل بدراسة آثار الشرق وتاريخه ، كاللغات الشرقية القديمة ، والانثروبولوجيا ، والنبات ، والحيوان ، والجيولوجيا والجغرافيا البشرية وكان طبيعياً أن يشمل هذا البرنامج الواسع ، دراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر وفي غرب آسيا ، على النمط العلمي الذي درست به آثار ذلك العصر في اوربا . على ان ذلك لم يأت الا بعد سبع سنوات من تاريخ انشاء المعهد ، عكف برستد في أثناءها على تنظيم تلك الناحية الجديدة من نواحي البحث ، وأنشأ لها هيئة خاصة بدأت عملها في مصر في شتاء سنة ١٩٢٦ —

سنة ١٩٢٧ . وقد حدد أغراض تلك الهيئة بجميع كل أنواع الأدلة الخاصة بمراحل تقدم الانسان خلال العصور الحجرية ، مع بحث الظروف الطبيعية المرتبطة بظهور الانسان الاول ، ودراسة ما هنالك من علاقة بين آثار الانسان الاول في الشرق الادنى ، وآثاره المعروفة في اوربا . وقد كان واضحاً كل الوضوح منذ البداية ، أن مثل تلك الدراسة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسة الاحوال الجيولوجية والمناخية في زمن البليوسين وزمن البليوستوسين ، وأن فحص الأدلة الكثيرة يحتاج الى اخصائين في الجيولوجيا الحديثة وفي التكوينات السطحية المتأخرة ، على أن يكون هؤلاء في نفس الوقت من ذوي الخبرة بآثار الانسان الاول ومسائله المختلفة . فالبحت كما نرى بحث جيولوجي في بعض نواحيه ، وبحث اركيولوجي في النواحي الاخرى . ويتضح مالذلك من الشأن الكبير اذا عرفنا ، ان معلوماتنا عن التاريخ الجيولوجي لنهر النيل كانت الى عهد قريب ، ناقصة نقصاً كبيراً ، حتى في بعض المسائل الهامة كطريقة تكوين الوادي . أما الآن فقد أصبح الجيولوجي يعرف ان الوادي تكوّن بفعل النحت النهري ، كما يعرف الاركيولوجي ان الانسان ظهر في الوادي في دور معين من الادوار التي مرّ فيها الوادي في اثناء تكوينه على ان الابحاث الخارجية بالعصور الحجرية في مصر لم تكن مجهولة تماماً قبل اليوم ، ولكنها لم تكن إحصائياً منظّمة ، بل كانت مقصورة على بعض المناطق دون الاخرى ، كما ان الجيولوجيين كانوا يوجهون كل عنايتهم الى الناحية الاقتصادية من الجيولوجيا ، وهي الناحية التي تعنى بالبحث عن المعادن في مرتفعات البحر الاحمر

لذلك كانت أبحاث المعهد الشرقي فريدة في بابها وكانت نتائجها ذات أهمية علمية كبيرة ، إذ أضافت الكثير الى معلوماتنا ، ووضعت أساساً علمياً صحيحاً للدراسات التكميلية التي يمكن ان يقوم بها الباحثون في المستقبل . وقد وضع برستد بعثة ماقبل التاريخ تحت اشراف الدكتور ساندفورد (K. N. Sandford) بإساعده الدكتور أركل (W. G. Arkell) وهما من الجيولوجيين البريطانيين وأتمت البعثة عملها بعد ست سنوات من البدء به ، تمكّنت في خلالها من بحث فزيوغرافية النهر والاراضي التي على جانبيه ، المسافة طولها ١٠٠٠ ميل من الشلال الثامن حتى البحر الابيض المتوسط . وقد جمعت في أثناء رحلاتها أدلة كثيرة عن تاريخ الوادي واحوال سكانه منذ ظهور الانسان لأول مرة ، وامتدّ البحث في منطقة قنا الى داخل الصحراء والى ساحل البحر الاحمر ، حيث وجدت أدلة جديدة تثبت وجود انسان العصر الحجري القديم

كذلك تمكّنت البعثة في عام ١٩٣٢ من فحص منطقة وادي النيل ، بين الشلال الثاني ونهر عطبرة ، وعلى ذلك تكون قد اجتمعت لديها الأدلة المختلفة ، على سكنى الانسان الاول في الوادي من شمال السودان حتى مصر السفلى . ومن تلك الادلة ، ومما جمعه الباحثون الكثيرون في

جهات الصحراء المختلفة من آثار ، سوف يمكننا في النهاية تكوين صورة واضحة عن حياة الانسان الاول في الركن الشمالي الشرقي من افريقية

وقد درست البعثة المصاطب التي توجد على جانبي النيل وروافده ، والتي تكونت في الماضي عند ما كان النهر يقوم بنحت مجراه ، في وقت كان نزول المطر أكثر مما هو الآن ، وعرفت ان الانسان ظهر في الوادي بعد زمن طويل منذ ان بدأ النهر في تكوين تلك المصاطب ، بدليل ما تركه عليها من اسلحة صوانية هي في جماتها شبيهة بانواع اسلحة العصر الحجري القديم في اوربا . وقد تتبعت البعثة تلك المصاطب حتى ساحل البحر الابيض ، وعثرت فيها على مقادير كبيرة من الاسلحة ، وقد كنت من تحديد تاريخها وتتبع تطورها ، بفحص التكوينات ودرس الاصداف التي وجدت معها

وليس من شك في ان هذا النوع من الادلة له أهمية العلمية الكبيرة ، وهو يضع دراسة العصر الحجري القديم في وادي النيل على اساس سوف يساعد على حل الكثير من المسائل الخاصة بثقافات الانسان الاول في مصر . واذا كانت الدراسة الطباقية للأسلحة ، معروفة من قبل في بعض جهات مصر ، كدراسة Pit Rivers في وادي الملوك ، و Vignani في كوم امبو و Boven-Luifre في سهل العباسية ، إلا أنها كانت أمثلة قليلة ، من اماكن متباعدة ، لا رابطة بينها . واما معظم الاسلحة التي جمعت منذ القرن الماضي ، فقد وجد على سطح الارض الصحراوية ، ولذلك كانت قيمتها العلمية محدودة ، لعدم تحديد تاريخها الجيولوجي . وقد عثر الهواة على الكثير منها ، وقام الاهالي بجمعها والمتاجرة فيها ، وهي ان كانت تساعد على ايضاح شيء ، فهو ان الصحراء كانت في العصر الحجري القديم آهلة بالسكان في معظم جهاتها

وقد أضافت البعثة الى أبحاثها في وادي النيل ، ابتغاءاً تكميلية قامت بها في الصحراء الغربية في سنة ١٩٣٢ بالاشتراك مع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . والرحلات في الصحراوات البعيدة تحتاج كما نعلم الى تنظيم خاص ، وهي من أشق الرحلات وأصعبها . وقد زارت البعثة « الواحات الخارجة » وجبل عوينات والفاشر وواحة سليمة ووادي حلفا ، وقطعت منذ قيامها حتى عودتها الى القاهرة حول ٥٠٠٠ ميل ، معظمها في جهات غير مطروقة . وجمعت في أثناء تلك الرحلة ، الكثير من الادلة على سكنى الانسان لتلك الجهات في العصور القديمة ، وذلك على الرغم من انها تخلو من الانسان في الوقت الحاضر ، كما عثرت في الجهة الجنوبية الغربية من الواحات الخارجة على قيعان بحيرات قديمة ، جف مأواها منذ زمن بعيد ، وقد كان الانسان الاول يعيش على شواطئها كما تدل على ذلك آثاره . تلك هي المرة الاولى التي بحثت فيها الصحراء الواسعة في الجهة الجنوبية الغربية من مصر ، بحثاً اركيولوجياً منظماً

وقد حصلت البعثة من الابحاث التي قامت بها في اقليم الفيوم على نتائج لها خطرها . وهي وان كانت لا تتفق في بعض نواحيها مع النتائج التي وصل اليها بعض الباحثين الآخرين ، الا انها في مجموعها تدل على مجهود كبير لا يمكننا تجاهله . فقد درست البعثة طبوغرافية منخفض الفيوم ، وبحثت في طريقة تكوينه وفي علاقته بوادي النيل ، وحصلت على أدلة كثيرة عن حياة الانسان الاول في هذا الاقليم ، وعن الاحوال المناخية التي كانت تسود قديماً في الصحراء . أما الدراسة الاركيولوجية البعثة ، فقد ساعدت على تتبع ثقافات الانسان الاول منذ العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الحديث ، عندما ابتكر الانسان صناعة الفخار ، وزراعة الارض ، ونجح في استئناس الحيوان وأخضاعه لاغراضه . والأدلة التي لدينا عن تلك الفترة الاخيرة الهامة من حياة الانسان ، قليلة للغاية في وادي النيل نفسه ، فقد اخفى الغرين ، الذي يملأ الوادي منذ ذلك العصر ، في جوفه معالم تلك الحضارة ، التي ربما كانت اقدم حضارة زراعية معروفة . ولندكر هنا ان قطعاً من الشقف ، وأشياء اخرى تدل على وجود هذا الانسان الزراع في الوادي منذ القدم ، حصل عليها المعهد الشرقي من بئر عميقة حفرها في مركزه الجديد في الاقصر ، وبلغ عمقها اكثر من ٨٠ قدم . ومن المحتمل ان يكون هذا الشقف اقدم الانواع التي نعرفها في اية جهة من جهات العالم . اما سكان الوادي في ذلك الوقت فقد سكنوه قبل ان يتراكم فيه الغرين الى حد كبير

من هنا كانت اهمية الفيوم في دراسة حياة الانسان في العصر الحجري الحديث ، فقد بقيت آثاره ظاهرة فيها (وفي مرمره من غرب الدلتا) دون ان يغطيها الغرين ، كما حدث في الوادي لان الفيوميين القدماء سكنوا قرب شواطئ بحيرة عظيمة ملأت معظم نواحي المنخفض ، وقد وصل مستوى الماء فيها الى ارتفاع كبير . ومنذ اواخر العصر الحجري القديم اخذت الامطار تقل ومورد الماء ينضب ، وسطح الماء في البحيرة ينخفض . وقد حدث هذا بالتدريج ويطء تدل عليه الشواطئ المتعددة الجافة التي تركتها البحيرة القديمة وراءها بعد انكماشها والتي وجدت بين حصائها آثار الانسان الاول التي يسهل تتبعها من اواسط العصر الحجري الحديث

وقد أدى هذا البحث الى معرفة الشيء الكثير عن الاحوال المناخية القديمة ، فقد كانت الامطار غزيرة حتى وسط العصر الحجري القديم (الزمن الملوستيري) ، وكان العشب يكسو معظم جهات الصحراء ، والماء يملأ معظم منخفض الفيوم ، غير انه في اواخر ذلك العصر ، اخذ شبح الجفاف يظهر بالتدريج ، ونقصان ماء البحيرة القديمة لا يبالغ دليل على ذلك ، فقل الماء وشح ، وجف العشب ويبس ، وأصبحت حياة الصائد في هذا الجزء من قارة افريقية ، صعبة للغاية . وقد اضطر ، بسبب ذلك في النهاية ، الى الالتجاء الى وادي النيل ، كما لجأ اليه الحيوان

الذي بصيده، وهنا في تلك البقعة المختارة، توصل الانسان، بعد كدٍّ وجهد، الى حل مشكلة الحياة الجديدة، التي كان الجفاف اهم عامل في ايجادها. فابتكر الزراعة واستأنس الحيوان، وبنى المسكن، وطاش عيشة استقرار، وكوّن الجماعة ونظمها على اساس جديد، ومهد الطريق امام قيام حضارات ما قبل الاسرات، وأمام اختراع الكتابة وبدا التاريخ.

أما أقدم الأدلة على وجود الانسان في مصر، فقد وجدتها البعثة في الجهة الغربية من وادي النيل، وبين الفيوم واهرام الحيزة، اذ عثرت على مجرى ماء قديم، امكن تتبعه لمسافة ٥٠ ميلاً، وفيه تكمينات عميقة من الحصباء، تختلط معها الاسلحة الصوانية للانسان الاول ولما كان المعتقد ان هذا المجرى يرجع الى اواخر البليوسين واولائل البليوستوسين، كانت تلك الاسلحة لأقدم انسان عرفه العلم للآن في جهات الشرق الأدنى.

هذا يحمل للجهود العظيمة التي قام بها المعهد الشرقي، وعلى رأسه برستد، للبحث عن السكان الاول في وادي النيل. وقد عرفنا هؤلاء في ادوار الوحشية الاولى، يعيشون على الصيد، في العصر الحجري القديم، وتنبعنا حياتهم خلال عصر زاد فيه الجفاف، وساءت معيشة الحيوان والانسان، ثم رأيناهم ينتقلون من دور الصيد الى فجر نهضة جديدة، اساسها زرع الارض واستئناس الحيوان في العصر الحجري الحديث. اما ذروة هذا الانقلاب الخطير، ونتائج ادخال تلك الأسس الجديدة في نظام الحياة، فنصها في عصر الدولة القديمة، وفيها تركت لنا من آثار توضح ما وصل اليه المصري الاول من تقدم في أول دور من ادواره التاريخية.



النزات العالمی طهر القدریة

للرکنور - حسن کمال

مقدمة

(١) — لنهر النيل تأثير كبير في تاريخ العلوم المصرية فضرورة المحافظة على مجراه واستعمال مياهه علمت المصريين هندسة الأنهر وما يتبعها من مساحة الأراضي . ولما تفقدوا السماء وجدوا في حركات نجومها واسطة للاستدلال بها على ميعاد فيضان ذلك النهر العظيم . ومن ثم بدأ اهتمامهم بالفلك واتسعت دراستهم له . ولما كان الفيضان اذا طغى على الأراضي محاماً معالم الحقول تقفن القوم في ابداع المقاييس ومعرفة المساحة . ولما زاد اهتمامهم بالفلاحة أقنع الفراغة رعاياهم بان المحافظة على الحدود والاملاك الشخصية أمر مقدس يجب مراعاته وبتحتم احترامه . وهذه العوامل بالذات أحدثت نفس النتائج في بلاد بابل . وبديهي ان كل زوال للفيضان كانت تعقبه مشاحنات ومضاربات ومن هنا نشأت ضرورة سن القوانين وتوقيع العقوبات . هكذا أجبر النيل سكان واديه على ان يضعوا لانفسهم أسس العلوم والقوانين والنظم السياسية

ثم بدأ القوم بشيدون العمارات الضخمة لدور الحكومة أو التعبد . فعمدوا الى النيل لينقلوا بواسطته تلك الكتل الضخمة التي شادوا بها آثارهم الباذخة . وبهذه الطريقة وحدها تمكنوا من تشييد الاهرام ونقل الجرانيت من اصوان الى انحاء القطر مثل منف وتيس الواقعة بالقرب من البحر الايض المتوسط . وهكذا اصبح النيل الشريان الرئيسي للتجارة الداخلية . ومن ثم برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور في صناعة السفن فابتكروا المجاذيف والقلاع و« القمرات » وغير ذلك من وسائل الراحة في السفر

ومساحة الأراضي وكيثل المحاصيل وتوزيعها اضطرهم لمعرفة أصول الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة . كذلك فن المعمار اجبرهم على معرفة الهندسة الفراغية . والى النيل ايضاً وتطوراته الطبيعية يرجع الفضل في معرفة المصريين لطريقة قياس الزمن . فقد تنهوا في القرن الثالث والاربعين قبل الميلاد الى ان السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ يوماً . ويعتبر هذا الاكتشاف الميماني واستعماله في الشؤون الدنيوية (وأهمها الزراعة وقشدر) خطوة كبيرة نحو الرقي وشرفاً عظيماً للوطن الذي اكتشف فيه . وقسم المصريون سنتهم الى اثني عشر شهراً وجزأوا كل شهر ثلاثين يوماً حفظاً للنظام وتسهيلاً للعداوات . وهكذا اثبت سكان وادي النيل ان التوقيت شيء عر في يصطلح عليه القوم

وللزراعة فضل كبير في ابتكار العلوم والفنون في مصر . فالخط الميرغليفي مكوّن من عدة رسوم لنباتات وحيوانات واشخاص وادوات زراعية وصناعية ومنزلية وحرية وعلمية وخلافها . لذا وجب التسويه عن تاريخ هذا الخط باختصار . ولا يخفى ان قدماء المصريين استعملوا الكتابة

منذ نحو خمسة آلاف سنة . وان كتاب الاسرة الخامسة الذين اتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من اسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر كما نسخوا أيضاً عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح أنها نُقلت سابقاً مراراً . ومن هذه النصوص استنتجنا معلومات كثيرة عن علومهم الدينية والاخرية وقشعر. والخط الهيروغليفى الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الملك والحكومة والحزاة لم يكتشف فجأة وقت اعتلاء الملك (مينا) كما سبق أن أُلغنا بل كان مستعملاً في مبدأ الاسرة الاولى وهو كما لا يخفى اخزان للخط الهيروغليفى . فلا بدّ اذن ان يكون هذا الاخير قد استعمل قبل عهد الأسر بزمان طويل لكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد وبعد هذه المقدمة الوجيزة واستعراض اساس التراث العلمي لمصر الفرعونية نتناول الوجهات العلمية الهامة على افراد حسبما يقتضيه المقام والزمان

(٢) — (تقسيم الزمن) يرجع تقسيم الزمن الى اصول فلسفية متعددة . منها ان الانسان منذ نشأته في هذا العالم وشعوره بالوجود وتقدمه في السن ووفاته وميراثه بدأ يفكر في الوقت ويتكهن بحقيقة الزمن ويشهد قريحته في خفايا الكون حوله . فوجه عنايته اولاً الى المكان ومساحة الاراضي ونجراتها ثم تعدى ذلك الى الزمن وأجهد قريحته في ايجاد وسيلة لقياس هذا الشيء المعنوي فوجد ان اسهل وسيلة لذلك هو قياسه بحادث منتظم التكرار وعثر على ضالته في الليل والنهار . ثم في تغير اوجه القمر ثم في علاقة الشمس بالارض من حيث قربها وبعدها ثم في تغير مواضع النجوم وغير ذلك

ويرجع كثير من الفضل في معرفة قياس الزمن الى مجهود قدماء المصريين واهتمامهم بالكائنات وشفهم بالفلاحة . ففي سنة ٤٢٤١ ق م استعمل المصريون السنة الشمسية وحدة في توقيتهم وقسموها الى ٣٦٥ يوماً لكنهم لم يتمكنوا من معرفة ان هذا العدد ينقصه ربع يوم . او بعبارة اخرى انه يجب اضافة يوم لكل سنة رابعة كي تصير ٣٦٦ يوماً وهي المعروفة عندنا بالسنة الكبيسة . وهذا التقصير في الادراك مكن المؤرخين كثيراً من معرفة عدة عصور هامة في العهد الفرعوني كانت معرفتها متعذرة من دونه . وهذا الخطأ الصغير يصحح بتكرار السنين سنة شمسية كل ١٤٦٠ سنة . لذلك يتضح انه لو ذكرت عصور توافق فيها شروق نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس أمكننا معرفة تاريخ تلك العصور بالرجوع الى الطرق الفلكية بدقة لا يتعدى خطأها الاربع سنوات . ويجدر بنا في هذا المقام ان نذكر ان يوليوس قيصر هو اول من ادخل التوقيت المصري في الامبراطورية الرومانية

(ش ١) رقم ٣-١

آلات رصد

النجوم . الاول

منظار يقال له

(مرخت) . اسرة

٢٨ . برلين .

نصيب خشي من

سقف النخل

مشتقوك في

اوسط عند

طرفه المستعرض

ومنفوش عليه ما

معناه «آلة لمعرفة

مبدأ العيد وحساب

مواعيد اشغال

العمال وجمل كل

منهم يقوم بعمله في

وقته» . والراصد

يضع الشق الصغير

نصب عينه محراً

ايام تجاه خط

مشدوداً رأسياً

بمثقال ومثبت في

نهاية قضيب خشبي

آخر محاذياً لخط

رأسه فيه . وهذه

الآلة الأخيرة هي

المرقعة لها بالرقين

٣٢ وعلى قضيبها

نص هيردوليفي

رجته «انا اعلم

حركة الشمس

والقمر والنجوم كلا

بحسب موقعه»

رقم ٤ - مثال

الراصد له وضعه

المنظار في له زميل

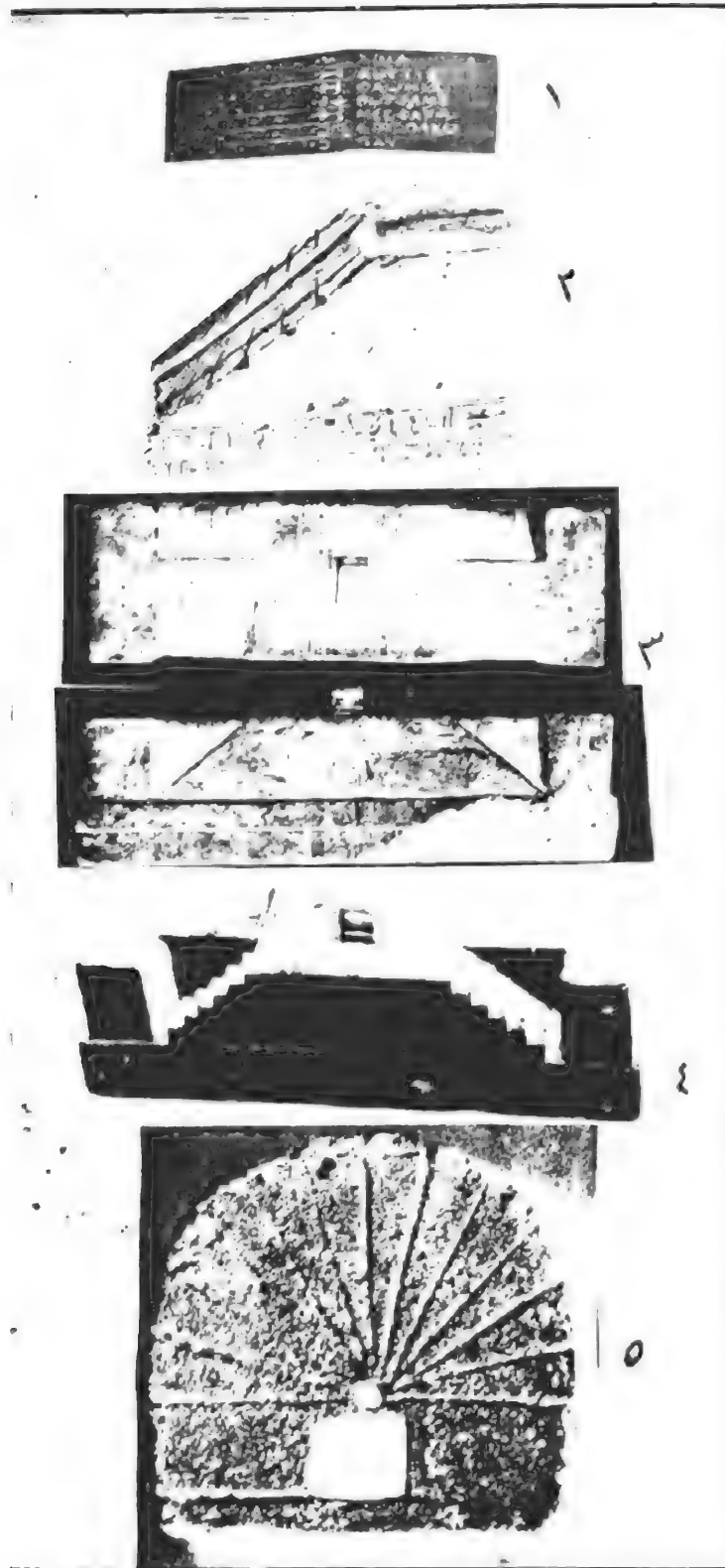
له وضعه الآلة

الخطية في حرق

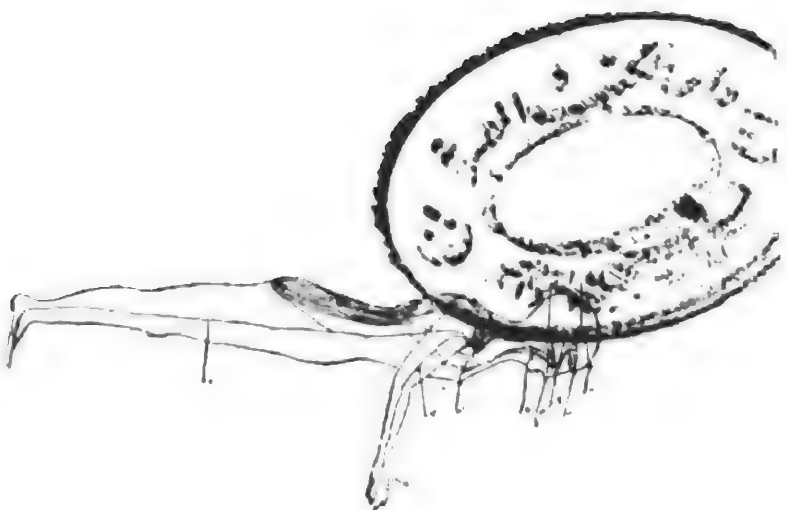
خط متجه شمالاً

وجنوباً على سطح احد انما بدو . وتعرف ساعات الليل بتجاوز النجوم لخط الحيطي العمودي او مركزها ماساً الى
القلب والعين اليمنى واليسرى والكشف واجزاء الجسم الباقية في الشخص المقابل للراصد . وتكتب هذه الملاحظات
في شكل مقسم الى مربعات صغيرة مرسومة فيها الشخص المساعد للراصد وحوله النجوم كما يتضح للراصد . خذ
مثلاً ما جاء ببعض هذه الرسومات «النجم» (سارت) يقع اعلا العين اليسرى اما النجم الذي بين العينين اليمنيتين
فيقع اعلا المرفق الايسر . اما نجوم المساء فتركزها على القلب» الاسرة ٢٠

الرسم الاخير اساعة شمسية . طولها ٢٨ سنتيمتراً . نوع اول : برلين . قضيب خشبي ينتهي في احد طرفيه
بكلمة خشبية . ومدون على القضيب خطوط واسماء الساعات . توضع في خط شرقي - غربي بحيث تكون
الكلمة الخشبية في الشرق صباحاً وفي الغرب مساءً . وتعرف الاساعة بسقوط ظل الكلمة على تقاسيم القضيب



(ش ٢) ٢ و ١ ساعة ظل . منحنيًا السطح . ولما كان ظل الصلاح المبكر والمساء المتأخر طويلين كثيرا
ابتكر القوم في اواخر العهد الفرعوني السطح المائل امام السكتة . والكتلة في الانموذجين فائدة . والتقسيم المذكورة على
السطح تساعد على معرفة الساعات في اشهر متعددة . (٢ و ٤) ساعة ظل بالمتصف المعبري مكونة من ثلاث
ساعات (١) كتلة صغيرة في الوسط يسقط ظلها على تقاسيم بحيثها (ب) كيفية سقوط الظل على الدرجات (ج) - قوط
الظل على سطح مائل او منحنى . والرسم الاخير لمزولة . براب . غير عليها بغرة (فسطيح) نهدي يوناني تثبت على
عمود او سطح وكان مثبتا في تقويمها تركيب محوي خيطا ينسحب بقل هو الذي يسقط ظله على التقاسيم المرسومة
(ص ٢١)

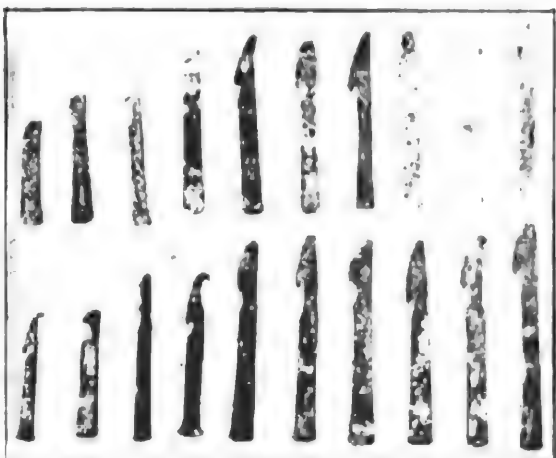


(ش ٧)

الدورة الدموية

عن الطبيب ترحوب (قطلاس

برلين) ٤٠٠٠ ق.م

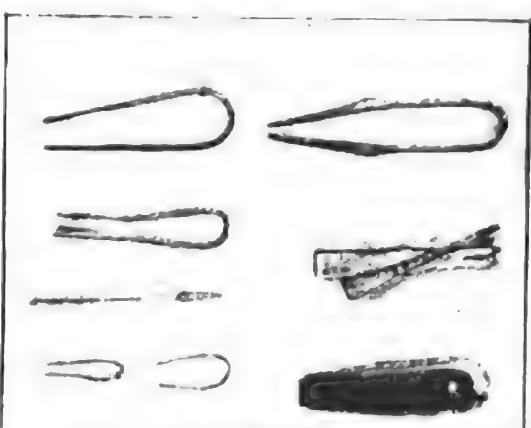


(ش ٦)

مشارط برزنية.

متحف القاهرة. حوالي

١٥٠٠ ق.م.



(ش ٥)

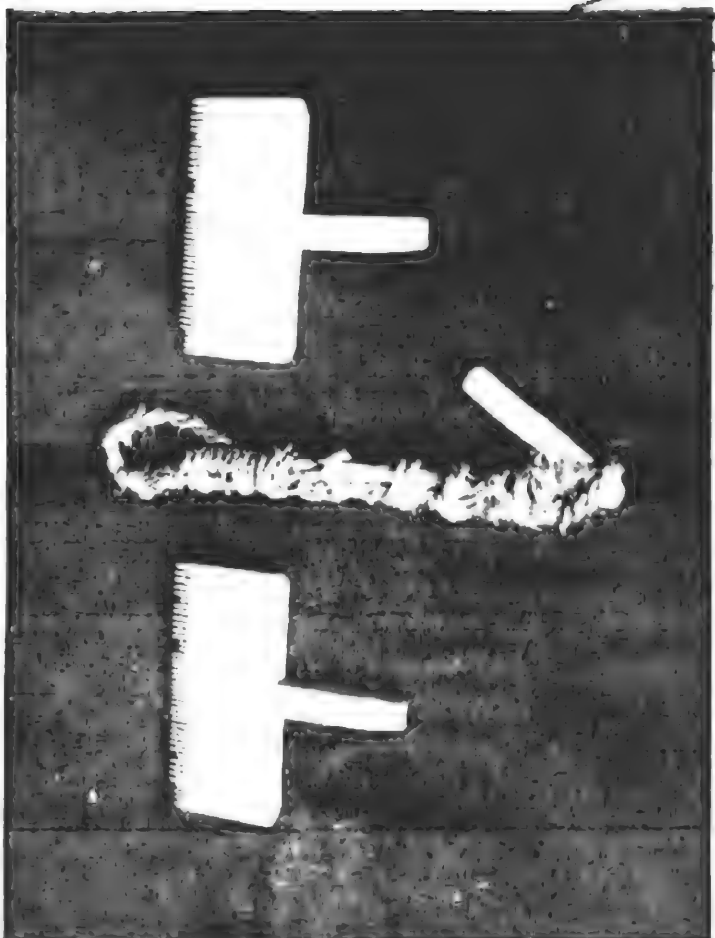
جفوت (ملاقيط). متحف القاهرة

اسرة ١٢ و ١٨. برورن ونحاس.

في الصف الاسفل جفت بحبس

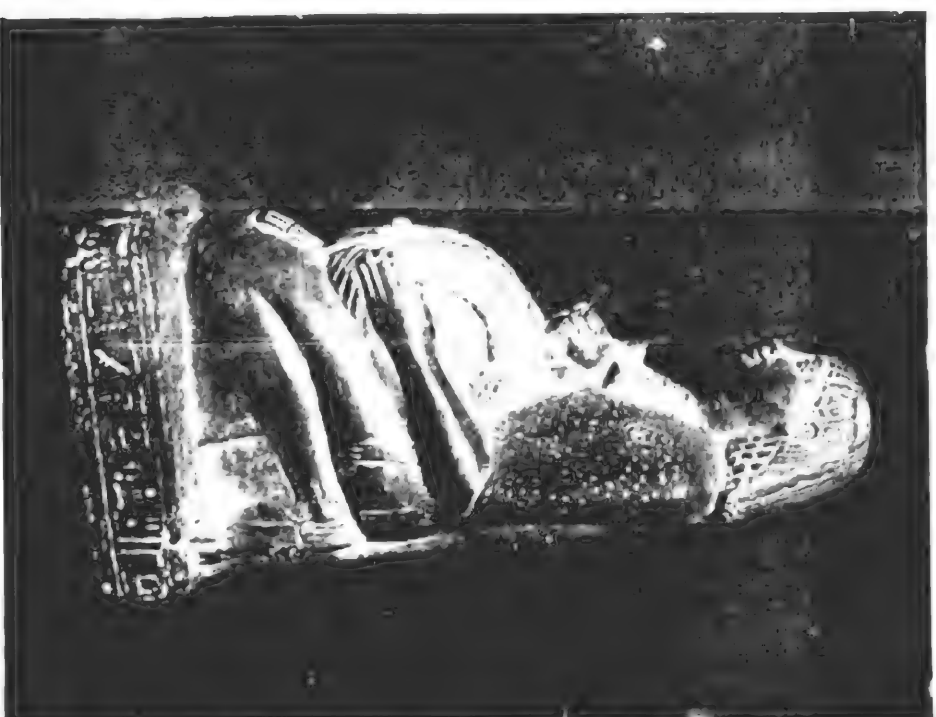


(ش ١٣) ساعة مائية. قرن ١٣ ق م. مرمورية. وجد بالكرنك. شكل زهرة ياقطة. منحف الفاهرة
 مرسوم عليها من الخارج النجوم والبروج. كان هذا الاء بلاما. الى حافته وبواسطة ثقب صغير
 في قعره كان الماء يتسرب تدريجاً منه فينخفض سطحه الى تقاسيم الساعات المنقوشة بالداخل



(ش ٩)

مسطبان الفصل خيوط - بيان الكتان . وعلب الشادوف الذي كان
يعلق به الماء - دار مخف القاهرة

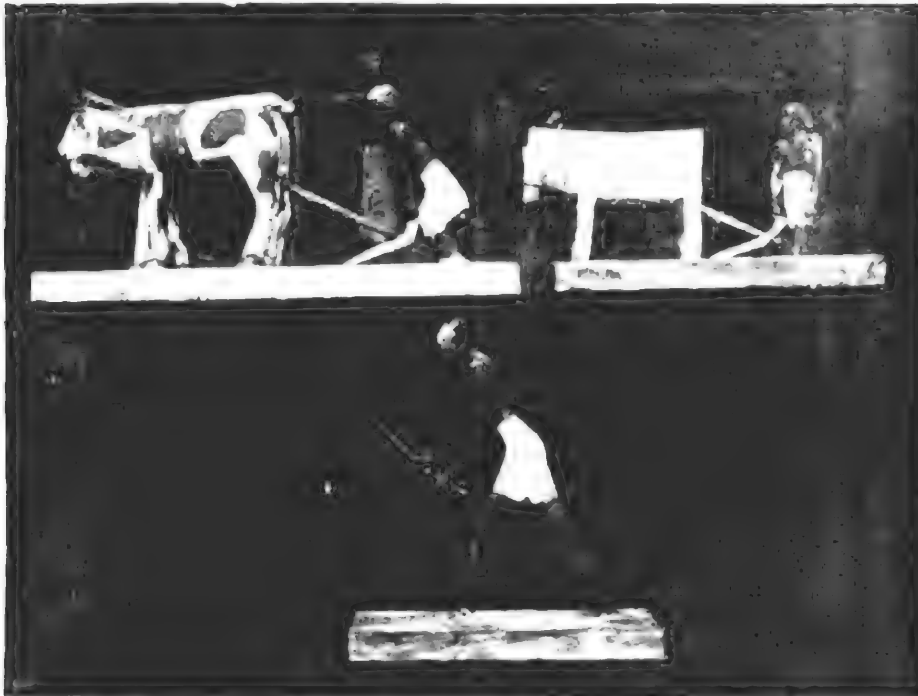


(ش ٨)

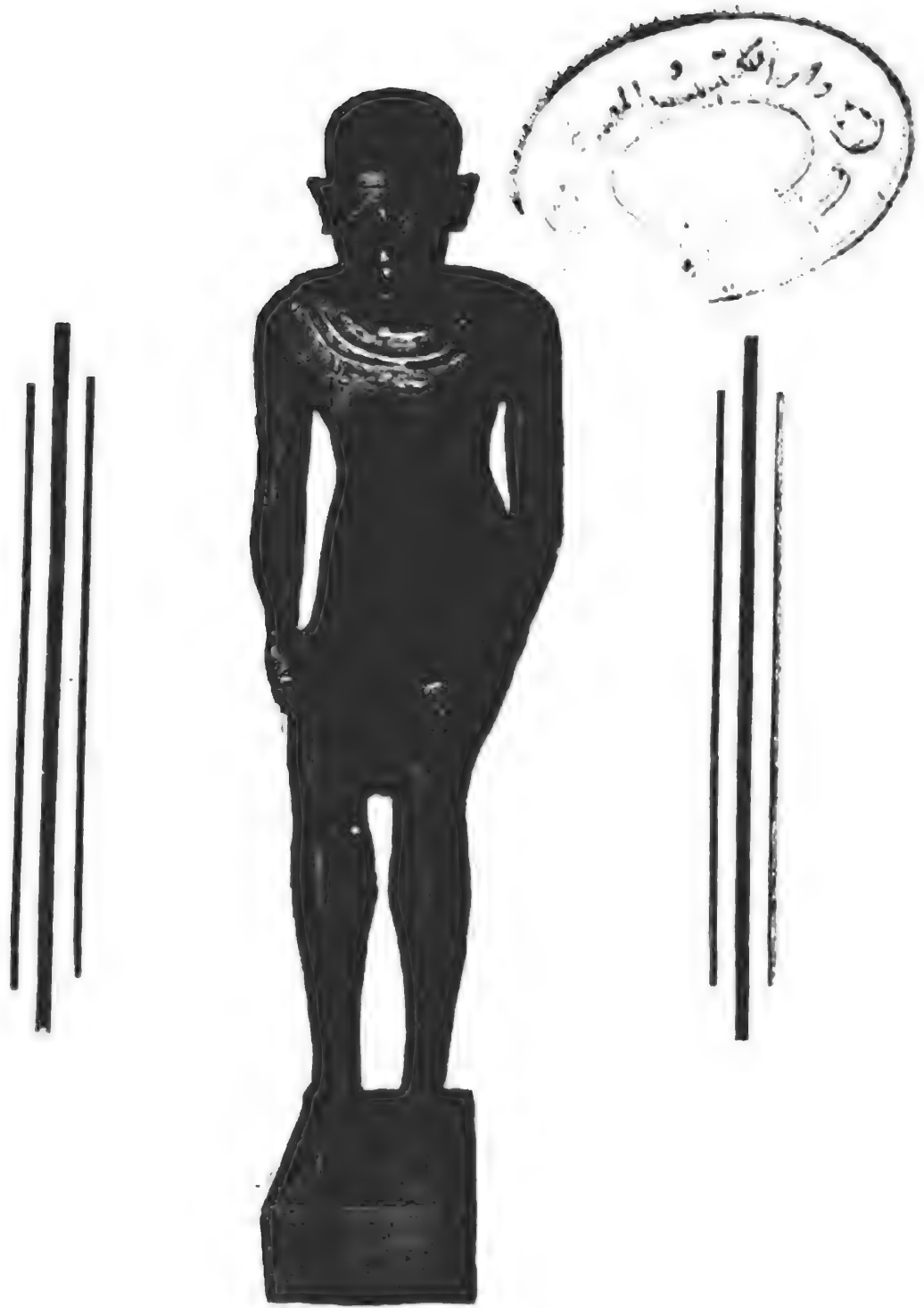
رئيس مصلحة المساحة (بنت ان حور) في عهد خورش
الرابع قابضاً على القاس الملكي المطوي برتبة عجيبة



ش ١١٠ فؤوس خشبية — دار خف القاهرة — أسلحتها مثبته بالنوع



ش ١١١ حوران خشبان . دار خف القاهرة . الأبقار حفيف بعمده فلاح
والأبقار تقيض بصعق عليه فلاح . ويقود الأبقار فلاح ثان . أسلحتها : فلاح . مسير
قديم . من مبر عز عليه المرحوم كان . من خف القاهرة قدماء حوران في
العين وقاضاً على رأس مديونة الحد لخلق الأرض الصلبة



ش ١٢) احيوت الى الطاب عند قدماء المصريين عاش في عصر الاسرة المصرية الثالثة بتنف
ومن النورير لاكم الملك زوسر باني الهرم المدرج بسقارة . وكان كذلك مهندساً معمارياً بارعاً
و . هـ . في النصوص القديمة ان هذا الاله هو ابن المعبود بتاح خالق الكون من سحت الالهة الخراحة

والمظنون ان سكان الوجه البحري الاقدمين هم الذين تذهبوا الى ان السنة الشمسية تكون من ٣٦٥ يوماً وبدأوا توقيتهم بالسنة المذكورة في الوقت الذي توافق فيه ظهور نجم الشعرى اليمانية في الافق مع الشمس . وللشعرى اليمانية شأن خاص عند المصريين عموماً لان ظهورها عندهم كان يدل على قرب فصل الفيضان النيل . وعلى ذلك اعتبرت اساساً للتقويم . ولا بدع في ذلك فانيل هو مصر ومصر هي النيل . ويقال لنجم الشعرى اليمانية بالمصرية القديمة (سبت) وبالليونانية Sothis ويعرف الآن باسم Sirius . ولما كان ظهور هذا النجم يشير الى قرب فيضان النيل وكانت مصر دائماً بلاداً زراعية عمدتها النيل كان لرصد هذا النجم في مرصد مقرر شأن عظيم في البلاد كل سنة

واهتمام المصريين بالعلم كان لفائده العملية فقط . ولم تنق انفسهم الى دراسة اصول الطبيعة والكون الا اذا اضطرتهم الضرورة لذلك . وهذا امر طبيعي فيمن لا يميل الى البحث في الحقائق الغامضة . لذلك لم تتقدم علومهم الا فيما يتعلق بعبثتهم المتجددة كل يوم وكانت معلوماتهم الفلكية بالرغم من ذلك كثيرة تمكن اجدادنا بها من توقيت زمنهم بالسنين قبل عهد المملكة القديمة بنحو ١٣٠٠ سنة . وقد رسموا السماء وعرفوا اهم نجومها وابتدعوا آلات تعرفهم اهم مراكر النجوم لكنهم لم يهتموا بالتفكير في اصل هذه النجوم لعدم فائده في نظرهم . فلم يكلفوا انفسهم مؤونة الاجتهاد . ومع ذلك فقد قسموا السماء الى عدة بروج ويكاد يكون مؤكداً ان رسوم النجوم الموضوعه بشكل مناظر منفردة حلت بها سقوف قبري رمسيس السادس (١١٥٧ -- ١١٥٢ ق.م .) ورمسيس التاسع . (١١٤٢ -- ١١٢٣ ق.م .) كان المقصود بها الاستدلال على معرفة ساعات الليل . ويجد الباحث هناك مناظر لمواقع النجوم لكل خمسة عشر يوماً على طول السنة الشمسية . وكل منظر يتلخص في رسم شخص جالس وحواله النجوم الهامة مرسومة في مواقعها المناسبة . وهذا الشخص يمثل أحد شخصين يجلسان متقابلين على طرفي خط مستقيم متجه شمالاً وجنوباً فوق سطح أحد المعابد . وأحد هذين الشخصين يقوم بعملية المراقب لحركات النجوم ومواقعها بالنسبة الى وضع الشخص المقابل له . وبالرجوع الى مواضع هذه النجوم المدونة في رسوم مشابهة للرسومة على سقوف القبرين السائفين يمكن المراقب ان يعرف ساعات الليل وينادي بها ساعة ساعة وقت حلولها . وهذه الطريقة لقياس ساعات الليل أشبه كثيراً بطريقة قياس ساعات النهار بواسطة المزاويل من حيث عدم الدقة لأن الليل والنهار في اختلاف مستمر من حيث الزمن على طول السنة فكان القوم كانوا يستعملون وحدات صغيرة متباينة لتجزئة وحدات كبيرة متغيرة أيضاً . فينجس عن ذلك ان تقسيم قدماء المصريين ليل والنهار الى ساعات متساوية كان تقسيماً نسبياً . لذلك بقيت معضلة تقسيم الزمن الى ساعات متساوية بلا حل على طول العهد الفرعوني .

وأهم مرصد العهد الفرعونى كان فى طية (الأقصر) وندرة ومنف (سقارة) وعين شمس ولما رأى القوم أن الأشهر القمرية لا يمكن اتخاذها وحدة لتقسيم السنة الشمسية اتفقوا عرفياً على أن يكون الشهر مكوناً من ثلاثين يوماً . وأن يضاف آخر كل اثني عشر شهراً خمسة أيام كي تكمل السنة — ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً . ثم قسموا السنة إلى ثلاث فصول . هي فى الحقيقة زراعية أكثر منها ميقاتية وأطلقوا عليها الأوصاف الآتية « فصل الفيضان » و « فصل البذر » ويوافق فصل الشتاء و « فصل الحصاد » ويوافق فصل الصيف ولم يستعمل المصريون وحدة أكبر من السنة الشمسية . وعلى ذلك فلم يكن فى حسابهم شيء مثل الحيل والفرن كما هى الحال فى عصرنا هذا . أما الأسبوع واستعماله وحدة لقياس الزمن فلم يكن معروفاً البتة فى العصور القديمة فى العهد الفرعونى . وابتكر المصريون الساعات الشمسية والمزاول لقياس ساعات النهار والساعات المائىة لقياس ساعات الليل

وأبسط ساعة شمسية مكونة من قضيب خشبى ينتهى فى أحد طرفيه بكثلة خشبية ومدون على القضيب خطوط وأسماء الساعات . وتستعمل هذه الآلة بوضعها فى خط شرقى وغربى بحيث تكون الكثلة الخشبية فى الشرق صباحاً وفى الغرب مساءً . وتعرف الساعة بسقوط ظل الكثلة على تقاسيم القضيب

أما المزاول فتشير إلى تقدم كبير فى الفكر والواسطة . وهى أسهل استعمالاً إذا وضعت فى المواضع الموافقة لها لأنها وقتئذ يمكن تقسيمها إلى تقاسيم متساوية خلافاً للنوع السابق . وأقدم مثال للمزاول هو الذى عثر عليه بمدينة غزة بفلسطين ويحمل اسم فرعون منفتاح ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ويحتف برلين مزولة كانت تثبت على حائط أو عمود وكان مثبت فيها تركيب يحوى خطاً ينتهى بشفر وهذا الخط هو الذى يسقط ظله على التقاسيم المرسومة ومنه يتضح أن ظل الخط يسقط على الخط الأوسط وقت القيلولة . وهذا النوع من الساعات عم أوربا الغربية بسرعة . وأقدم ساعة مائىة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر ق . م . مصنوعة من المرمر عثر عليها بالكرنك وهى الآن بدارتحف القاهرة وهى عبارة عن اناء كان يملأ ماء إلى حافته وبواسطة ثقب صغير فى قعره كان الماء يتسرب تدريجاً منه فيخفض سطحه إلى تقاسيم الساعات المنقوشة بالداخل

(٣) (الزراعة) ولع المصريون بالزراعة وفروعها المتباينة حتى جرى ذلك فى تقوسهم جريان الدم فى الجسد وحصر القوم زراعتهم فى حاجاتهم الاقتصادية فقسموا الزمن على الطريقة السابق ذكرها . ثم تغلبوا على صعوبة اختلاف ارتفاع الاراضى بأن قسموها إلى عدة حياض وذلك بأقامة الجسور وحفر الترع . ثم فرضوا الضرائب قياساً إلى المساحة المزروعة وذلك بمعرفة

الحدّ الأقصى لفيضان النيل السنويّ وتفنّنوا في طرق الري فشادوا خزائناً بالفيوم وذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٩٠ ق . م .) وكان هذا الخزان يحجز مقداراً من الماء يكفي لري الدلتا بعد هبوط النيل

أما تقسيم الاراضي فيبدأ به بعد زوال الفيضان وتنقية الحقول من الاعشاب والاحجار المتخلفة من الفيضان النيلي . وكثيراً ما يرسم الفلاح منذ اقدم الاسر قائماً بهذا العمل الجليل الشاق كمقدمة لزراعة الاراضي . والمعروف ان هذه العناية كانت محصورة بادىء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت أيضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الانتفاع بكل بقعة تحقيقاً لهايتين العائتين الساميتين وهذا هو سر استئصال الغابات في القطر المصري . بعد ذلك يأتي دور شق الارض بالقّاس وهذا يشاهد في رسوم متعددة تمثل الفلاحين قابضين على القوّوس الواحد تلو الآخر . ومنذ مبدأ التاريخ المصري القديم (٣٤٠٠ ق . م .) حتى العهد الصاوي (٦٦٣ - ٥٢٥ ق . م) كانت القّاس تتركب من قطعتين خشبيتين غير متساوئتي الطول وكانت احدى هاتين القطعتين تستعمل يداً وهي مستقيمة وأقصر من القطعة الاخرى المستعملة أداة للحفر ويختلف طول القطعتين طبعاً باختلاف طول صاحبهما ويلاحظ في الحدائهُ مقوّمٌ قليلاً وانه نارة مدببٌ واخرى مفرطحٌ وطوراً مفرطحٌ ومشعبٌ في آنٍ واحد . وذلك حسب معدن الارض ودرجة رطوبتها . والقّاس المدببة كانت تستعمل في فلق الاراضي الصلبة اما المفرطحة فكانت تستعمل في حفر الاراضي الرطبة وتنظيف الترع

ومن ابتكارات المصريين ايضاً المحراث وهو اصلاً قّاسٌ كبيرٌ وقد نسب المصريون الى معبودهم ازوريس طريقة استعمال المحراث في الفلاحة . ولا يبعد ان المحراث كان يجرّ في بادىء الامر بالعمال دون الثيران لبساطته وخفته وقشّره . اما كيفية اشتقاق المحراث من القّاس فتتلخص فيما يلي : زيد في طول يدا القّاس حتى بلغت الثلاثة امتار تقريباً وصار (نافاً) . واستفيض من الوثائق تدريجاً بوصلات خشبية في نفس الموضع فتتج عن ذلك ان السلاح صار أقصر كثيراً من الناف وينتهي الناف أماماً بقضيب خشبيّ مستعرض يثبت في قرون الثيران بوثق

ومن اختراع المصريين ايضاً المنجل وذلك منذ العهد الحجري وكذا المدرأة والبلطة والمدينة وغير ذلك . اما الشادوف فكثيراً ما يشاهد مرسوماً بالمقابر بقصد توزيع المياه عنى الحقول المرتفعة التي لاتصلها مياه النيل بسهولة . ويظن البعض ان الشادوف وجد مرسوماً على جدار بمقبرة بمدينة الكاب . وقدر بعضهم مقدار المياه الممكن رفعها بهذه الآلة في الساعة الواحدة بما يتراوح بين ١٦٥٠ و ٣٤٠٠ لتراً

هذا باختصار تاريخ الادوات الزراعية . وهي كما ترون لم تتغير كثيراً عما كانت عليه منذ آلاف السنين . وليس هذا مقام الافاضة في شرحها ولا طريقة استعمالها ولا كيفية انتشارها الى البلدان الاخرى . إنما يكفي ان نذكر هنا ان الاراضي التي كانت تزرع قمحاً مثلاً كان الفلاح يتبع ساعتئذ سلاح المحراث واطعاً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخوين . من ان « الأرض حالما تخلصت من مياه الفيضان اخذ الاخ الأكبر قيادة المحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل مصحوباً بالحبوب لبذرهما » وتشير هذه القصة ايضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها ان الكمية الاولى من الحبوب نفذت فأرسل الاخ الأكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة اخيه فتاداهما قائلاً « هيا اسرعي واعطيني الحبوب لأن اخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً » فاعتذرت اليه السيدة وقالت « يتعذر علي القيام الآن لأنني اسرح شعري وأخشى ان يتلصق قبل الفراغ منه . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة » فدخل الصبي الاهراء وملاً زلعة كبيرة من الحبوب لأنه كان في نيته ذلك . وكانت الحبوب قمحاً وشعيراً . وحملها على كتفيه . فلما هم بالخروج بادرت زوجته اخيه سائلة — ما هي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ — فأجابها — ثلاثة مكايل من الشعير ومكيالان من القمح فيكون الكل خمسة مكايل . هذا هو ما أحمله على كتفي » ومنه يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

(٣) — (الطب المصري القديم) كان علم الطب منتشرأ في القطر بانتظام وعناية وكانت وصفاته تحوي الآلاف من النباتات والعقاقير . وقد ثبتت الآن فائدة بعض هذه العقاقير وعم استعمالها وأضحى بعضها الآن بين العقاقير التي نصفها لمرضانا في تذاكرنا الطبية . والباحث الزيه في الادراج البردية يجد فيها بيانات هي في الحقيقة اساس الطب الحديث . فالقلب فيها معتبر مركز الاوعية . وهذه موصوفة بأنها منتشرة في سائر اجزاء الجسم . وان نبضها دليل عليها . لأن النبض هو كلام القلب الداخلي . هذا التعريف كافٍ لأن يظهر لكم انه كان لدى اسلافنا فكرة عن دورة دموية وان كانت غير تامة وعن ماهية النبض وعلاقته بضربات القلب لأن وصفه بأنه « كلام القلب الداخلي » دليل قاطع على اتصاله بحركات العضلة القلبية

وبأني التاريخ المصري ألا يكون مثال العجب . وثأني المدنية المصرية ألا تكون انموذج العبر . لذلك نجد انهم في الوقت الذي نراهم يتكلمون عن وجود مياه ومواد اخرى بالاعوية يفسرون بعض الامراض بأسباب اقل ما يقال عنها لأنها مطابقة لأحدث آراء عندنا . فانهم يقولون

ان كثيراً من العلل ناجم من مرض الاوعية وعدم قيامها بوظائفها الطبيعية. وان العلاج حينذاك يجب ان يوجه الى تبريد الاوعية او تسكينها او تجديدها او ابطاء دورتها بالعقاقير الخاصة. وهذا من العجب العجيب

واكتشف منذ عشر سنوات تقريباً درج بردي يعرف باسم صاحبه (إدوين سميث) رفع منزلة الطب المصري القديم إلى ذروة المجد والفخار حيث اتضح بعد ترجمة نصوصه انه مثال الكتاب الطبي الحديث من حيث ترتيب مواده التي تبدأ بالرأس أولاً ثم أعضاء الجسم التي تليه حتى القدمين واحتوائه أيضاً على كثير من أصول الجراحة وبالأخص جراحة العظام والاعضاء السطحية. اما شرح حالاته فعلى غاية من الدقة والنظام. فكاتبه يبدأ بذكر اسم الداء. ثم طريقة فحصه ثم تشخيصه ثم علاجه وانذاره. وهو الأسلوب الذي يدرس الآن في كلياتنا الحديثة. وكثيراً ما يذكر الكاتب اسفل كل حالة ملاحظات تفسيرية تظهر مهارة عجيبة في معرفة المرض وطريقة فحصه والسبب الذي أحدثه. واغرب من هذا وذاك ان الاساتذة الذين راعهم هذا المستوى الطبي العالي في هذا الدرج استرعت فظهم عبارة واردة في ظهروه خاصة بطريقة إرجاع الشيخ الى صباه. فقال بعضهم هذا دليل قاطع على مزج الطب بالشعوذة. لكن هل محاولة الرجوع الى الشباب ضرب من الشعوذة؟ ان ابحات الاستاذ فرنوف كقيلة بالاجابة على هذه التخريصات. وقد خلف لنا المصريون الاقدمون غير هذا القرطاس قراطيس اخرى طبية هامة، مثل قرطاس (ايبرس) و (برلين) و (لندن) وغيرها كما خلفوا ايضاً النقوش الطبية المتعددة فأثبتوا لنا بذلك طول باعهم في هذا العلم. خذ مثلاً الرسوم الواضحة بمقبرة الطبيب (سسا) بسقارة التي توضح عمية الختان والرسوم الاخرى لتجبير العظام. ووضح لنا القوم وجود مرض السل بالعمود الفقري واين العظام وامراض العظام الاخرى وذلك في صور الاشخاص المنقوشة على جدران المعابد. اما معلوماتهم عن التخطيط فحدث عنها ولا حرج. فهم اول من اوجد هذه الطريقة واتقنها واستعمل لذلك العقاقير المتباينة والاجراءات الجراحية الفنية المختلفة وقد أخذ الغير عنهم هذه الصناعة حتى انتقلت الى آسيا واميركا. والهم يرجع الفضل في استعمال العقاقير الكثيرة في العلاج حتى عهدنا هذا. من ذلك زيت الخروع وقشر الرمان والحنظل وكبريتات النحاس والافيون وغير ذلك

(٤) — (الهندسة والحساب) اهم ما عثر عليه من هذين العلمين هو قرطاس رند (Rhind)

المحفوظ بمتحف لندن ويرجع تاريخه الى حوالي ١٦٠٠ ق. م. وجميع المسائل التي فيه عملية. وتتطلب معرفة كبيرة في علمي الحساب والهندسة

مثال ١ — (عملية ٣٩) مطلوب قسمة مائة رغيف على عشرة رجال بحيث يكون نصيب

سنة رجال خمسين رغيفاً ونصيب الاربعة الباقيين الخمسين رغيفاً الباقية
تحل هذه المسألة بإيجاد العدد الذي بضرب في ٦ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ وهو في هذه
الحالة $8\frac{1}{3}$ ثم إيجاد العدد الذي بضرب في ٤ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ ويكون $12\frac{1}{4}$ رغيفاً
مثال — ٢ — مطلوب معرفة مساحة مثلث ارتفاعه ١٠ (خت) وقاعدته ٤ (خت)

Eine Gleichung Die Geometrie

Nach weniger aber als in der Arithmetik leisteten die Ägypter merkwürdigerweise in der Geometrie, obwohl sie die Zerstörung so vieler Ackergrenzen durch die Ueberschwemmung alljährlich von neuem vor die gleiche Aufgaben stellte. Allen ihren Flächenberechnungen liegt die des Rechtecks zugrunde, dessen Inhalt sie richtig auf das Produkt der beiden Seiten bestimmt haben. Aber sie übersehen dabei seltsamerweise ganz, daß

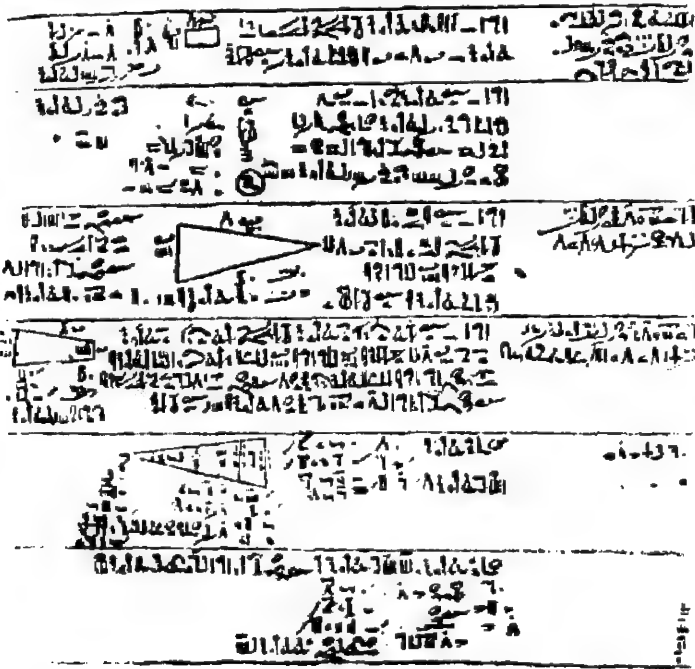


Abb. 175. Geometrische Aufgaben aus einem mathematischen Lehrbuch.

nicht jedes Viereck, in dem die gegenüberliegenden Seiten gleiche Länge haben, ebenso behandelt werden darf. Und da sie aus jedes Dreieck einem Viereck gleichsetzen, in dem eine Seite Mantel ist und die andere die halbe Größe hat, so übertragen sie diesen Irrtum auch auf die Berechnung

(ش ٤)

صورة لبعض من قرطاس (رند) الهندسي والحسابي
يحتوي بعض مسائل هندسية لمستطيل ومثلث
وشبه منحرف

قسم ٤ على ٢ فتكون النتيجة ٢ — وهو
طول ضلع المستطيل الذي مساحته
تساوي مساحة المثلث . اضرب ١٠
(خت) (وهو ارتفاع المثلث) $\times 2$
فيساوي ٢٠ (خت) مربع . وهو
المساحة المطلوبة

ولما كان المقام لا يحتمل التفصيل
اكتفيت بذكر أبسط مثال حسابي وآخر
هندسي مشفوعين بطريقة حلها . لكن
زيادة في الايضاح سأورد بياناً ببعض
الاسئلة التي كانت توضع للطلبة للإجابة
عليها للاستئناس بها فقط

(١) ما هو الكسر الذي يضاف
الى $\frac{2}{3} + \frac{1}{10}$ كي يصير المجموع ١ صحيح
(عملية ٢١)

(٢) قسم ستة ارغفة على عشرة
رجال (عملية ٣) : قسم تسعة ارغفة على
عشرة رجال (عملية ٦)

(٣) ما هو العدد الذي اذا اضيف
اليه ربه يكون المجموع ١٥ — الجواب
١٢ (عملية ٢٦)

(٤) ما هو العدد الذي اذا اضيف اليه نصفه وربه يكون المجموع عشرة — الجواب $5\frac{5}{7}$ (عملية ٣٤)

(٥) ما حجم المكعب الذي يبلغ طول كل ضلع فيه ١٠ — الجواب $10 \times 10 \times 10 = 1000$
(عملية ٤٤)

(٦) هرم طول ضلعه ١٤٠ ذراعاً ونسبة مبنيه $٥\frac{1}{4}$ قبضة فاعر ارتفاعه ؟ الجواب $\frac{1}{4}$ ٩٣ (عملية ٥٧)

(٧) ما مساحة قطعة ارض دائرية قطرها ٩ (خت) ؟ (عملية ٥٠)

(٨) هرم طول ضلعه ٣٦ ذراعاً . وارتفاعه ٢٥٠ ذراعاً . والمطلوب معرفة نسبة ميله

(عملية ٥٦)

(٥) — (التعاليم الدينية) ولا بد قبل الفراغ من هذه الكلمة ان نذكر شيئاً عن تعاليم القوم الدينية تاركين لفرصة اخرى الكلام على الشعر والقصص والعلوم الحربية والكيمائية وغيرها اما التعاليم الدينية فهي اقدم ما عرف من علوم قدماء المصريين . وقد وجدت مدونة بعدة جهات من اهرام ونوايت وصفائح قبور وادراج بردية وغير ذلك

والكي اظهر ما تحويه تلك التعاليم من معان سامية وآداب راقية أورد هنا بعض عبارات جاءت في كتاب الموتى يقولها المتوفى امام الآلهة في الآخرة : هذه ترجمتها : —

لم أستعمل القسوة مع انسان . لم أسرق . لم أقتل رجلاً او امرأة . لم أخسر الميزان . لم أرتكب غشاً . لم آخذ لنفسى حاجات الآلهة . لم اكذب . ولم اهرب الغذاء . ولم اتلفظ بالفاظ جارحة . ولم اجهم على انسان . ولم اقتل الوحوش الخاصة بالمعبودات . ولم ارتكب رياء . ولم أترك الاراضي الزراعية بوراً . ولم اوقظ فتنة . ولم اغترب احداً . ولم أترك نفسي ضحية الغضب . ولم اتعرض لزوجتي بمكره . ولم ارتكب ذنباً ضد العفة . ولم اسبب رعباً . ولم اتعد حدود الازمنة والامكنة المقدسة . ولم أكن غليظ الخلق . ولم أتصنع الصمم وقت سماع الحق والعدل . ولم أشعل نار ثورة . ولم اسبب البكاء لانسان . ولم أرتكب الموبقات . ولم أكن أحمق . ولم أسيء الى انسان . ولم أتبع سبيل الزهية . ولم أترع في اصدار حكم . ولم أتقم لنفسى من معبود . ولم أزد في كلامي عن الحقيقة . ولم أخن احداً . ولم ألعن ملكاً . ولم ألوث ماء . ولم أتكبر . ولم أشتم معبوداً . ولم أكن سيئ الخلق . ولم أسع لترقية . ولم أزد في ثروتي إلا بالجلال . ولم اقصر في احترام معبود مدينتي ومنه يتضح ان هذه العبارات التي اطلق عليها القوم اسم « الاعتراف السلي » لم تك في الحقيقة سوى تعريف مطول لما نسميه « مكارم الاخلاق »

الى هنا انتهى ما اردت ان أشرحه من تراث اجدادنا العلمي وهو كما ترى نخر لا يجاوزه نخر وشرف لا يعلوه شرف هو تراث لمدينة عالية وآداب سامية وعلوم راقية . هو ظل سرمدى لعهدي ذهبي لا يزال نجمه يتلألأ في سماء العز والجلال . فقد خلف لنا اجدادنا من الآثار انفسها ومن المعارف اعرفها . كم تركوا من تعاليم وآداب وقنون وآيات يدنات . كم شادوا في شأن الوطن واعلوه ورفضوا منزلته وعظموه . قال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) « صدق الله العظيم

رياضيات العصر بين القدماء

وأثرها في تقدم العلم والعمران

لداركتور لويس هاربنسكى

استاذ الرياضيات في جامعة ميشيغن
نقلها الى العربية قدرى حافظ طوقان

لقد سبق لي ان القيت عدة محاضرات في اميركا في تاريخ الرياضيات عند قدماء المصريين^(١) وانه لما يزيد في سروري ان تاح لي الفرصة للبحث في هذا الموضوع امام جمهور مثقف كهذا الجمهور الكريم في القاهرة — مركز الثقافة المصرية الحديثة . وأود في هذه المحاضرة ان أوجه النظر الى شيئين جديرين بالاعتناء : اولهما ان جهود الانسان الفكرية وغير الفكرية تتجه كلها الى غاية واحدة هي المساهمة في خدمة المدنية ورفع مستواها . وثانيهما ان الاشتغال بالعلوم الرياضية والفضل في تقدمها كانا (ولا يزالان) مشاعاً لم ينحصرا في أمة من الأمم أو شعب من الشعوب .
يميل علماء التاريخ الى نفي وجود أية علاقة او اتصال بين جهود المصريين والبابليين في الرياضيات من جهة وبين نتاج اليونان العجيب في الهندسة وبحوث ارخميدس في الميكانيكا والايديستاتيكا وبحوث ابولونيوس في الخروطات من جهة أخرى ، وها نحن أولاء نرى آثراً من هذا في بحثة (ايسيس ١٨٨٥) التي تبحث في تاريخ العلم . فلقد طلعت علينا بمقال يفهم منه ان معرفة المصريين للهندسة بسيطة جداً لم ترتفع عن الهندسة التي يُنتجها الاطفال أو المتوحشون وان هذه المعرفة لم يتصل بها علماء اليونان ولم تنتقل اليهم . والذي اراه أنه لا يضير هؤلاء ولا ينقص من قدر مجهوداتهم الفكرية إذا أخذوا عن غيرهم أو اعتمدوا على ما تركه المصريون والبابليون من المآثر في ميدان العلوم ، واننا نرى لهم اعترافات صريحة واضحة بالاخذ والاعتماد في كتاباتهم ومؤلفاتهم ، أضف الى ذلك أن هذا الاخذ وذاك الاعتماد هما عاملان طبيعيان ولازمان لسير العمران وتقدم المدنية ورفع مستوى التركيب البشري

لقد دلت التحريات الحديثة والمكتشفات الجديدة على ان أقدم الآثار الرياضية التي نعرفها قد وصلت الينا من بابل ومصر وانها انتقلت الى اليونان فأخذوها وزادوا عليها ، ومن هنا نشأ الاتصال بين جهود علماء بابل ومصر واليونان في الرياضيات . وأرجو ان لا يتبادر الى الذهن ان هذه الآثار وما ألقته من ضوء جديد على معلوماتنا في هذه البحوث هي التي دفعتني الى القول بوجود اتصال او ارتباط بين رياضيات الأمم ، وبأن اليونان اعتمدوا في بحوثهم على مآثر من سبقهم . فلقد أثبت منذ عشرين سنة (أي في سنة ١٩١٥) ما دلت عليه هذه التحريات الحديثة التي سبق ذكرها فأشرت في ترجمتي لكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة عن النسخة اللاتينية لروبرت شيستر الى ان المصريين عرفوا النظرية المعروفة باسم نظرية فيثاغورس والى انهم استعملوا هذه النظرية

(١) ألقى الاستاذ لويس كاربنسكي — استاذ الرياضيات في جامعة ميشيغن — المحاضرة التالية في نادي العلم في الكلية الاميركية بالقاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٣ . ونقله الكاتب الرياضي المجيد تدري حافظ طوقان

في انشاء المثلثات القائمة الزاوية . وقد قال بهذا ايضاً كاتون (العالم الشهير في تاريخ الرياضيات)
لقد أشرت الى كل هذا بينما الاستاذ اريك بيت *Dr. Eric Peet* يقول في كتابه عن مخطوطة
(احمس) المنسوخة على ورق البردي ان ليس في هذه (المخطوطة) ما يدل على ان المصريين
عرفوا نظرية فيثاغورس . وعلى كل حال فهناك شيان يدلان على صحة ما ذهبنا اليه من معرفتهم
لهذه النظرية : الاول وجود مثلثات قائمة الزاوية بالمعنى الهندسي الدقيق في اشكال الاهرامات ،
الثاني وجود المسألة الآتية في مخطوطة قديمة (منسوخة على ورق البردي من كاهون *Kahun*)
اقسم مربعا مساحته ١٠٠ إلى مربعاً (وحدة قياس كان يستعملها المصريون القدماء) بحيث
يكون ضلع احدهما يساوي $\frac{2}{3}$ ضلع الآخر

$$\text{وقد كان الحل المتبع على هذه الكيفية : } 26 + 28 = 10 \\ \text{او العلاقة } 23 + 24 = 25$$

اي العلاقة التي تبين خواص المثلث القائم الزاوية الذي اضلاعه ٣ ، ٤ ، ٥ — وعلى هذا الاساس
لا أعتقد ان أحداً من المؤرخين يستطيع ان ينكر او ينفي معرفة المصريين لنظرية فيثاغورس .
وليس المهم هنا معرفتهم لها ، بل سبقهم اليونان في معرفتها بزمن طويل . ولدينا الآن من الآثار
ما يدل على ان البابليين عرفوا هذه النظرية في زمن يرجع عهده الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد .
وهم لم يعرفوها فقط بل استعملوها في حساب اطوال الاوتار في الدائرة . وقد ثبت ايضاً انهم
تطرقوا الى المبادئ الأولية في علم المثلثات . ومن الغريب ان نجد في مقال مجلة ايسيس الذي
نوهنا به ان المصريين لم يعرفوا شيئاً عن المثلث المختلف الاضلاع . وهذا خلاف الواقع ، فقد
دلت الحقائق التي لا سبيل الى دحضها على انهم عرفوا المثلثات واشباه المنحرف وانه كان لديهم
معرفة بالاهرامات الناقصة وبالقانون حجوماً وب نصف الكرة وكيفية ايجاد مساحة سطحها ^(١)
ومسائل أخرى دقيقة تتعلق بالمسططات وخواصها . وها هي ذي اهراماتهم وهياكلهم ومسلاتهم
وآثار علماءهم الرياضية — دلائل على صحة ما قلنا وذكرناه

انه لمن الاجحاف حقاً ان يُنظر الى جهود المصريين في الرياضيات كجهود أمة ابتدائية
غير متحضرة ليس فيها ما يدل على تقدم فكري او ارتقاء عقلي على حين تقوم امامنا شواهد
كثيرة تنطق بفضلهم ونبوغهم . فهذه اهراماتهم ومبانيهم وما فيها من هندسة بالغة ، وهذه مهارتهم

(١) استعمل المصريون القاعدة التالية لايجاد مساحة الدائرة وقد وردت في مخطوطة (احمس) : لايجاد
مساحة الدائرة اضرب سطح المركب المنشأ على نصف القطر في العدد $2\frac{1}{6}$ وهذه القاعدة تقرب من القاعدة
التي نستعملها اليوم والفرق هو في قيمة ط ، فقد حسب (احمس) ط = ٣١٦٠٥ بينما هي ٣١٤١٦ (المترجم)

في صناعة الحلى وفي ابتكار الألعاب العقلية وبراعتهم في صناعة النحت وأثر ذلك في صناعة اليونان ، وهذه أنظمتهم في النقد وفي الاوزان والقياسات — كل هذه تؤيد القول بأن المصريين قد ضربوا بسهم وافر في الحضارة وقطعوا شوطاً بعيداً في التقدم والرقى ، وهناك آثار أخرى غير هذه في مصر وبابل تدل على ارتفاع الفكر وسعة العلم عند سكان هذه البلاد . وان في هذا كله ما يدحض الرأي القائل بأن ليس في مآثرهم ما يدل على تقدم او ارتفاع فضلاً عن ان الاعتبارات النفسية التي تسري على الامم البدائية لا تسري على مصر القديمة من حيث التفكير وتقدم اسباب العمران . لقد وصل المصريون حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد الى درجة عالية في الرياضيات من الناحية التحليلية وكان الفضل في وصولهم الى هذه الدرجة يرجع الى كهنهم الذين كانوا يجدون في دراسة الرياضيات والبحث في موضوعاتها لذة وممتعة . ويرغم البعض ان اهتمام المصريين بالرياضيات لم يقتصر الا على الناحية العملية وانهم لم يبالغوا مبلغاً عظيماً في النظري منها . وقد أشار هيرودوتس الى ذلك فقال : ان الحاجة هي التي دعت المصريين الى استنباط طرق لمعرفة مساحات الأرض ^(١) التي كان يفرها النيل بميضانه السنوي وان ذلك قادهم الى الاعتناء بالنواحي العملية التي تتعلق بالهندسة . ولكن من دراسة بعض الآثار المصرية التي وصلت اليها عن طريق المخطوطات الرياضية تبين خساً هذا الزعم ، وهي توضح بجلالة ان الاهتمام لم يقتصر على الناحية العملية فحسب ، بل تعداه الى النظري منها . فلقد دلت هذه الآثار على ان المصريين استعملوا معادلات الدرجة الاولى ذات المجهول الواحد ^(٢) وقد استعملوا في حلها طرقاً ذات خطوات متسلسلة صحيحة . ونجد في هذه الآثار مسائل هندسية تؤدي الى معادلات آتية من الدرجة الثانية كما نجد فيها انواعاً من الأعمال الرياضية تدل على انهم كانوا يعرفون المتواليات العددية والهندسية وكيفية ايجاد مجموع عدة حدود من كل منها وايجاد الوسط العددي بين كميتين معلومتين وفيها ايضا قوانين لايجاد مساحات وحجوم بعض الاجسام الهندسية ، وعلى العموم فان هذه البحوث تدل على تقدم مثير للدهش والاعجاب بالرياضيات عند المصريين وعلى ارتفاع تفكيرهم الرياضي ومقدرتهم على التحليل . ومما لا شك فيه ان المصريين قطعوا شوطاً بعيداً في الرياضيات واستطاعوا بعد ان ارتقت وتقدمت ان يستعملوها في النواحي العملية فبلغوا في فن البناء والعمارة

(١) اشهر المصريون في علم المساحة العملي فتمكنوا من مد الخطوط المستقيمة الى مسافات شاسعة وتمكنوا ايضاً من تعيين السطوح المستوية تعييناً فيه كل الدقة ويدل على مهارة بلغت الذروة ، وذلك لمعرفة الارتفاع والانحدار . ويقول سميث في كتابه تاريخ الرياضيات في ص ٤٣ من الجزء الاول ان مقدار الخطأ في تعيين جوانب الهرم الكبير نحو ٦٣ و ٠ من البوصة وان الخطأ في تعيين الزوايا لا يزيد على ١٢ ثانية و ٢٧ دقيقة من الزاوية القائمة (٢) كان المصريون يرضون الى المجهول في المعادلة برمز يدل على كده كوم Heap المترجم

درجة لم يبلغها غيرهم . ونظرة إلى أهراماتهم ومبانيهم وقبورهم ومسلاتهم تؤيد رأينا وتشهد على صدق ما قلناه . وقد استعملوا الحساب في حلول مسائل حيوية تتعلق بمعيشتهم الداخلية كإطعام الطيور وعمل الخبث وتكاليف صنع الحلبي وأمور أخرى تهتمهم اقتصادياً ، وقد نحاشى علماء اليونان هذه الناحية -- ناحية استعمال الرياضيات في الشؤون العملية إلى هذه الدرجة -- لأنهم كانوا يرون في الرياضيات قداسة تحول دون استعمالها في أمور دنيوية مادية

واشتهر المصريون بطرقهم المشوقة في تقريب الرياضيات من أذهان الأطفال وذلك بربطها بأشياء محسوسة وبألعاب مختلفة من شأنها أن تحبب الأطفال إليها في (الرياضيات) وتزيد في شوقهم ورغبتهم وقد أثنى أفلاطون على هذه الطرق وامتدح تلك الأساليب وأثرها في تسهيل تعليم العلوم العقلية للأطفال ، وأنا في هذا الوقت أوصي بها وباستعمالها وأهيب بالمعلمين أن يحذو حذو المصريين في هذه الناحية فيستعملوا هذه الطرق ويطبفوها في تدريس الحساب الابتدائي حتى يجعلوا منه درساً شيقاً فيه لذة اسمحوا لي أن أقول شيئاً بخصوص الرياضيات وأثرها في تقدم العلم والحضارة . أن العلوم الرياضية هي نتاج أناس مفكرين وهي ثمرة من ثمار الأعمال الذهنية لا الأعمال الجسدية . وقد نشأت ونمت حينما حاول الإنسان أن يفهم العدد والشكل ، والزمان والمكان ، ويقف على العلاقات الموجودة بين هذه كلها . ولم يتقدم علم الرياضة العملي بل ولم يستطع الإنسان أن يستفيد منه إلا على أساس العلم النظري . لقد عرف الإغريق (واعني اليونان) شيئاً عن قلع الخروطات على أنواعها من شكل اهليلجي إلى قطع مكافئ إلى قطع زائد ودرسوا بعض خواصها وبحنوها في خصائصها . ولم يكن الدافع لهذا الدرس والبحث سوى رغبتهم في معرفة منحنيات أخرى (غير الدائرة) التي تتكون من تقاطع الخروط الدائري بمستوى . وكانت هذه القطوع أو المنحنيات موضع اهتمام علماء اليونان أمثال مينيكليس Menelaus وأريستوس Aristæus وأقليدس وأرخميدس وأبولونيوس . ولهذا الأخير فضل كبير في تقدمها وإتمام بحوثها . ثم أتى كبلر Kepler وأخذ فكرة الشكل الاهليلجي وخواصه واثبت أن مدار الأرض اهليلجي الشكل وأن الشمس في أحد بؤرتي هذا الشكل . لقد أخذ كبلر فكرة الشكل الاهليلجي وتعرف عليه بواسطة علماء العرب الرياضيين الذين أخذوا ما تركه من سبقهم من الأمم في العلوم والفنون وبعثوا ما أثر اليونان . لقد أخذوا ما خلفته الهند من جبر وحساب ومثلثات وأضافوه إلى ما خلفه علماء اليونان من هندسة وميكانيكا وفلك . قالى العرب يرجع الفضل في إحياء ما أثر اليونان وتعريف أوربا بها . وعلى كل حال فإن المقصد من دراسة الرياضيات سواء أكان المشتغلون بها علماء مصر أو بابل أو اليونان أو الهند أو العرب أو أوربا -- أقول أن المقصد نبيل وفيه سمو . إذ لم تكن فكرة المنافع والاستغلال المادي هي العامل الرئيسي الأول من دراساتها والتعمق فيها

لقد دلت البحوث الأخيرة التي قام بها صديقي الدكتور أوتونوجيور Dr. Otto Neugebauer
 في تاريخ الرياضيات على أن هناك اكتشافات وموضوعات جديدة لم تكن منسوبة
 إلى البابليين ولا يعرف أنها من نتائجهم ثم ثبت أنها لهم وإنها من مآثرهم . أن في هذه المكتشفات
 وتلك الموضوعات ما يجعلنا نشير بضرورة إعادة دراسة تاريخ تقدم الرياضيات عند اليونان . لقد عرف
 البابليون شيئاً من معادلات الدرجة الثانية وطرق حلها والذي أراه أن هذا قد يدل على أن هناك
 حقائق أخرى مهمة تتعلق بالحضارة البابلية من حيث مآثرها في العلوم الرياضية غفل عنها الباحثون
 وسها عنها المنقبون . ولعل أقدم أثر رياضي وصل إلينا هو من بابل عن طريق لوحات خزفية^(١)
 محفوظة في باريس يستدل منها على أن البابليين عرفوا المعادلة التكميلية الآتية : $s^2 + 2s - 252 = 0$
 ويقول الدكتور نوجيور أن في هذه اللوحات ما يفهم منه أن قوانين إيجاد مجموع مربعات
 الأعداد ومكعباتها كانت معروفة لدى علماء بابل . الأمر الذي نسب إلى أم آت من بعدهم . هذا
 عدا معرفتهم لنظرية فيثاغورس واستعمالها في علم المثلثات التي تتعلق بحساب أطوال الأوتار في الدائرة ،
 ونجد أن بطليموس — أحد مشاهير الجغرافيين والرياضيين القدماء — أشار إلى تقدم الفلك عند البابليين .
 فأتى على ذكر عالمين من علماءهم اشتهرا ببحوثهما فيه . والآن أرغب في إعطاء فكرة عن بعض
 المسائل التي استعملها البابليون وقد أدت حلولها إلى معادلات من الدرجة الثانية من هذه المسائل :
 ما طول كل ضلع من اضلاع مستطيل إذا كان مجموع مساحته والفرق بين ضلعيه يساوي
 ١٨٣ ، ومجموع الضلعين يساوي ٢٧ ؟؟ والوضع الجبري لهذه المسألة هو :

$$s + s - s = 183$$

$$s + s = 27$$

$$\text{ومن هاتين المعادلتين ينتج أن : } 29s - s^2 = 210$$

$$\text{أو : } s^2 + 210 = 29s$$

$$\text{أي أن } s = 14, 15$$

، $s = 13, 12$ وقد ذكر علماء بابل هذه الحلول

ونجد أيضاً في تلك الأنواع مسائل أخرى تتطلب إيجاد أبعاد المستطيل إذا عرفت بعض
 علاقات بين اضلاعه . ففي بعض هذه المسائل يطلب إيجاد أطوال اضلاع مستطيلات إذا علم
 مجموع $\frac{1}{2}$ أحد الاضلاع و $\frac{1}{2}$ الآخر وعلم أيضاً أشياء أخرى تتعلق بهذه الاضلاع

(١) عثر على هذه الألواح في خرائب بابل وكانت صنعت من الخزف ونطبخ في النار . أما حجمها فقد

ان هذه الاعمال الرياضية بالاضافة الى الاعمال التي وضعها قدماء المصريين فيما يتعلق بتقسيم مربع الى مربعين بحيث تكون النسبة بين ضلعيها تساوي كمية معلومة ، ثم المسائل والاعمال التي في هندسة اقليدس -- كل هذه تكون سلسلة متصلة الخلفات في تقدم الرياضيات وعلى ذكر هندسة اقليدس نقول ان فيها اعمالاً تنص على انه يمكن إيجاد طول كل ضلع من اضلاع مستطيل اذا عرفت مساحته ونسبوع ضلعيه وتوضع هذه المسألة جبرياً على الصورة الآتية:

$$س \times ص = ب^2$$

$$س + ص = ح$$

وكذلك يمكنك معرفة اطوال اضلاع مستطيل اذا عرفت مساحته وفرق ضلعيه :

$$س \times ص = ب^2$$

$$س - ص = هـ$$

وهنا قد يتبادر الى الذهن السؤال الآتي : لماذا لم يستعمل اقليدس الاعمال الرياضية التي استعملها البابليون ؟ والجواب على هذا ان علماء اليونان لم يستيفوا جمع المساحات الى الاطوال على الرغم من مخالفة هيرو وذيقفطس لهذه القاعدة . فقد استعملوا طريقة جمع المساحات الى الاطوال ، فنجد ان هيرو قد جمع مساحة الدائرة الى محيطها ومن هنا يظهر الاتصال بين حضارة بابل وحضارة اليونان واضحاً جلياً

وعلى كل حال فقد يكون من المفيد ان نشير الى ان بحوث الجبر نشأت عن اصل هندسي وهذا يتجلى لنا في الاعمال الرياضية التي وضعها العلماء في بابل ومصر واليونان ، وهذه كلها تمهد لنا الطرق التي تمسكتنا من عرض الموضوعات الرياضية والارتفاع من هذا العرض في مدارسنا الثانوية ان الرياضيات الحديثة تبدأ بهندسة ديكارت التحليلية التي ظهرت عام ١٦٣٧ وقد تبعها فروع الرياضيات بسرعة ، فنشأ علم التكامل والتفاضل وما فيه من تطبيقات على مئات من المسائل العملية التي كان لها اثر كبير في رفع مستوى المدنية . ويرجع الاساس في هذا كله الى المبادئ والاعمال الرياضية التي وضعها علماء اليونان والى الطرق المبتكرة التي اتبعها علماء الهند . وقد اخذ العرب هذه المبادئ وتلك الاعمال والطرق ودرسوها وأصلحوها بعضها ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على انضج في افكارهم وخصب في عقولهم . وبعد ذلك اصبح التراث العربي حافزاً لعلماء ايطاليا وفرنسا واسبانيا ثم لبقية بلاد اوربا الى دراسة الرياضيات والاهتمام بها . وأخيراً أتى فينا فيثاغورث ووضع مبدأ استعمال الرموز في الجبر ، وقد وجد فيه ديكارت ما ساعده على التقدم ببحوثه في الهندسة خطوات واسعة فاصلة ، مهدت السبيل الى تقدم العلوم الرياضية وارتقاءها ، تقدماً وارتقاءً نشأ عنهما علم الطبيعة الحديث وقامت عليهما مدينتنا الحالية

تراث مصر اللغوي

اللغة المصرية القديمة

للاستاذ الدكتور - جبريل صبحي بك

الكلام في اللغات جاف ودائماً لا يكون شيقاً . وكنت اود ان اتحدث اليكم في موضوع ارق من هذا . ولكن اللغة هي أساس كل شيء . اللغة هي مفتاح كل الآثار . مفتاح التاريخ . مفتاح كل العلوم . لهذا يجب ان نتحمل جفاف المتكلم في هذا الحديث تاريخ اللغة المصرية بحجب في تاريخ كل لغات العالم . اذ انها دامت اكثر من ستة آلاف سنة . ولا يزال التكلم بها الى الان حاصل بشكل ما

واول ابتداء اللغة لا يعرف تماماً . ولم يظهر لها اثر الا بعد الأسرة الثالثة . واول كتابة من الأسرة الاولى . لم يترك منها اي علامة والمخلفات الباقية بين ايدينا من الاسرة الاولى الى الأسرة الثالثة قليلة جداً ومتناثرة بحيث لا يمكن الاستدلال على ماهية اللغة منها . ولا يمكننا اذن ان نحكم على اللغة في تلك الفترة

قد ظهرت هذه اللغة على الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى ٤٠٠٠ سنة ق.م . وكتبت على اهرام سفارة سنة ٢٥٠٠ ق.م .

وفي الأسرة الرابعة وجدنا على جدران الاهرامات نصوصاً لغوية يستدل منها على انها لغة مبهوكة لها على الاقل الف سنة . فهل نشأت هذه اللغة في عصر بناء الاهرام فقط ؟ اي انها لغة جديدة ؟ ام هي نفس اللغة التي كانوا يتكلمون بها من قبل ولم يدونوها ولم ينلها شيء كثير من التعبير ؟

ان نقوش الاهرام هي أقدم نقوش اللغة المصرية القديمة . وهي اقدم مجموعة كتابية . تدلنا على ان اللغة قواعد مضبوطة

ظلت اللغة كذلك الى ان تغيرت تغيراً بطيئاً في اواخر عصر المملكة الاولى . اي من الأسرة الثامنة الى الأسرة الحادية عشرة

ومن الأسرة الثانية عشرة الى الأسرة الرابعة عشرة تقدمت اللغة حتى بلغت اوجها وما لدينا من مخلفات تثبت لنا ان اللغة في هذه الفترة كانت في عصرها الذهبي . اذ بدأ المصريون يكتبون بها كل الفنون من هندسة وطب ودين وآداب ... الخ . واستمرت كذلك الى ان أتت الأسرة الثامنة عشرة فتبعت اللغة السياسة . ودخات على اللغة مؤثرات عديدة

ففي هذه الأسرة اتسعت املاك مصر من بحر قزوين وجزائر البحر الابيض المتوسط . وامتدت الى ما بعد تونس غرباً وشواطئ البحر الاحمر شرقاً . وبدأت اللغة تأخذ وتقتبس من لغات هذه البقاع الأجنبية الشيء الكثير كما هي الحال في اللغات الحية اذا ما امتزجت بلغة اخرى اخذت منها تعبيرات كثيرة جداً يسهل على اصحابها التعبير بها

أضرب لكم مثلاً : لقد دخلت على اللغة العربية تعبيرات عدة . ففي كرة القدم — مثلاً — استعملنا الفاظاً تدل على الاعمال المقصودة منها مثل « فول . جون . باك » الخ . فكل لغة حية اذا اختلطت بلغة اخرى تقتبس كلمات كثيرة منها . ويسهل عليها اقتباس اسماء اصلية . وفي كل تاريخ العالم وتاريخ اللغات يحدث هذا

وفي الاسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ — دخل على اللغة المصرية تعبيرات عظيمة معظمها سامي ولوبي . واصبح السكائب الذي لا يدخل تعبيرات اجنبية في كتاباته لا يعد فصيحاً . وبدأت اللغة تتغير . وانتشر التعليم بين كل الطبقات . فظهرت لغة مصرية جديدة (خليط من هذه اللغات) . وقد حُفظت الى الآن . وكذلك تغيرت في كتاباتها عنها في عهد العائلة المتوسطة . وأصبح كل واحد يتكلم ويكتب لان العلم زاد . وكانت هناك فروق بين لغة الكتب واللغة الدارجة كما نجد خلافاً بين اللغة العربية الفصحى واللغة العربية الدارجة

وفي عهد الاسرة الخامسة والعشرين كثر استعمال اللغة الدارجة بين كل الطبقات . واصبحت اللغة الفصحى هي لغة الدين فقط . وفي سنة ٧٠٠ ق . م . أصبح للغة الدارجة أهمية كبرى وظهرت مرونتها وتركزت اللغة الفصيحة بالتدرج للكهنه والكتبة . وتسمى اللغة الدارجة اللغة الديموطيقية وأول ما كتبت هذه اللغة ظهرت لنا معلومات جميع المصريين من كل طبقاتهم . فكل المصريين كانوا يحبون الكتابة . وفي عام ٣٠٠ ق . م . دخل اليونان مصر فاستصعبوا اللغة الديموطيقية . واجتهدوا في ان يتعلموا اللغة المصرية القديمة ويكتبوها بالرومي ، اي بالحروف اليونانية . وعندما دخلت الديانة المسيحية مصر تسرّب الى اللغة المصرية شيء من اللغة اليونانية

وفي العصر المسيحي اقتبسوا الابجدية اليونانية وأضافوا اليها بعض الاحرف الديموطيقية فنشأ الخط القبطي . وكانت اللغة القبطية هي اللغة الرسمية المتداولة في القرن الثالث للميلاد

دخل العرب مصر ، وبذلك اخذت اللغة العربية تأخذ لها نصيباً وتدخل في اللغة المصرية . ولكن هذا التدخل أخذ وقتاً طويلاً . وفي القرن الخامس عشر أخذت اللغة العربية تنتشر في مصر ، اذ أسلم كثير من الأقباط فكانوا مضطرين الى ان يتكلموا لغة نصفها عربي والآخر قبطي . ولكن بقيت اللغة القبطية الى القرن السادس عشر مستعملة في اشغالهم وفي بيوتهم . وحافظ الأقباط على ان يصصّأوا بها . واستمرت اللغة بهذا الشكل الى ان ابتدأت تهمل

ذكر في تاريخ القرن السادس للميلاد ان الوليد بن عبد الملك بن مروان أبطل اللغة القبطية من الدوائر الرسمية واستبدل بها اللغة العربية . وفي عام ٩٩٧ ميلادية قام الحاكم بأمر الله بن العزيز من الدولة الفاطمية وأمر بإبطالها للمرة وكان يعاقب من يتكلمها . هذا باختصار تاريخ اللغة

منشأ اللغة في مصر

إذا أردنا ان نعرف كيف نشأت اللغة في مصر يجب ان نعرف من هم المصريون
نشأ المصريون في افريقيا في حوض البحر الايض المتوسط ولم يأتوا من الخارج كما انهم لم
يكونوا ساميين بل هم من البرابرة وأقرب الى اللويين منهم الى اي جنس آخر
وقد وجد كثير من الجماجم على حوض البحر الاحمر والصحراء الغربية . وجماجمهم
لا تختلف عن المصريين . ولكن الجماجم الغربية التي وجدت كانت تختلف عن جماجم المصريين
والفرق بين الجماجم المصرية والجماجم السامية ظاهر اذ ان المصريين لويون محض ولغتهم نشأت
في مصر . وكل كتاباتهم كانت مصرية بحتة حتى علاماتهم وكتاباتهم ورسوماتهم كالشجر وغيره
وبما ان اللغة بدأت في مصر وجب ان نعرف شيئا عنهم فمثلا قبل الاسرة الثالثة معروف
انه أنت مصر اتم من الشمال . وهؤلاء الشماليون اختلطوا بالمصريين وبعد اختلاطهم بهم بدأ
الفن واللغة . ويظهر ان هؤلاء هم الذين علموا المصريين الكتابة
لم تكن اللغة المصرية سامية بل بربرية . فالمصريون اولاد عم التونسيين والمغاربة . وقد
وجدنا آلاف الجثث مدفونة على شاطئ البحر الاحمر قبل التاريخ بـ ٦٠٠٠ سنة او ٧٠٠٠ سنة ق.م
وجماجم البربر والتونسيين لا فرق بينها وبين جماجم المصريين فجماجم المصريين مسحوبة يضاوية
وقد وجدت جماجم كبيرة ومربعة تشبه القوقازية

وكتاباتهم مصرية بحتة ، اللغة ابتدأت في مصر قبل تأسيس العائلات الملوكية اذ جاء مصر
ايم من الشمال . اختلطوا بالمصريين وبعد اختلاطهم ابتداء عصر بناء الاهرام وابتدأت اللغة
تظهر بوضوح

اللغة المصرية اذن لغة افريقية بحتة . وبينها وبين لغة الصومال والجلالا في الحبش . ولغة
البربر صلة . كما ان بينها وبين اللغات السامية صلة ولكنها ليست قريبة كالصلة بين لغات البربر
وقد اتى زمن اتصلت فيه اللغة المصرية باللغات السامية فأخذت منها : واليك المثل

الضمائر

عربي	عبري	مصري	قبطي
انا	انوك	انوك	ANOK
أنا	أنا	أنا	أنا

أسماء الأعداد

عربي	عبري	مصري
واحد	أحد	وَع
اثنين	سنتين	سنو
ثلاثة	...	شمين

فبمقارنة الضمار والأعداد يتضح ان الاحتكاك بين اللغة المصرية واللغة السامية كان كبيراً فاللغة المصرية القديمة هي وحدة مخصوصة لا تتصل باتصال عميق باللغات السامية . ولا تتصل باللغات البربرية الا باتصالات ضعيفة

تأثير اللغة المصرية على كُبر من اللغات المجاورة

(في العصر القديم) اقتبس الاشوريون والبابليون الشيء الكثير من اللغة المصرية القديمة . واليونانيون مكثوا في مصر حول الالف سنة ، من عصر الاسكندر الى دخول العرب . ومن هذا الاحتكاك اقتبس اليونان من اللغة المصرية القديمة تعبيرات مصرية كثيرة . كما اقتبسنا نحن ايضاً منهم كثيراً من تراجم الكتب الدينية . حتى اتبعنا الصرف والنحو المتبع في لغتهم . وكتبنا لغتنا بحروفهم

لما دخل العرب مصر كانوا قلائل . ووجدوا في المراكز الحربية فقط . فلم يتأثروا كثيراً باللغة المصرية التي كانت قد تحولت في مظاهرها الى اللغة اليونانية تقريباً . فاللغة المصرية القديمة لم تمت في جيل او قرن او اثنين . وسبب موتها هو تغيير الدين بلا شك واضطرار المصريين لدرس العربية لحفظ القرآن الكريم وتفهم آياته

بدأت اللغة العربية تتدخل في لغة المصريين ومن هنا تكونت اللغة العربية الدارجة المصرية وظهرت . وهي تختلف عن اللهجات العربية الدارجة في البلدان الاخرى كالمغرب والشام . فالشوام مثلاً يتكلمون لغة عربية دارجة تختلف عن اللغة الدارجة في مصر كذلك في تونس . فالمصريون حتى في نطقهم الحروف العربية لا ينطقونها كالعرب او كالشوام ولكن بنطق مخصوص وفي مصر تختلف اللغة الدارجة في كل مديرية او اقليم او مركز عنها في مكان آخر . فلو ذهبنا الى الصعيد ونطرقنا لسمعنا كلمات غريبة

فالتأثيرات الجغرافية لها تأثير كبير على اللغة فهي تكون اللغة كما تكون الاشخاص فاللغة المصرية القديمة عامل قوي في اللغة العربية الدارجة كالتقاليد المصرية القديمة في الاموات والافراح

في سنة ١٩٣١ كُتبت في دشنا . تهت . فعمثت على اطفال يلعبون . ووجدت احدهم يقول
للاخر « تعال من ناو » اي تعال من هنا . وهي قبضية بحنة
وبعد مدة وجدت اطفالاً يلعبون كرة قائلين : --

سنو = تنين
كككو = باحناء
دأو = خمسة . . . الخ

وفي الصعيد أمثلة كثيرة كهذه :

شوطه = وباء
هيضه = مرض الاسهال (الكوليرا)
متلل = مزكم
تخمخم = حمى
جفه = يزد

اللهجة العربية الدارجة

إذا قارنا بين اللهجة العربية المصرية واللهجة العربية الشامية أو غيرها من اللهجات المستعملة
في البلاد العربية يظهر لنا لأول وهلة أن الاختلاف بينهما ليس فقط اختلافاً في طريقة النطق
بالكلام وأعرابه بل أنه اختلاف أعظم من ذلك -- اختلاف يشمل خاصيات كثيرة حتى في انتخاب
المفردات وفي كيفية نطق أحرف المجيء الأصلية وفي التعبيرات النحوية وضعيفة معاني الجمل

إنما لا ننكر أن اللهجة العربية الشامية هي أقرب إلى اللغة الفصحى منها عن اللهجة العربية
المصرية . ومن المفيد المربوب فيه أن نعرف أسباب ذلك الاختلاف مع علمنا أن تأثير اللغة العربية
الأصلية منذ دخولها في البلدين كان ولا يزال واحداً

فلهجة الشامي إذا نطق بالعربية هي المد في آخر الكلمات ووضع نبرة مخصوصة على عجز
الكلمة -- وكثيراً ما يبدل النون الأخيرة ميماً -- وهو نطق بابتداء المربوطة تاء مفتوحة بخلاف
المصري الذي إن لم يسقطها تماماً فهو ينطق بها كالحاء والفتحة الأخيرة التي قبل التاء المربوطة يعطيها
إمالة مخصوصة مؤكدة -- مثال ذلك لفظة (كتابة) التي ينطق بها المصري كأنها مكتوبة (كتابة)
أما الشامي فيلفظها -- كتابة --

ويعطش الشامي حرف الحيم دائماً بخلاف المصري الذي لا يعطشه منه إلا أعالي الوجه القبلي

تعطيشاً مختلفاً بالمرّة عن تعطيش الشام

أما أهالي القاهرة ومعظم الوجه البحري فينطقونها جيماً جامدة فيقول الشامي مثلاً — يا جرجس تمال هون . أما المصري فينطق — يا جرجس تعال هنا . ولكن ههنا بالأكثر البحث في اللهجة الدارجة المصرية . فنجد أنه يوجد اختلاف بين لهجة أهالي الوجه البحري وبين لهجة أهالي الوجه القبلي وبين لهجة الاسكندرية ولهجة دمياط وبين لهجة مديرية الشرقية ومديرية الدقهلية

أما لهجة أهل القاهرة فهي قائمة بذاتها وبما أنها لهجة أهل العاصمة فقد استعملت في كل نواحي القطر في النطق بأسماء البلاد والأقاليم . ويتبدى التغير في اللهجات بمجرد السفر من قبلي القاهرة ويظهر هذا الاختلاف بأشده أولاً في بني سويف وما حوالها في بلاد بوش واهناسيا وما جاورها . وينفرد إقليم المنيا بلهجة خاصة به تظهر بوضوح في المنيا وما جاورها وتبتدىء في التغير في ملوي وتتخصص باللهجة النطق المخصوصة . ومديرية جرجا لهجة خاصة تتضح في إقليم جرجا وأخميم . ويعقبها لهجة الأقصر لغاية اسنا . وللفيوم أيضاً لهجة خاصة —

ولنبحث الآن في هذه اللهجات بوجه أعم . تختص لهجة الاسكندرية باستعمال ضمير جمع المتكلم (نحن) عوضاً عن الضمير المفرد فيقول المتكلم عن نفسه (نحنأ) عوضاً عن أنا . ولا يخفى أن أهالي الاسكندرية كانوا ولا يزالون خليطاً من أمم العالم أجمع ويكثر بينهم اليوم الطليان واليونان ولهجة الاسكندرية الدارجة فيها ماث من الكلمات الطليانية واليونانية

ولهجة أهل دمياط وباقي البلاد الواقعة على البحر الصغير لغاية المنصورة تختص بنغمة توقع نبرة على آخر الكلمات يصعب شرحها بالكتابة ولكنها تعرف حالاً بالسمع ولهم في نطق الناء تعطيش مخصوص يجعلها تنطق كما لو تبعها شين منقوطة . وكثيراً ما نطقوا الدال المهملة كالطاء أيضاً ولهجة أهل مديرية الشرقية تشابه تقريباً باقي الوجه البحري إلا أن بعض أهالي الزقازيق ينطقون القاف على صحتها العربية ولكن لهم في حرف الكاف لغة مخصوصة وهي أن يقلبوها شيئاً منقوطة فيقولون شاب على كلب

أما لهجة أهل القاهرة فهي أرقى اللهجات من جهة حسن اللفظ ورقته ولها خواص تفصلها عن باقي اللهجات المصرية وقد تكونت هذه التخصصات تحت عوامل مختلفة . وأهم هذه الخواص هي :
أولاً : — استبدال حرف القاف في كل مواضع بهزة مقطوعة فيقال (آل) عوضاً عن (قال) و (إرد) عوضاً عن فرد

ثانياً : — لا يعطش أهالي مصر القاهرة الجيم أبداً في كل مواضعها بل ينطقونها جامدة

ثالثاً : — لا توجد نبرات ولا نبرات في لفظ الكلمات كما في الجهات الأخرى

رابعاً : --- يوجد معجم مخصوص للغة القاهرة تنتخب فيه الكلمات السهلة اللفظ القليلة الحروف الحلقية السهلة التناول كما أنها تحتوي على مئات من كلمات أصلها أوربي ومأخوذة عادة بصيغها في اللغة الإيطالية فيقال مثلاً (لمبة) Lampa ولا يقال Lampe و (جاكته) Jacquetta وليس Jacket أو Jacquette و (طاسه) Tassa ولا يقال Tasse الخ
أما لهجات الوجه القبلي فتقسم الى الجهات الآتية :

(١) لهجة بني سويف وما جاورها (٢) لهجة أهل المنيا وما جاورها

(٣) لهجة أهل جرجا وما جاورها (٤) لهجة أهل الأقصر لغاية أسوان

وأهم خواص اللهجة الأولى هي الترخيم ومد الحركة الأخيرة. والنطق بحرف القاف على الصحيح وعدم تعطيش حرف الحيم . وهذه اللهجة توجد في جهات اهناسيا وبوش والميمون والهنسا وبني سويف ، مثلاً يقولون « قد ايد (ش) » في بني سويف و (أد ايه) في القاهرة ويلفظون في القاهرة الهمزة الآتية :

يا واد يا احمد هات الآله وحطها جني . ولكنهم في بني سويف يقولون (يا واد ياح «مد» هات القلـ « له » وحطها جـ « بي ») وهكذا يسقط حرف القاف في القاهرة ويستبدل بهزة قطع ولاكنه ينطق به كجيم جامدة في كل نواحي الصعيد . وينطق به على الصحيح في بني سويف وبعض جهات مديرية الشرقية في الوجه البحري

أما حرف الحيم فينطق به جامداً في القاهرة وفي بني سويف والوجه البحري في معظم جهاته . أما في الصعيد من ابتداء المنيا فينطق به معطشاً ولكن بخلاف تعطيشه عند الشوام او عند الاعراب ويقرب في نطقه (z) اكثر منه الى (dz) ويتوقف معرفة هذا الفرق على سماعه
أما في لهجة المنيا وأسيوط فينطقون بحرف القاف جيماً جامدة في كل مواضعه ولكنهم يعطشون الحيم كما سبق ويعطشون حرف الدال المهملة ايضاً في بعض مواضعها وينطقون بها كاسمها جيم معطشة خصوصاً اذا وردت في وسط الكلمة ومن امثلة ذلك

قلب	يلفظ به	جلب
قط	يلفظ به	جط
ادلج	يلفظ به	اجلج
قسطندي	يلفظ به	جسطنجي


وتختص لهجة أهل مديرية جرجا وما جاورها في برديس وبردين او البلينا بإبدال حرف الدال جيماً والحيم دالاً فيقولون : دبل عوضاً عن جبل — ودوّه بدلاً من جوّه ودرديس عوضاً عن جرجس ولكنهم يقولون اجلج عوضاً عن ادلج

وينطقون بالكلمات الاجنبية في الصعيد بنطق يختلف عنه في القاهرة ويكثر عندهم تقديم بعض الحروف الاخرى لسهولة نطقها — فيلاحظون استنبالية استنبالية ويعملون ايضاً جردة لكلمة درجة والسند لكلمة السبنة وياجور عوضاً عن واجر او باجر ومنظلون لكلمة بنظلون هذا بخلاف الحركات ، ففي الصعيد والبحيرة يفضلون النطق بالواو المفخمة القرية من (0) الافرنجية بخلاف اهل مصر الوسطى فيبدلون بالفتحة الممدودة فيقولون يا بوي في الصعيد ويا بوي في البحيرة ويا باي في الفيوم وما جاورها وقس على ذلك

ونسأل الآن عن أسباب هذه الاختلافات في لهجات بلد واحد ، وعن العوامل التي أثرت في تكوين هذه الاختلافات التي رغمًا عن سهولة المواصلات في أيامنا الحالية واختلاط اهالي كل البلاد والاقاليم بعضهم ببعض لا تزال ظاهرة ، وجودة ثابتة عوضاً عن اختفائها وعوها بالتدريج . ولنا في هذه العوامل والاسباب الآراء الآتية :

اولاً : بالبحث في معجم اللغة العربية الدارجة يدهش الانسان من كثرة عدد الكلمات المصرية القبطية التي لا تزال مستعملة ينشأ للآن وهذه الكلمات يكثر عددها في لهجات الصعيد عن لهجة القاهرة ولهجات البحيرة وسنمطي ان شاء الله امثلة كثيرة من هذه الكلمات في مقال آخر ثانياً : - التعبيرات الجمالية وتركيب بعض الجمل المستعملة في الصعيد تشابه كثيراً التعبيرات وتراكيب الجمل في اللغة القبطية لدرجة انه يمكن في بعض الاحوال ترجمة جملة من لهجة الصعيد الى القبطية رأساً بدون أدنى تغيير في واطع كلماتها وتكون الترجمة صحيحة شكلاً ومعنى في القبطية ثالثاً : - الموافقة العربية بين نطق بعض الحروف العربية في الصعيد وما يماثلها في القبطية . مثال ذلك : طريقة نطق حرف الجيم العربي بوافق تماماً طريقة نطقه في الحرف ج (قبطي) الموافق له وهذا النطق يختلف بالمرّة عن نطق حرف الجيم في سائر الممالك الاخرى التي تتكلم بالعربية — كذلك النطق بحرف القاف جهاً جامداً هو عين ما حصل عند كتابة اللغة المصرية القديمة بالحروف اليونانية لتكوين اللغة المبطية كما ان التغيرات في الحروف المقفلة والمتحركة في لهجات مصر العربية الحالية هي بعينها نفس التغيرات والاختلافات التي كانت موجودة في اللهجات القبطية القديمة الموافقة جغرافياً للجهات العربية الحالية وذلك كمدّ بعض الحركات في الصعيد وتقصيرها في القاهرة وترخيم بعض الحركات في الصعيد وحفظها في القاهرة والبحيرة . ويصعب علينا اعطاء امثلة لضيق المقام . كل هذه الاعتبارات تجعلني اظن أن اللغة القبطية أثرت كثيراً في نطق وخواص اللهجات العربية الدارجة وليس العكس بالعكس اذ مرّ زمن طويل نطقت فيه اللغتان معاً —

وكثيراً ما نجد كلمات قبطية مستعملة للآن ومصحوبة بترجمتها العربية كالمناداة على بيع الخبز مثلاً بقولهم حالوم يا جينة ، فلفظ حالوم الاول هو اسم الجينة بالقبطية ولنا على ذلك امثلة متعددة

وإذا طالعنا بعض الكتب المخطوطة العربية التي كتبها الاقباط، نجد فيها عدداً غير قليل من غلطات النحو العربية ومن قواعد الاعراب كتذكير المؤنث او تأنيث المذكر مثلاً
خذ لفظ الارض التي تعتبر مؤنثة في العربية تستعمل مذكرة في كتب الاقباط العربية وذلك لكونها مذكرة في القبطية وكذلك عن كلمات اخرى
وقد كان حرف *ka* الذي يوافق  الهيروغليفي و(ق) العربي يقلب كثيراً الى حرف *g* = ج جامدة في لهجة الصعيد القبطية كما هو حاصل الآن في العربية
وكثيراً ما قامت الحروف د - ج ، ص - ت مقام بعضها في اللغة المصرية القديمة كما هو حاصل الآن في لهجة المنيا واسيوط والدقهلية
كما ان تمييز مواضع الحروف في الكلمة كان كثيراً في اللهجة القبطية الصعيدية كما هو حاصل الآن في لهجة الصعيد العربية . كما ان المد في الحركات وترخيمها في الآخر الحاصل عند اهالي الصعيد كان . وجوداً كذلك في اللهجة القبطية الصعيدية، اذ كانوا يكتبون الحرف المتحرك الممدود مرتين في الكلمة الواحدة . كما ان ظاهرة نطق حرف الكاف شيئاً في الشرقية، لا بد ان كان موجوداً في القبطية ايضاً وقت دخول العرب اذ يوجد اسماء بلاد تكتب بالمصرية والقبطية بحرف الكاف ولكنها نقلت الى العربية شيئاً مثال شبرا وشباس وشبشير وكلها في الوجه البحري

المرات القانوني لمصر القديمة

للكنوزة نكي عبر المنغال

مدير قسم الابحاث الاقتصادية بوزارة التجارة والصناعة
الاستاذ بكلية الحقوق سابقاً

مقدمة

كان لمصر فيها مضي نظمها القانونية والقضائية التي تتفق ومدنيتها العظيمة التي بلغتها ، وكانت هذه النظم متأثرة في معظم الاحوال بالطابع الديني ، عدا بعض الاوقات التي كان يضعف فيها نفوذ الكهنة فتأخذ مسحة مدنية

ويرجع ظهور التشريع في مصر الى اكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد عند ما استعملت الكتابة اذ وضع « نحت » وزير « أوزوريس » القوانين المختلفة وجمعها في سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد . غير أن القوانين تغيرت بعد ذلك اثناء معظم المدة الفرعونية الى أن جاء الملك « بوخوريس » . مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين (ومدة حكمه من سنة ٢١٨ الى سنة ٢١٢ قبل الميلاد) وجمع شتاتها ، بعد تعديلها ، في مجموعة واحدة نظم بها المعاملات المدنية والاحوال الشخصية وعرفت بمجموعة قوانين بوخوريس « Code Bocchoris » ، وأسماها الاغريق فيما بعد « بقانون العقود » . ونجح أحسن الثاني أو أمازيس أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (ومدة حكمه من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد) القوانين المصرية بمدة اصلاحات تشريعية ، غيرت من مجموعة بوخوريس في نصوص كثيرة ، وأصدر بذلك مجموعة قوانين أحسن « Code Amasis » في عام ٥٥٤ قبل الميلاد . ولما تولى الحكم الملك نفيرت (المسمى أمرنوس أو أمرنوت ايضاً) ، مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين ، عام ٥٠٥ قبل الميلاد (وقد استمر في الحكم حتى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد) أعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد أن كوّن لجنة لتعديلها وتمييحها . واستمر العمل بهذه المجموعة المعدلة اثناء المدة الباقية من العهد الفرعوني ، كما استمر تطبيقها في العهد البطلمي ، بعد تعديل فيها ، على المصريين دون الاغريق الذين كانت تطبق بشأنهم القوانين الاغريقية ، واستمرت نافذة كذلك بعد الفتح الروماني ، في سنة ٣١ قبل الميلاد ، حتى سنة ٣١٢ ميلادية اذ أصدر الامبراطور كرا كلا قانوناً منح به الرعوية الرومانية لسكان الامبراطورية وبذا طبقت في مصر القوانين الرومانية

وقد تبع وجود نظام قانوني على أساس تشريعي ظهور آخر قضائي الى قضاء منظم ومحاكم مرتبة . ولحق هذا النظام القضائي التعديل تبعاً للمصير المختلفة الى ان صدر قانون كرا كلا السابق الذكر وأدخل في مصر النظام القضائي الروماني

القسم الأول

النظام القانوني

(قبل مجموعة بوخوريوس) : كانت بالقانون المصري القديم التقسيمات المعروفة في الوقت الحاضر حيث شمل الاموال والالتزامات والعقود والاحوال الشخصية

فقسم القانون القديم الاموال الى عنارية ومنقولة وهذه الى جامدة وحية . وكان للملك ملكية الاموال الموجودة في مصر لكنه يمنحها لمن يشاء . واذا نظرنا للملكية العقارية بصفة خاصة وجدنا القاعدة الاساسية فيها ان الملك كان صاحب الحق على كل الاراضي غير انه منح حق الاستغلال للأشراف من رجال الدين والحيش محفظاً بملكية الرقبة ، وكان يعطي للعامة حق الاستغلال من وقت لآخر تبعاً لتحول النظام السياسي وميله نحو الديمقراطية وكان يقرن الاستغلال احياناً بحق التصرف المقيد دون الكامل . وقد أعطى أوزوريس ، في عهد ما قبل التاريخ ، تبعاً للإصلاح الديمقراطي الذي تم مدة حكمه ، العامة حق تملك الاراضي والتصرف فيها وإلحائها . كما قامت الدولة ، في الامبراطورية الوسطى بتقسيم الاراضي وتوزيعها على العائلات واعتبر رئيس العائلة مسئولاً أمام الحكومة عن زراعة القسم المعطى لها وأصبح للزراع حرية التصرف في الاراضي وتوارثها في داخل العائلة بحيث لا يباح التصرف فيها لأجنبي عنها . وكان رئيس العائلة ملزماً بالتبليغ سنوياً عن عدد أفراد عائلته وحالتهم بحيث يتخذ هذا التبليغ أساساً لمنح العائلات التي زاد عدد أفرادها اراضي جديدة ، كما كانت تمنح أراضٍ جديدة عند اغراق فيضان النيل لجزء من قسم ممنوح من قبل . واستلزم هذا التنظيم القانوني للملكية العقارية وجود ادارة خاصة للتسجيلات تقيدها في دفاتر خاصة كافة التصرفات العقارية وتسلم منها لاستحبابها صور رسمية لاثبات الملكية

اما التعهدات فكانت شفهية على اختلاف انواعها ، فلم تكن العقود مكتوبة بل تتم بيمين أو « سنك Sanch » ، من المتعهد للمتعهد له باداء ما اتفق عليه ، بحضور عدد من الشهود ، وبذا كانت الشهادة لازمة لاثبات كافة العقود . غير ان اثبات التعهدات بالكتابة أخذ في الظهور منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، بدليل وجود عقد بيع ثور يرجع تاريخه لعهد رمسيس الثاني من ملوك الأسرة التاسعة عشرة . وكان لا يجوز تعدد أحد طرفي العقد ، فاذا كن المتعهدون عدة اشخاص اعتبروا شخصاً واحداً ، ويتضح ذلك من قولهم في العقود : « تكلم فلان وفلان بضم واحد أو بلسان واحد » . وكان يجبر الملتزم ، بالاكره البدني ، اذا تخلف عن وفاء ما التزم به مع توقيع غرامة عليه تبلغ نصف قيمة ما تعهد به « Hemiolion » . وكان القانون المصري يجهل التقادم ، كما لم يرتب على العقد سوى التزام من طرف واحد

وكان عقد البيع أهم عقد في القانون المصري القديم . والاصل في البيع ، كسائر العقود وفق ما سبق ذكره ، اتحاد البائع واتحاد المشتري تبعاً لعدم اجازة تعدد أحد طرفي العقد ، فإذا تعدد البائعون عوملوا معاملة المتضامنين ، وإذا كان المشترون عدة اشخاص من عائلة واحدة أصبح أرشدهم وكيلاً عنهم . ويرتب على البيع الصحيح ، المقعد باليمين أمام الشهود ، التزام البائع بتعدين : الاول تسليم سندات الملكية « *Piposionis* » والثاني ضمان كل تعرض للمشتري « *Striosis* » ، وكان يجب ذكر هذين التعدين صراحة في العقد ، فلما كثر استعمالها صارا يفهمان ضمناً من العقد دون حاجة لنص . وقسم البيع لعقدين : أحدهما اتفاقي موضوعه حق الرقبة فينتقل بالتراضي دون تسليم الشيء المبيع ، والاخر عيني ينتقل اليد وهو لا يتم الا بتسليم العين المبيعة . ولم يكن البيع يشمل الاراضي لعدم تمتع الافراد بالملكية الكاملة . واتخذ عقد البيع شكلاً لجميع المعاملات من اجارة ورهن ووصية . فاستعمل البيع في الوصية بأن يتم عقد الرقبة الاتفاقي بين الموصي والموصى له ثم يؤجل العقد الثاني العيني الى ما بعد وفاة الموصي فيلتزم به الورثة ، وبذا لا يتسلم الموصى له العين الموصى بها الا بعد وفاة الموصي ، اي بعد اجراء العقد الثاني الخاص بوضع اليد

ونظم القانون المصري القديم الزواج مشروطاً ان يتم العقد اولاً وفق الاصول القانونية المدنية على ان يجري الزواج المدني بطريق الشراء ، ثم يحصل بعدئذ الزواج الديني ويتولاه أحد الكهنة . أما العلاقة المالية بين الزوجين فكان يتفق بشأنها في مشاركة الزواج على أحد اشياء ثلاثة : (١) فصل مال كل من الزوجين عن مال الآخر ، وللزوجة في هذه الحالة حق التصرف في أموالها بدون اجازة زوجها . (٢) تخصيص بعض أوكل مال الزوجة للمساعدة على معيشة الأسرة ، وللزوج في هذه الحالة حق الانتفاع بأموال الزوجة وعليه ردها عند الانفصال ، بينها ان كانت عقارات أو رد قيمتها المينة في عقد الزواج ان كانت منقولات . (٣) اشتراك الزوجين في بعض الأموال أو جميعها . وكانت تمتع الزوجة بامتيازات كثيرة ، عللها ديودور الصقلي باحترام المصريين للالهة ايزيس أمهما . منع الزوج من التصرف في ماله بدون اجازة الزوجة لما لها من الرهن العام على أمواله وأجاز القانون المصري الطلاق كما أباح للمرأة ان تشترط لنفسها حق فسخ الزواج . وكان للزوجة ان تشترط في عقد الزواج ما يدرأ عنها خطر الطلاق ، من ذلك : اقرار الزوج بمبلغ معين كنفقة يلزمها حين الطلاق ، تقرير غرامة يدفعها الزوج عند الطلاق ، ان يكون للزوجة رهناً عاماً على أموال الزوج التي يمتلكها في الحال او الاستقبال ضماناً للنفقة والغرامة ، وان ترفع ولاية الزوج عن الابن الارشد فيصبح الابن بذلك رب العائلة ووكيلها ولم يظهر الرق الخاص ، او استرقاق فرد لا آخر ، الا بعد الأسرة الرابعة في القرن السابع

والعشرين قبل الميلاد . وكانت تستخدم الدولة من قبل أسرى الحرب الأجانب في الاعمال اللازمة لها ومن ثم كانوا أرقاء للدولة . وكان المزارعون القائمون بفلاحة الارض لحساب أصحابها أحراراً متمتعين بكافة الحقوق وغاية الأمر انهم كانوا مرتبطين بعقود مع صاحب الارض فاذا تصرف فيها نقل الحقوق التي له بمقتضى العقد على عماله الزراعيين الى المتعهد له ولم يكن هذا الأمر تصرفاً في أشخاصهم كالعبيد ، كما كان العمال المشتغلون لحساب الدولة في المناجم والمصانع الملكية أحراراً مرتبطين بعقد العمل فحسب . ووجدت بمصلحة الاشغال في عهد الأسرة الثالثة ادارة للعمل ترعى شئون العمال . وعند ما أباح القانون المصري الرق الخاص بجل أولاد العبيد ارقاء ووضعت به نصوص تكفل الرحمة بالعبيد ، فكان اذا ظلم سيد عبده حكم القاضي بتحرير رقبته ، كما كان يعتبر ابن الجارية المرزوق لها من سيدها ولداً شرعياً

وكانت تقدم التبليغات الخاصة بالأحوال الشخصية الى ادارة حكومية تسمى « بيت الوثائق » فتفيد في سجلات الحالة المدنية

مجموعة بوخوريس : كان بوخوريس متأثراً في تشريعه بقوانين حلفائه الآشوريين والكلدانيين فأخذ منها بعض المبادئ وعلى الاخص فيما يتعلق بالالتزامات ، بعد تحويرها بما يتفق وعادات المصريين مع اعطاء التشريع صبغة مدنية بالابتعاد عن الطابع الديني

فأباحت مجموعة قوانين بوخوريس الملكية العقارية الخاصة وأعطت مستغلي الأراضي الزراعية حق التصرف فيها نتيجة الاعتراف لهم بحق الملكية التام ، كما أجازت التصرف فيها بمن نقدي ، ونصت على وجوب تحرير عقدين مهابزين ، عقد اتفاقي وآخر عيني ، في البيع العقاري مقررته بذلك المبدأ الذي جرى عليه القانون القديم بشأن سائر البيوع الأخرى

وأخذ بوخوريس عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، وساعد على تقريره في مصر انتشار القراءة والكتابة بعد ان كان يحفظها العامة ، كما أوجب تسجيل العقود لدى كاتب التسجيل . وبذا قضى على نظام الشهادة واليمين الدينية وأصبحت لا تقبل الشهادة في إثبات الحقوق ، فان لم يوجد بشأنها محرر كتابي فلا تثبت إلا بأقرار المدين . وأخذ تشريع بوخوريس عن الكلدانيين ايضاً ، وقد اشتهروا بالتجارة ، نظام الفوائد غير انه حدد سعرها القانوني ، فلا يجوز اشتراط فائدة سنوية تزيد من ثلث رأس المال كما لا تجوز المطالبة بأكثر من ضعف الدين مهما طالت المدة وحرمت الفائدة المركبة . كذا ألغى الاكراه البدني وأبطل اسرقاق المدين عند عدم الوفاء بحيث جعل التنفيذ قاصراً على أموال المدين دون شخصه . وجاء قانون العقود بنصوص خاصة بالأجارة والرهن مميّزاً بذلك بين العقدين ، وكان الكلدانيون يخلطون بينهما ، ورتب على عقد

الايجار تحمل أموال المستأجر برهن عام ضماناً للوفاء بالاجرة ، وكان الكلدانيون يجهلون الرهن العام اذ يستوجب الرهن غنم وضع العين تحت يد المرتهن
اما الاحوال الشخصية فقد لحقها التعديل ، اذ ألغى عقد الزواج الديني على يد الكاهن وأصبح الزواج مدنياً ، كما تقرر حق الرهن العام للزوجة على أموال زوجها بقوة القانون دون حاجة لاشتراط نص خاص بذلك في عقد الزواج

ولم تدم إصلاحات بوخوريس التشريعية طويلاً ، إذ فقد عرشه بعد ست سنوات من توليه فاستولى الاتيوبيون على مصر وأسسوا الاسرة الخامسة والعشرين وأبطلوا العمل بمجموعة بوخوريس ، وقضوا على الملكية العقارية الفردية بإعطاء ملكية الاراضي للآله آمون مع منح الافراد حق استغلالها ومنعهم من التصرف فيها الا لأفراد أسرهم على ان لا يكون ذلك بشمن نقدي بل بمقايضة أرض بأرض ، وان يتوقف التصرف على إجازة كهنة آمون
مجموعة أمازيس : كان احسن الثاني رئيس عصاة ثائرة ، استولى على العرش قهراً بعد هزيمة سلفه اريس امام اللوبيين وثورة البلاد عليه ، لذا أراد أن يغير سائر الامور ويخلص القانون من تدخل رجال الدين ومن القيود العائلية الضيقة فأخذ من مجموعة قوانين بوخوريس ما يلائمه مدخلاً التغيير في الباقي ، لذا جاءت مجموعة قوانينه مشابهة لقانون العقود في بعض اجزائها ومختلفة عنها في البعض الآخر الذي وضع على أساس حب المال والتوسع في الأعمال المالية مع التضييق من حقوق المرأة. وتأثرت قوانين امازيس بالشريعة الاسرائيلية بعض الشيء. إذ أخذت قسطاً من مبادئها القانونية بتأثير المالىين من اليهود المقيمين في مصر ، كما تأثرت أيضاً بنشأة واضعها حتى انه عند ما نظم طوائف الاعمال المختلفة ، اعترف رسمياً بطائفة اللصوص ووضع لها تشريعاً خاصاً منظماً لها

اعترف تشريع أمازيس بالملكية العقارية الفردية وابعاح لاصحاب الاراضي حق التصرف فيها. كما أدخل طريقة الاشهاد بالميزان فيما يتعلق بالبيع وسائر العقود الناقلة للملكية وكذا في التبن. وتتلخص هذه الطريقة في وجود ميزان وقطعة من النحاس والعين المراد نقل ملكيتها وحضور طرفي العقد والشهود ، فيمسك المشتري بالعين مقررأ انه اشتراها بالثمن المقدّر بالميزان ثم يضرب الميزان بقطعة النحاس ، مشيراً بذلك إلى وزن الثمن ، وبذا يستخدم الميزان في وزن العين والثمن. وكان يحجر بهذه الاجراءات التي تمت ، طبقاً لقانون امازيس ، عقد كتابي . ولم تطبق هذه الاجراءات على المنقولات الجامدة المراد نقل ملكيتها فحسب ، بل على المنقولات الحية أيضاً ، كالحيوان والعبيد ، وكذلك على العقارات بصفة صورية وأباح مجموعة امازيس الاجارة ، تبعاً لباحثها البيع بشمن نقدي والهبة (والاعتصاب) ،

في العقارات غير أنها قيدت مدة اجارة الاراضي الزراعية بسنة. اما العقارات المبينة فتجوز فيها الاجارة لمدة اكثر من سنة . واحتفظت المجموعة بثبوت العقود بالكتابة على أن لا يترتب عليها سوى التزام مدني من جانب واحد ، كما احتفظت بحد الفوائد القانونية التي قررتها مجموعة بوخوريس أما الزواج ، وقد تأثر بشريعة اليهود ، فاستمر مدنيًا بطريقة الشراء ، وكانت تطبق بشأنه إجراءات الاشهاد بالميزان رمزاً لملك الزوج زوجته ، وكان يكفي لإثبات الزواج بصفة رسمية اقرار الزوج به عند الاحصاء الذي تقوم به الحكومة كل خمس سنوات وإثبات ذلك في وثيقة خاصة يوقع عليها عامل الاحصاء ، وبذا يصبح الابناء المولودون قبل الاحصاء أولاداً شرعيين . غير ان طريقة الزواج الديني لم تختف في الحال بعد تطبيق قانون أمازيس ، بل استمرت رديحاً من الزمن حيث كان يلجأ اليها تقرر من المصريين المتعبدن مع ضرورة التبليغ عن الزواج بصفة مدنية عند الاحصاء . وفقدت الزوجة مركزها الممتاز الذي كان لها في القانون القديم وفي قانون العقود ، وأصبحت هي وأملأها ملكاً للزوج

(التعديلات اللاحقة) : أعاد امرنوس العمل بمجموعة بوخوريس بعد ان ادخل عليها بعض اصلاحات منها تقرير سريان الفوائد منذ حلول ميعاد الوفاء والاعتراف بعقد الغاروقة الذي يعطي به المدين عقاره للدائن فيستغله لنفسه وينتفع به لحين تمام وفاء الدين ولحقت بمجموعة بوخوريس المعدلة اصلاحات أخرى في عهد البطالسة أهمها : (١) وجوب تسجيل العقود الخاصة بالعقارات في خلال الستة الأشهر التالية لامضاء العقد وإلا لحقه البطلان ، وكان قانون بوخوريس لا ينص على ميعاد للتسجيل . (٢) يجب أن يحرر كل عقد بين مصري وإغريقي من نسختين احدهما باللغة المصرية والاخرى باللغة الاغريقية ، فان اختلفت النسختان فالعبرة بما في النسخة المصرية ، ويلغى اي شرط منصوص عليه بالنسخة اليونانية وحدها اما اذا كان وارداً بالنسخة المصرية ، دون الاغريقية ، فيؤخذ به اذ تعتبر النسخة المصرية هي الاصل (٣) يسقط الحق في الملك بمضي مدة ثلاث سنوات ، وهذا أول عهد القانون المصري بأحكام التقادم

القسم الثاني

النظام القضائي

(الادارة القضائية) : كان الملك باعتباره مصدر جميع السلطات ، يباشر القضاء إما بنفسه في بعض الحالات النادرة او بواسطة موظفين مدنيين أو دينيين ، تبعاً للاحوال ولمقدار نفوذ الكهنة في الدولة

وقد أنشئت منذ أوائل الامبراطورية القديمة إدارة خاصة للمحاكم سميت الادارة القضائية

Ousacht يرأسها الوزير الأكبر ، غير انه لم يتولَّ ادارتها الفعلية بل ترك ذلك لأحد أعضاء مجلس العشرة الكبير « Our Medj Shema » او المجلس الامبراطوري الذي يدير كافة أعمال الدولة بإشرافه على الهيئات الحكومية . وكان يطلق على القضاة لقب « ساب » (Sab) ويدل على سلطة القضاء المستمدة من الملك فكان يقوم من يلقب به بهذه الوظيفة بمد ان يصدر الملك أمراً بتعيينه . وكان القضاة يقسمون عند تعيينهم مبنياً في حضرة الملك يأخذون فيه على انفسهم عدم طاعته الا فيما يطابق العدل بحيث يكون لهم مخالفته اذا امرهم بما ينافي قواعده

وكان للوزير الاكبر تبعاً للقبه « Tuti Sab Tjati » سلطة القضاء في كل المملكة بحيث كان يرأس منذ عهد الاسرة الخامسة المحكمة العليا ، كما كان لحكام الاقاليم « Sab Adj Mer » ايضاً سلطة القضاء في اقليمهم وكانوا يرأسون محاكم الاقاليم او المحاكم الابتدائية . ويتضح من تتبع النظام القضائي ان السلطة القضائية لم تكن منفصلة عن السلطة التنفيذية ، اذ كان الوزير الاكبر ، وهو رئيس الحكومة ، رئيساً للمحكمة العليا وحكام الاقاليم رؤساء لمحاكمها

المحاكم : كانت المحاكم المصرية القديمة على درجات ثلاث : محاكم جزئية بالقرى والمدن ، ومحاكم كاتبة بعواصم الاقاليم ، ومحكمة استئناف عال بماصمة الدولة . كما وجدت محاكم عسكرية او يجالس فوق المادة للجنود ، وأخرى عائلية يقوم بالقضاء فيها رئيس العائلة فيحكم في المسائل البسيطة المتعلقة بالاسرة وأفرادها . وعرفت مصر نظام القضاء الاداري تحت رئاسة حاكم الاقليم ، الذي يفصل في المنازعات بين الادارة والافراد فيما يتعلق بتبليغاتهم عن اموالهم وبالضرائب المفروضة عليها . وكان يتولى الفصل في هذه المنازعات ، التي تقوم بين دافعي الضرائب والموظفين المكلفين بجبايتها رئيس مقدري الضرائب ولذا سمي : « Sab Nekht Kherou »

وكان يصح للخصوم الالتجاء للتحكيم ، باختيارهم حكماً بينهم ، على ان ينص في عقد التحكيم على الاجراءات وكذا الجزاءات التي يمكن توقيعها اذا استلزم الامر ذلك بأن لم يطلع احد الطرفين قرار التحكيم ، وكان ينفذ القرار دون حاجة للرجوع الى المحكمة

وكانت محكمة الاقليم Het Ouret مكوّنة من قضاة من اعيان الاقليم وتحت رئاسة الحاكم . وانتشر هذا النوع من المحاكم منذ عهد الاسرة الخامسة في مصر العليا والسفلى بحيث اصبح القضاء موحداً بالنسبة لكل الاقاليم ، وكان لكل محكمة قلم لتلقي عرائض الدعاوى وآخر للمحفوظات تحفظ به سجلات الاحكام . اما اختصاص هذه المحكمة فمحدود ولها اجراءات خاصة تتخذ امامها : فكانت مختصة دون غيرها بالفصل في المنازعات المدنية . وتبدأ الاجراءات امامها بمريضة دعوى ، يبين بها المدعي طلبه ، تقدم لقلم الكتاب فيحوّلها لقاضي التحقيق الذي

يدعو طرفي الخصومة ويسألها ويخصص المستندات ويسمع الشهود بعد اداء اليمين ثم تحول الدعوى بعد ذلك الى المحكمة فيقدم كل طرف طلباته ووثائجه الاحتياطية فتحكم طبقاً للمستندات . وكانت تعتمد المحكمة في المسائل العقارية على مستخرجات السجلات العقارية ، واذا كانت المستندات غير كافية امرت المحكمة باجراء تحقيق تكميلي ثم تصدر حكمها مشتملاً على خلاصة اقوال الطرفين والاسباب والمنطوق . وبذا كانت الاجراءات او المرافعات كتابية . وكانت تستأنف الاحكام المحكمة العليا . وكان لمحكمة الاقليم اختصاص جنائي ، كما يختلف الشهود في الدعاوى المدنية والجنائية يميناً امام المحكمة قبل الادلاء بالشهادة وصيغة اليمين كالآتي : « اقسم بآمون وبالمك ان اقرر الحقيقة ولا اقول كذباً ، فلئن كذبت فلنجدعن انفي ولنصلن اذني ولا تقين الى الحبشة ، او الى خارج الحدود »

اما المحكمة العليا فقد انشئت في عهد الاسرة الرابعة وسميت بمحكمة الستة « Het Ouret Sou » وكانت مكونة على رأي البعض من ستة مستشارين وعلى رأي البعض الآخر من ست دوائر . ولم يكن للوزير الاكبر في ذلك العهد رئاسة هذه المحكمة رغم لقبه الذي يحمله وهو « قاضي الباب الملكي » بل كان يرأسها رئيس اسرار الملك كما كانت مكونة من كاتب الاسرار وبذا كان يتولى ملوك الاسرة الرابعة القضاء العالي بواسطة كاتب اسرارهم وهذا مظهر من سياستهم المطلقة . وقد تغير تكوين المحكمة العليا في عهد الاسرة الخامسة اذ اعطيت رياستها للوزير الاكبر . وكان يقوم بعض اعضاء المحكمة بتحقيق القضايا المرسله اليهم من قلم الكتاب ثم يحولونها الى احدى دوائر المحكمة للنظر فيها واصدار الحكم باسم الملك ، وكان يختار قضاة التحقيق من اعضاء مجلس العشرة ، اما قضاة الجلسات فيختارون من اعضاء هذا المجلس او من قضاة اثنين معينين خصيصاً لذلك ، ورؤساء الدوائر قضاة فنيون معينون لهذا الغرض . وكانت القوانين المصرية مسطورة في ستة مجلدات مودعة بالمحكمة العليا

﴿ القضاء الجنائي ﴾ : عرف القضاء الجنائي في مصر منذ انشاء المحاكم غير انها لم تقسم الى مدنية وجنائية الا في عهد الاسرة التاسعة عشرة حيث فصل القضاء المدني عن الجنائي في الاقاليم بعد ان كانت تقوم بها هيئة واحدة . فكانت تشكل المحاكم الجنائية فيها من الحاكم يعاونه اثنان من المحلفين « Qenbet » وذلك بحضور وكيل النائب العام . اما القضايا الجنائية المرتبطة بها مسائل مدنية فكانت تنظرها هيئة مكونة من اعضاء المحكمة الجنائية منضماً اليهم ثلاثة قضاة من المحكمة المدنية ، وكانوا من رجال الدين في غالب الاحوال

وقد ظهرت وظيفة النيابة العمومية منذ عصر الاسرة الثانية عشرة حيث انشئ منصب النائب العام او نائب الملك ، ويسمى « بلسان الملك Nem Snten » ، الذي يباشر التحقيق

ويقيم الدعوى العامة . والنائب العام وكلاء في الاقاليم يباثرون الدعوى العامة امام حاكم الاقاليم الجنائية . ورغم ان الملك هو صاحب السلطة القضائية فقد كان تدخله قاصراً على القضاء الجنائي بواسطة النائب ووكلائه . وكانت المحاكم الجنائية تابعة له مباشرة . والقضاء الجنائي العادي على درجتين ، (١) محكمة المدينة « Dja » او الاقليم « Præsis » (٢) والملك ، او مجلس الملك الخاص اذ كان يحكم في الاستئناف الذي يرفع اليه . وكانت تقدم الدعوى للملك بمريضة رفع اليه ، وكان الحق في ذلك ثابتاً للجميع . غير انه جعل في عهد الاسرة التاسعة عشرة قاصراً على كبار رجال الجيش والكهنة وذلك نظراً للطبقات الممتازة التي انشأتها هذه الاسرة . اما القضاة فكان من واجبه الرجوع للملك ليفصل في الدعوى اذا تعذر عليهم الامر . واعطي الافراد حق رفع الدعوى الجنائية المباشرة ، ان لم تتم النيابة العامة بتعريضها ، مع تحملهم نتائجها .

وكانت الجرائم التي تمس الملك او الدولة بصفة عامة ، من اختصاص المحكمة المختصة وهي مشكلة من اثني عشر قاضياً ، بعضهم من رجال الجيش ، كما يقوم النائب العام امامها بالاتهام . وكان يعين النائب العام ، بمقتضى السلطة الممنوحة له من الملك ، اعضاء هذه المحكمة ثم يقوم بعد ذلك بمهمة في الاتهام دون تدخل في عمل القضاة ، بحيث كان يرد اسمه بعد اسماء القضاة وقبل كتاب الجلسة . وكان المبدأ السائد ، رغم تدخل النائب في اختيار قضاة المحكمة ، فصل هيئة الاتهام عن هيئة الحكم . وتبدأ الاجراءات في هذا القضاء الجنائي غير العادي بتقرير اتهام رفعه النائب العام الى الملك فيصدر أمره بتشكيل المحكمة المختصة التي تقسم بمجرد تكوينها الى هيئتين ، تفحص كل منهما الدعوى على حدة ثم تجتمعان للنظر فيها . وكانت محاضر جلسات الهيئتين وجلسات المحكمة بكامل هيئتها بوجزة ، وذلك بعكس محاضر المحاكم الجنائية العادية التي كانت مطولة وترد بها كل التحقيقات من أسئلة وأجوبة وشهادة شهود ومعاينة ، اذ كانت تصدر المحكمة المختصة حكمها دون نشر الاسباب ، مع احتفاظها بسرية التحقيقات التي قامت بها .

وعرف من العقوبات الجنائية الاعدام في الجرائم العادية والسياسية والحبس والجلد ، وكان ينفذ حكم الاعدام بقطع الرأس أو بالشنق ، كما كان يحكم على الزانية بالحرق وهي على قيد الحياة في القضاء الديني . جرى العمل في عهد الاسرة العشرين ، نظراً لنفوذ رجال الدين ، على استفتاء الآلهة آمون في المسائل الجنائية . فكان يؤتى بالمتهم امام تمثاله ، ويسرد رئيس الكهنة الوقائع امامه ويسأله عما اذا كان المتهم مذنباً أم بريئاً ، فيحرك الآلهة رأسه بالنفي أو بالاجاب أو بمسك بأحد كتيابين مقدمين له بأولها الاتهام وبثانيهما الدفاع ، فاذا قبض على الاول اعتبر المتهم مذنباً واذا أمسك بالثاني اعتبر بريئاً . واذا كان الجنائي غير معروف بالتعيين قدم اليه المتهمون فيشير يده تمييزاً للجنائي من بينهم ويسمع صوته قائلاً مثلاً « هذا هو السارق . . . »

فاذا أنكر المتهم كرا آمون اتهامه ، وان ألج في الانكار أعيد الى السجن لتعذيبه حتى يعترف ، اذ لا يمكن تكذيب الآله ، ثم يؤتى به الى آمون فيقر أمامه بذنبه ويؤمن التمثال على ذلك . ويقدم الجاني بعدئذ للمحكمة الجنائية التي تأخذ باعترافه لا آمون ، ويحضر النائب او وكيله جلسة المحاكمة ، محافظة على الشكل القانوني فحسب ، وتصبح مهمته في هذه الحالة ضئيلة اذ لم يباشر بنفسه التحقيقات التي أدت للاعتراف . حيث يعتبر آمون هو القائم بالتحقيق وبالاتهام . وكان يقسم المتهم ، قبل سماع أقواله ، يمينا باسمي آمون والملك تنهيه بقوله « ان كذبت فلا عودن الى السجن ولا سلمن للجراس » ، وبذا تعبرت صيغة القسم الموجودة من قبل ، وفي قول المتهم بالعودة الى السجن اشارة لما يلقاه من التعذيب على يد حراسه ، ومن ثم يعترف بالجرم كي لا يعذب من جديد .

وقد ازداد شأن فتاوى آمون بتدخل الكهنة في القضاء عند تولي حرحور رئيس كهنة آمون الملك في سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد ، بمقتضى فتوى من الآله نفسه وبذا أصبحت أقوال آمون هي الحكم في كل المسائل الجنائية والمدنية والادارية بحيث تفصل في الوقائع وفي التطبيق القانوني . وكانت جلسات محكمة آمون عانية في المدرج الفضلي بالمعبد ، وان احتاج الحكم فيما بعد لتفسير راجع رئيس الكهنة آمون في ذلك بجلسة سرية لا يحضرها سواه . وكان يتلى الحكم على الحضور بسوت مرتفع بواسطة موظفين مخصصين لذلك . وكانت تختلف العقوبات التي يوقعها آمون في المسائل الجنائية من الاعدام الى السجن والى فقدان الاعتبار ، وكان يترتب على هذه العقوبة الاخيرة الحرمان من الوظائف العامة .

وكان يفصل آمون في الدعاوى المدنية ايضا ، فيقدم المدعي مذكرة بدعواه ويقدم المدعى عليه مذكرة بالرد ثم توضع المذكرتان أمام آمون فيمسك بواحدة منهما وبذا يكون الحكم لصالح صاحبها كما كان يتدخل في المنازعات الادارية . على أن تدخل آمون بنفسه كان قاصراً على الدعاوى والمسائل الخاصة بالأسرة المالكة وكبار رجال الدولة ، وبذا كان للهيول السياسية دخلاً كبيراً في أحكامه ، أما القضايا الجنائية والمدنية الخاصة ببقية الافراد فكانت تترك للآله المحلي في كل إقليم ، باعتباره تابعاً لا آمون وتحت إشرافه .

وكان لابد لتنفيذ أحكام آمون من إعطائها صبغة رسمية في مجلس الدولة المكوّن من حملة لقب « صديق آمون » ، فيجتمع المجلس حول تمثال آمون في يوم عيد له ، ويقرر رئيس الكهنة أنه قدم وثيقتي الاتهام والدفاع للآله فقبض بيده على الثانية مثلاً ومن ثم تبرئ ساحة المتهم فييدي آمون حينئذ إشارة بالموافقة على ذلك .

وقد ضعف بعد ذلك تدخل آمون في المسائل القضائية وأصبح الرجوع اليه شكلياً بحثاً

في عهد الاسرتين اللويتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين . غير ان استيلاء الاتيويين على مصر، وانهاهم لا مـون، أعاد له سلطته القضائية من سنة ٧٢١ الى سنة ٧١٨ قبل الميلاد. فلما تولى بوخوريس الملك أزال التدخل الديني وأعطى للقضاء صبغة مدنية ، فحلّ مجلس الملك الخاص مكان آمون ، اذ تولى الفصل في القضايا الهامة . غير أن رجوع الاتيويين مرة أخرى من سنة ٧١٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد أعاد لآمون سلطته القضائية السابقة ، لكنها ضعفت بعد ذلك حتى أتى أمازيس ففضى عليها نهائياً معيداً للقضاء صبغته المدنية التي كانت له في عهد بوخوريس ﴿ القضاء البطلمي ﴾ : كان القضاء المدني والجنائي في عهد البطالسة على نوعين : محاكم للمصريين وأخرى للأغريق . وكان نظام كل من النوعين مخالفاً للآخر . فكانت الاجراءات امام المحاكم المصرية شكلية معقدة ، كما كانت تطبق هذه المحاكم نص القانون دون توسع في تفسيره أو بعبارة أخرى كانت تتبع شكل القانون الضيق *Forme de droit strict* ، فتطلب المحكمة من كل شخص يتقدم أمامها اثبات نسبه كما تطلب من مدعي ملكية عين ما تقديم كل الوثائق الخاصة بها والتي تثبت ملكيته لها وكذا ملكية كل الملاك السابقين عليه بما في ذلك عقود التصرفات التي تمت بشأن العين ، فان كانت المستندات المقدمة غير كافية مزقت علانية بالجلسة قبل الحكم برفض الدعوى . كما كان لا يسبح بحضور وكلاء او محامين امام المحكمة المصرية ، بل لابد من تولى طرفي النزاع امرهم بأنفسهم فيقدمون مذكراتهم للمحكمة ، غير ان عدم إلمام المتقاضين بالقانون دفع بهم للاستعانة برجال القانون في تحرير مذكراتهم وبذا ظهر وكلاء الاعمال القانونيين *Ret* لتولي أمر المذكرات الكتابية . وذلك بعكس المحاكم الاغريقية التي كانت لا تقيد باجراءات وقواعد شكلية (أي تتبع *La Forme Pretorienne*) فيها خلا المراسيم الملكية والقوانين السياسية النظامية الخاصة بنظام الدولة ، بل تقضي طبقاً لقواعد العدل والانصاف *Ex aequo et bono* كما كان يتولى المرافعة أمامها الوكلاء او المحامون

وكانت المحاكم المدنية المصرية الاقليمية مشككة في عهد البطالسة من قضاة دينيين أي كهنة . وكانت المحكمة المدنية العليا بعاصمة الدولة مشككة من الكهنة بالنظام الآتي ، وقد وجدت بهذا الشكل منذ اواخر العهد الفرعوني : يختار كل من معابد منف وهايو وبوليس وطيبة عشرة من كهنته المتضامين في الشؤون القانونية لتولي القضاء بالمحكمة العليا ، ومتى التأم جمع الثلاثين قاضياً انتخبوا من بينهم رئيساً للمحكمة « *Archidienste* » ، وكان على المعبد الذي ينتخب الرئيس من قضائه ان يبعث للمحكمة بقاض آخر مكانه حتى يكون عدد القضاة بما فيهم الرئيس واحداً وثلاثين . وكان يضع رئيس المحكمة في عنقه عند رياسته للجلسة قلادة ذهبية بطرفها حجر كريم على شكل تمثال لالهة العدالة « ما » ، كما توضع على منصة القضاء ثمانية مجلدات ضخمة بها كل

القوانين ، وكان يستخدم ذلك التمثال الصغير عند المداولة اذ يقدمه الرئيس لكل عضو على التوالي فيدلي برأيه ، ثم ينطلق بعد ذلك بالحكم . وكان يتناول القضاة مرتبات من الخزانة الملكية مع اعطاء الرئيس مرتباً كبيراً . وكانت المرافعات أمام الحاكم المدنية كتابية ، فيقدم المدعي عريضة دعواه مرفقاً بها كل السندات وترسل المدعى عليه الذي يرد عليها بمذكرة مكتوبة ، وللمدعي أن يرد على هذه المذكرة بالكتابة ايضاً فيقدم المدعى عليه مذكرة ثانية بالرد عليها ، ويكون الرد الاخير دائماً للمدعى عليه . وكانت تتبادل هذه المذكرات بين طرفي النزاع قبل الجلسة ، ويقدمونها بأنفسهم للمحكمة التي تبحث في الوقائع وفي التطبيق القانوني على ضوءها . اما الحاكم الجنائية فاستمرت كما كانت في العهد الفرعوني ورأسها حاكم الاقليم او محافظ المدينة الاغريقي . وكان تقديم عرائض الاستئناف ، او لمجلسه الخاص ، حقاً ثابتاً للجميع في المسائل الجنائية ، اما في المسائل المدنية فكان الحق قاصراً على الاشراف من رجال الدين او الجيش

وكانت للاغريق محاكم خاصة بالمدن الاغريقية كنقراطيس والاسكندرية اذ كانت تتمتع هذه المدن الممتازة بمركز خاص يفوق مركز المدن المصرية ، فقد كانت لها محاكمها الخاصة وقوانينها الاغريقية البحتة نظراً لعدم اختلاط الاغريق بالمصريين وتحريم الزواج المختلط بين الفريقين وقد تولى الحاكم او المحافظ الاغريقي للاقليم او المدينة الفصل في الدعاوى المدنية بين الاغريق ، وكان يرفع اليه المصري دعواه المدنية على الاغريقي

واحتوى القانون الجنائي المصري في ذلك العهد على عقوبات أهمها . (١) الاعدام ، لمن قتل آخر سواء أكان المجني عليه حراً أم عبداً ، ولمن لم ينج شخصاً قتله آخرون أمامه ، ولمن حاف يميناً كاذبة ، ولكل مصري لا يبين للجهات القضائية موارد معيشته ، اما من يقتل أحد والديه فتقطع اصابه ثم يحرق حيئاً ، وكان لا ينفذ حكم الاعدام في المرأة الحامل الا بعد الوضع . (٢) قطع اللسان ، لكل من أفشى سراً للعدو . (٣) قطع اليدين ، لمن زيف العملة أو غش في المفايس أو الموازين أو ارتكب زوراً في محررات رسمية أو عرقية . (٤) فقدان الاعتبار ، للجنود الممارين أو العاصين ، فان قاموا بعد ذلك بعمل مجيد في ميدان القتال رد إليهم اعتبارهم . (٥) الخصي ، لمن واقع انثى بغير رضاها . (٦) جلع الاثف ، للزوجة الزانية ، اما الزاني فيحكم عليه بالاثف ضربة عصا . (٧) الصيام ثلاثة أيام مع التأديب بالعصي ، لمن كانت به عاهة تمنعه من انقاذ شخص قتله آخرون أمامه ولم يبلغ الجهات المختصة عن الجريمة ومركبها . (٨) الحكم على الوالدين اللذين قتلوا ابناً لها باحتضان جثته مدة ثلاثة أيام وليال متتالية . (٩) الحكم على كل من قدم بلاغاً كاذباً بنفس العقوبة التي كانت تطبق على المتهمين لو صح التبليغ

وقد وجدت في العهد البطلمي بجانب الحاكم السالفة الذكر محاكم مستقلة مكونة من نائب الملك

أو النائب العام ووكلائه في الاقاليم . فكانت تتجول هذه المحاكم في الاقاليم وترفع اليها بعض الدعاوى التي من اختصاص المحاكم الاقليمية بعد نزعها منها ، كما تنظر في الدعاوى التي يجيئها الملك . وكانت تفصل المحكمة المتفلة في الدعوى بعد الاطلاع على الوثائق ، دون حضور محامين امامها ، وتستأنف أحكامها لمجلس الملك الخاص

وطبق البطالسة في مصر نظام قاضي الاسواق بأئينا بعد تعديل في التسمية والاختصاص فسمي « بقاضي الصلح » ، وجعل من اختصاصه القيام بالتوفيق بين الطرفين حملاً للنزاع ، كما كانت تتم امامه بعض العقود كالبيع او القرض وبذا قام بمهمة موثق العقود

وقد وجدت منذ اواخر العهد الفرعوني نحاكم دينية لتحرير العبيد ، استمرت في عهد البطالسة ، فكان اذا ظلم سيد عبده التجأ المظلوم لمعبوده واحتجى بمثال الآله ، فيفحص الكهنة شكواه . وتى اتضحت صحتها قضوا بجعله ، اسمياً ، عبداً للآله ، وكان هذا اجراء شكلياً لتحريره من رتبة الاسرقاق . وكان المصريين الاحرار الذين يظلمهم الحكام ، او جهة الادارة بصفة عامة ، الالتجاء لاحد الآلهة بهذا الشكل فيحسم القضاء الديني . واستقر هذا الامر في عهد البطالسة

واستمر النظام القضائي المصري مدة قرنين ونصف من الزمان بعد الفتح الروماني مع تحوير فيه اذ خربت هليوبوليس وتحولت طيبة الى قرية صغيرة ، فلم تبقى قائمة سوى مدينة منف ومعبدها لذا جاءت مقر القضاء العالي وأعطى اختصاص المحكمة العليا السابقة لرئيس كهنتها وحده في المسائل ذات الصبغة القانونية المصرية البحتة وكانت تعتبر أحكام السكاهن الأعظم سابقة قضائية تأخذ بها المحاكم الاخرى ، وكان يليه في الترتيب القضائي كهنة الاقاليم ، اذ حلوا مكان المحاكم المدنية الاقليمية السابقة . وزالت المحاكم الاغريقية القديمة ، وحلت مكانها محاكم اغريقية رومانية يترافع امامها المحامون ، كالمحكمة العليا بالاسكندرية المشكلة من نواب المدينة الخمسة او قضاتها « Juridicus » وكان اختصاص هذه المحكمة قاصراً على التطبيق القانوني دون غيره ، مع ترك الفصل في الوقائع لقاض آخر « Judex »

مقدمة

كان للقانون المصري القديم أثرٌ يَشْن في النظم القانونية لدى شعوب البحر الابيض المتوسط فأخذ عنه الاغريق الشيء الكثير اذ حضر الى مصر ، عام ٥٥٩ قبل الميلاد ، سولون المشرع الاغريقي فلما عاد الى بلاده أدخل في تشريعه ما اقتبسه من مجموعة قوانين بوخوريوس . وقد ألقت الرومان للتشريع المصري منذ أشاد هيرودوت في الالاب الاولمبية بمجموعة قوانين أمازيس فاقبسوا الكثير من نصوصها في قوانين الاثنتي عشرة لوحة « Lex Duodecim Tabularum »

(٤٥٤ - ٤٤٩ قبل الميلاد) اذ ارسل اشراف الرومان في سنة ٤٥٤ قبل الميلاد وفدًا من ثلاثة اعضاء الى اليونان لاجتياز نسخة من قوانين سولون والتشريعات الاغريقية اللاحقة فعاد في سنة ٤٥٢ وتكونت على اثر ذلك اللجنة التي حررت قوانين الاثنتي عشرة لوحة . وبذا أخذ القانون الروماني مبادئ كثيرة عن القوانين المصرية في مختلف المصور معطياً ايها صبغة رومانية ونخص بالذكر نظام تحرير العبيد وطريقة الاشهاد بالميزان التي نقلها الرومان في تشريع الاثنتي عشرة لوحة وعرفت لديهم باسم « Mancipatio per aes et libram »

فالقانون المصري القديم هو اول التشريعات الوضعية كما كان المصريون اول من جمع القوانين Codification واذا كان القانون الروماني قد طمى على القانون المصري بعد أن استند منه مبادئ كثيرة وأصبح يرجع اليه وحده كأساس لكثير من المجموعات القانونية ومن بينها القوانين الفرنسية والمجموعات المصرية المختاطة والأهلية التي وضعت بالرجوع للمجموعات الفرنسية فليس ذلك بمنقص شيئاً من قدر التراث القانوني المصري . فالنظام القانوني القضائي المصري القديم مشابه في اوجه كثيرة للنظم الحديثة ، إذ فكرة العدالة واحدة في كل زمان ومكان وإن اختلفت الطرق والوسائل التي يتذرع بها لتحقيقها . فاذا كانت النظم القديمة قد زالت وحلت مكانها الآن نظم اخرى ، فليس معنى ذلك قطع كل علاقة بالماضي لان الروابط قائمة والنظم متتابعة وكما يقول فوستيل دي كولانج : « لا يموت الماضي دائماً ابداً في الفكر الانساني ، فقد ينسأه الانسان ، ولكنه يحتفظ به في قرارة نفسه لانه خلاصة الجهود السابقة فلو تعمق الشخص بالبحث في داخلية نفسه لا يمكنه ان يجد ويميز هذه المصور المختلفة تبعاً لما تركته فيه من آثار وتقاليد »

١ - القانون المدولى

عند قدماء المصريين

٢ - الاقتصاد السياسى

عند قدماء المصريين



بقلم

مورجى نجيب الراهب

بمتحف فؤاد الاول الزراعى

١ — القانون الدولي عند قدماء المصريين

إذا اردنا الكلام عن القانون الدولي عند قدماء المصريين فالتاثير ان نبين النظم التي كانت متبعة في العلاقات بين مصر القديمة والبلاد الاخرى في ذلك الحين . فقد كانت التجارة في الماضي كما هي الآن اكبر باعث على ربط العلاقات بين مصر والبلاد المجاورة . وتتبع المصريون أثر الفينيقيين في التجارة وأخذوا منها قسطاً وافراً وإن لم يصلوا الى درجتهم فيها

فقد كانت الصادرات تحتوي على بعض المحصولات والاقشة والثفائس والجواهر والزجاج والفخار والواردات الحام بمختلف الانواع من البلدان الغير المتمدية في آسيا وافريقيا

وكان طريق التجارة الداخلية نهر النيل وكذا الترع . اما التجارة الخارجية فكانت تنقل بمعرفة الفينيقيين أو عن طريق البر . ولهذا كانت تهتم الحكومة باستبدال المحصولات المصرية بمواد نافعة من البلدان الأجنبية

وأنشئت لذلك اسواق يرسل اليها المرء محمولاته فيستبدل بها مواداً اخرى . وكانت فكرة المصلحة العامة هي الدافع الوحيد في السماح للاجانب بدخول هذه الاسواق رغماً عن منهم من الاقتراب من النيل في أي حال . وكان محظوراً على الزوج ارتياد الحدود . وكان لا يسمح المصريين بالذهاب الى الخارج . وثابت في ورقة من البردي موجودة ببرلين أن « سانهة » أحد ندماء « امنسحت » أراد الهرب من مصر فلم يتيسر له أن يخطي الحدود الا بشق النفس

أما فيما يخص بالاسواق التي كانت مفتوحة للاجانب فيمكننا أن نستنتج ذلك من تاريخ يوسف واخوته واية أيام الهكسوس . فان تجاراً أجانب باعوا يوسف في مصر . ثم بعد أن عين هذا الأخير وزيراً لفرعون استقبل أخوته الذين أتوا أيام القحط لشراء القلال

وكان المديرون في تلك الايام مكلفين باستحضار ما يلزم للاهالي من الغذاء . وقد أطلقت يد في الاتفاع بتجارة المصنوعات حتى انهم كانوا يستخدمون لهذه التجارة الدولية مراكب عديدة للاجانب غالباً . وفي أيام رمسيس الثاني كوّن تجار عديدون شركات كبيرة . لذلك تكونت بالتدريج بجانب طبقة الاشراف طبقة اخرى مالية كان اغلب اعضائها من الاجانب

وكان المصريون يحرّمون الربا طبقاً لمبادئهم الدينية . وقد استفاد الاجانب من هذا فاستقلوا باسغال المصارف وكانت الحكومة لاحتياجها الى الاموال تقوم بالمشروعات النافعة تضطر الى الاقتراض من اولئك المراهين والسعي لارضائهم حتى اصبحوا في حالة ممتازة

ومنذ ايام رمسيس من العائلة العشرين كان القانون التجاري اجنياً عمل بمعرفة الاجانب مخالفاً في ذلك روح القوانين الاهلية

ولم يقطن اولئك التجار الا جانب بطية بل كان البعض يسكن « بالقيّة » والبعض الآخر — وهو الاكثر عدداً — بالفيوم على انه كان لهم عملاء في كل جهة للقيام بالاعمال وتبين لنا المحررات التي اكتشفت في « تل العمارنة » سنة ١٨٨٧ العلاقات التي كانت موجودة بين ملوك مصر وملوك آسيا الصغرى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد رى فيها حوادث ذات شأن عظيم . إذ كان ملوك آسيا يذكرون ملوك مصر ما كان من العلاقات الحية بين الآباء والاجداد . ويعرضون عليهم أن تكون بين بعضهم البعض صلة نسب ومعااهدات تجارية ومن جهة اخرى رى حكام الولايات التي فتحت يؤدون يمين الاخلاص والطاعة طالين من ملوك مصر المعونة والحماية ، ورى ايضاً أن خطابات « تل العمارنة » تحدد وظيفة المندوبين المنوط بهم ربط العلاقات الودية . فان هؤلاء المندوبين كانوا ينتقلون من بلدة الى اخرى كوسطاء او كحماة ، واحياناً كفضاء يسعون لجعل سلطة فرعون موضعاً للاحترام حتى في البلاد النائية ومن بين المعاهدات المحفوظة معاهدة رمسيس الثاني مع ملك « الخطاس » . وهذه المعاهدة الشهيرة تمت بعد الحروب العديدة التي أكبرت قدر « سيزوستريس » العظيم وقد كتبت في بلدة « خطاس » بعد المحاربات الدينية والسياسية وأحضرها لمصر مندوبو المملكتين الذين وضعوها لعرضها على « سيزوستريس » وكان موجوداً وقتئذٍ في « باراس » البلدة التي عزم على تشييدها بالقرب من الحدود المصرية من جهة شبه جزيرة سيناء . وهناك استقبل مندوبي ملك « الخطاس » وهما « ترناسيبو » و« راميس » اللذين حضرا مع مندوبه الخاص القائد « واتبا » . وقد تبادل الفريقان صورة هذه المحالفة موقعاً عليها من الطرفين . وذهب بعدها رمسيس الثاني الى « طيبة » ليقدم واجبات الشكر للآله « آمون » واصطحب معه المعتمد الاول لملك « الخطاس » واستأذن هذا المعتمد من رمسيس الثاني في العودة الى بلاده بعد أن أتم أموريته . ومن حسن الحظ أن حفظت صورة من هذه المحالفة . وقد وجدت كالمعتاد منقوشة على آثار « طيبة » و« أبي سمبل » وهي تحتوي على : —

- اولاً — فصل شامل لموضوع هذه المحالفة واسماء المتعاقدين وآبائهم
 - ثانياً — بيان للأسباب التي جرّت الى الحروب العديدة بين الملوك السابقين
 - ثالثاً — معاهدة سلمية تؤيد المعاهدات السابقة التي لم تكن لترمي الا الى السلم
 - رابعاً — طلب للآله في الشهود على هذه المحالفة
 - خامساً — قسم ديني بتقديم ذبيحة للآله لتساعد على اتباع ما جاء بهذه المحالفة
 - سادساً — جملة مواد تشمل الحالات الثلاث الآتية :
- (١) حالة حصول حرب بين احدى الدول المتعاقدة ودولة اخرى

(٢) حالة حصول سرقة بمعرفة أحد خدام أو اتباع المتعاقدين أو أي جريمة أخرى وهنا كان النفي واجباً قانونياً

(٣) حالة ذهاب شخص أو اثنين أو ثلاثة إلى أحد البلدين المتحالفين بدون علم ملكهم. وفي هذه الحالة يتعهد كل من المتعاقدين بإعادتهم إلى أوطانهم وتسليمهم إلى السلطة المحلية لأجراء شؤونها معهم

وهذه المحالفة من الأهمية بمكان عظيم . إذ أنها تبين لنا كل قواعد القانون الدولي العام والخاص في ذلك الحين

فالقانون الدولي العام لم يكن شاملاً فقط لتداخل الدولتين المتحالفتين حريصاً لصد غارات الدول الأخرى التي تهاجم أحدهما ، بل كان يشمل أيضاً الاتفاق على معاقبة الثائرين من أهالي أحد البلدين المتحالفين

وقد اشتملت هذه المحالفة أيضاً على مبدأ القانون الدولي الخاص إذ أن النفي كان محتملاً على كل خادم أو تابع لأحد الأمراء المتحالفين عندما يترك وطنه بسبب جنائي . ويذهب ليحتوي في إحدى البلاد المجاورة

لم تكن هذه المعاهدة اذن معاهدة تحالف وأخوة فقط . لأن ملك « الخطاس » قدم إلى رمسيس الثاني ابنته ليتزوج بها في الوقت الذي عمل فيه الصلح . بل كان الغرض الأساسي إعادة العلاقات التجارية والسياسية والاتفاق على الأعمال الحربية أيضاً

ولما عادت العلاقات التجارية وكثر السفر بين سكان البلدين المتحالفين ازداد عدد الأجانب فيها . فأصبح للتاجر والصانع الأجنبي صفة ممتازة خاصة فيه بالنسبة لوطنه الجديد وكان له ما لمعتدي الدول في الوقت الحاضر - أي أنه كان ينقل معه جزءاً من وطنه بعوائده وقوانينه وكانت حالته القضائية تشبه نوعاً حالة الأوربي بمصر تحت حكم الامتيازات الأجنبية

والمبدأ الأساسي الذي بنيت عليه هذه المعاهدة هو اعتبار ملوك مصر أن لهم حق الملكية المطلقة على رعاياهم وأتباعهم . هذا الحق الذي قرره فرعون وملك « الخطاس » وقد أخذ « منفتاح » ابن « رمسيس » الثاني بنصوص هذه المعاهدة في معاملة الاسرائيليين الفاطنين بمصر فان موسى النبي لما المعاملة العاسية التي عومل بها الاسرائيليون . وكيف أن « منفتاح » أراد أن يلحق بهم عند مغادرتهم الديار المصرية تنفيذاً لنصوص تلك المعاهدة التي وقع عليها أبوه والظاهر أن هذه المعاهدة لم تدم كثيراً أي أنه لم يبق معمولاً بها مدة طويلة لأنه قد قل نفوذ مصر في الخارج من الوقت الذي أصبحت فيه سيطرة الفراعنة على الممالك الأجنبية . متنازعة فيها . صحيح أن مصر حافظت على مركزها طويلاً نظراً لأهمية آلهتها وثورتها . إلا أن البعثات

المصرية كادت تصبح في خبر كان . فتغير سلوك مندوبيها كثيراً . وفقد المندوبون المصريون في القرن السادس عشر قبل المسيح كل ما كان لهم من الشأن . واصبح لا يخشاهم احد حتى انهم كانوا يسجنون في البلاد الاجنبية ويموتون بانسين

وقد حصل الاجانب من هذه الحالة الجديدة على امتيازات عديدة لان من وقت حروب الامبراطورية الجديدة صارت الافكار الوطنية أكثر انجهاً الى سكان آسيا الاصلين . وكان أكبر عمل سياسي أيام حكم « السيتين » القضاء على الافكار السائدة ضد الاجانب . فلم يقتصر الأمر على التساهل مع اليونانيين فقط . بل أصبحت معاملة الاجانب احسن حالاً من معاملة الوطنيين انفسهم

وقد منح « ايسامتيك » الثالث لليونانيين بعض الاراضي المجاورة للنهر . وعينهم ضمن حرسه الخاص . وأبقى كل من « نكر » الثاني و « ايزيس » هذه الامتيازات . واقتفى « امازيس » كذلك أثر سياسة سلفائه فزوج « بلارنكا » اليونانية وجذب كثيرين من مواطنيها لمصر . ووجههم أراضى عديدة شيدت عليها مدينة (نوكراتيس) اليونانية وكان اليونان أيام حكمه حاصلين على امتيازات تشبه الامتيازات الاجنبية اليوم . وانتهى النفوذ اليوناني بانقراض المدينة المصرية حتى لم يعد للمسائل الدولية في مصر أدنى شأن .

٢ - الاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين

كانت مصر في بدء تاريخها خاضعة لسلطة الفرد أي النظام حكومة ملكية . وكانت تنحصر موارد المعيشة في ذلك الوقت ، من الوجهة الاقتصادية ، في محاصيل الارض الطبيعية . وكانت عوامل الانتاج من جو وارض وعمل ، متحدة ومرتبطة ، لانماء موارد الرزق في ارض الفراغة . وكان وادي النيل اصلاً عبارة عن ارض يغير الفيضان في كل سنة حالتها ، من حيث علاقتها بالمحاصيل

وكانت عندهم قاعدة خاصة لمسح الاراضي ، يلزمون تطبيقها من جديد بعد هبوط الماء . ومن هنا ظهرت في مصر أهمية المساحة وفك الزمام . وعلا كعبهم على مرّ الأيام في هذا السبيل حتى أن يوليوس قيصر ، استوفد بعض المساحين من مصر ليقوموا بمساحة ارض الغال (فرنسا الآن) التي فتحها حينذاك . وكان لا بد لكل مشتغل في الارض من شريك له في العمل . وهذا الاشتراك لا يمكن تطبيقه على نقطة أو جزء معين ، بل على كل وادي النيل . ومن هنا نشأت الحاجة لادارة عامة ، أي السلطة التي تصدر تعليمات واحدة ، تطبق في كل جهة ومكان . وعليه صار تجنيد طائفة من العمال خاضعة لهيئة تشريعية تحيل الصالح العام المحل الأول من الاعتبار

وبالرغم من أن الزراعة في ذلك الزمن كانت هي روة البلاد، فإنها لم تكن النظام الطبيعي الوحيد المتعارف بينهم، بل كان للصناعة أهمية كبرى بازاء الزراعة. فالنظام كان نظاماً اشتراكياً للحكومة. ويدلنا التاريخ على أن حكومة الفراعنة الملكية، كانت عاملاً قوياً في رقي البلاد. ولم تكن الحكومة إلا نوعاً من جماعات متضامنة تحمي المصالح العامة من اعتداء الافراد فاهتمام الاهالي كان موجهاً بصفة خاصة الى الزراعة، وربما لم يكن هناك ما هو أكثر تقدماً منها. وكانت التجارة وقشور ضئيلة جداً، بخلاف ما كانت عليه عند الكلدانيين لأنه لم يكن للمصريين علم كبير بالتجارة. وكان الشعب المصري بطبيعته محباً للسكنة والهدوء. على العكس مما كان في المدن القديمة التي كانت مباءة للحروب المستمرة، هجومياً او دفاعاً. فمصر كانت كما هي الآن، بلاد الهدوء والعمل والنشاط. والفضل في ذلك راجع للري حيث كان من الممكن زراعة اشياء كثيرة مختلفة، حتى في الوجه القبلي. فثروة مصر وكنوز أرضها، كانت ثمرة اعمال اولئك الفراعنة الاقدمين. فكان الفراعنة اصحاب الارض وتعهد فلاحة الارض لرعاياهم. على أن اولئك المزارعين المجتهدين لم يكونوا تحت رحمة مطامع السيد بل كانت هناك قواعد نظامية والشريعة الدينية كالمدينة على السواء تحرم قطعياً أن يحمل الرجل فوق ما يتحمل وكان عمل الرجل مقررأ بقوانين ملكية

وكان النشاط عاملاً في طول البلاد وعرضها فكنت ترى في كل مكان فرقاً مؤلفة من خمسة أو عشرة مزارعين. وكان الرئيس في عمله كالعامل البسيط إلا أنه كان يعطى له عمل أقل منه نظير مراقبته وكانت الاعمال واحدة سواء في أرض الملك الخاصة أو في الارض الممنوحة للموظفين الحريين والدينيين. وكان يعمل عن الجميع حساب دقيق. فيقيد الفلاحون المشتغلون في فلاحة الارض كما تقيد الاراضي نفسها وما يستغل منها وكان للحسبة في كل الازمنة شأن خطير في الادارة وخصوصاً في الاقتصاد السياسي عند المصريين فعند القدماء كان الكتبة يقعدون الفرفشاء وأما الكتبة اليوم فيجلسون على مقاعد والكل يشتغلون على الدوام بذات النشاط وبذات الايدي. فاذا ادى الكتائب الامتحان وحصل على الشهادة صار مرشحاً لتولي أعلا المناصب فيمكن أن يصبح وزيراً أو والياً أو قائداً ولو انه ابتداءً عاملاً بسيطاً

وكانت الاراضي الزراعية تحت مراقبة الملك مباشرة ويقوم بفلاحتها جماعة من المزارعين يرأسهم ناظر. وكانت هذه الجماعات تقدم محصولات الارض للملك. وعلى هذا النظام كان يسير القائمون بالاشغال العمومية واصحاب الحرف والصنائع فينقسمون فرقاً فرقا عدد كل منها ٥ أو ١٠ رجال ويعطى لكل من العمال نصيبه من الغلة من مخازن الملك فكانت معاونة وتضامن الافراد ضرورية وخصوصاً في بلد كمصر حيث كان العمل الاشتراكي لازماً

وكان اول واجبات المصري الفلاحة وإقامة الجسور وحفر الترع والخلجان وغير ذلك وبلى ذلك واجباته نحو عائلته ومواطنيه أعني زملائه في العمل ثم واجبه نحو الجميع وكان يفتخر ملوك وحكام المملكة في الزمن القديم بأنهم نشروا ألوية العدل والاحسان وآسوا الفقراء والأرامل واليتام غير تاركين فرداً يئن تحت اثقال الحاجة والفاقة وبأنهم كانوا ذوي دماثة ورقة في الاخلاق . وكان الملك بينهم إلهاً منظوراً هو المدير لأُمور الزراعة والصناعة بطريقة لا تدع محلاً لسخرية رجال الاجتماع في العصر الحالي

ولما في حسن إدارة الوالي « أميني » من العائلة العاشرة مثال حسن . لما عين الملك الوالي رئيساً لأحدى العشار قال انه فلع الارض جهد استطاعته لكي تنتج محصولاً جيداً اغذاء الاهالي وكان في أيام القحط يعطي عند وفرة المحصول ويرسل الى الملك ما يأتي اليه ويترك العلاك ولرؤساء الفرق ما زاد من المحصول الذي استثمروه بمعاونة عمالهم

وقد آلت الأراضي الزراعية في عهد الامنوفسيين الديمقراطي الاصل الى ملكية الانتفاع وصارت في عهد الرعامسة شبه ملكية . أما أراضي الملك الخاصة فقد بقيت على حالها بدون أدنى تغيير لنفوذ السلطة الملكية . على ان ما أعطاه الملوك لأقاربهم وما منحه الملوك الفاتحون لولايتهم وما جادوا به ايضاً على أولادهم المستحقين من الأراضي المعفاة من الخراج — كل هذا كان سبباً للخروج عن القاعدة المألوفة وآل الى نزاع الملكية تدريجياً من يد الملوك . وهذه الاحوال الاستثنائية الجديدة سهلت الاصلاح على عهد رمسيس الثاني وأدت الى ملكية الافراد وازداد ذلك تدريجياً الى ان أفضى الى الاصلاح الذي اجراه بوخوريس وأمازيس في هذا الشأن

وبأزاء مسألة الملكية تعرض مسألة الوراثة بواسطة العشار فانه لم يحصل تغيير في عوائد البلاد من حيث حالتها الاجتماعية فالابن كان يجب عليه أن يكون كما كان ابوه ولا يمارس إلا ما كان يصنع هذا الأب ولذلك نرى انه قد حافظ أبناء في عائلات كثيرة بطيبة وممفيس على عهد اجدادهم في الصفات مدة أجيال عديدة . وقد بين هيرودوت وسقراط وافلاطون واسترابون وديودور عدد تلك الطوائف المصرية وأقدم هذه الطبقات طائفة الكهنة وعلى مثالها ظهرت فيما بعد الطبقة العسكرية وانتظم حال هذه الطبقات في زمن الرعامسة واختص رجال الدين شيئاً فشيئاً بأسرار العلوم . وقبضوا على زمامها بأيديهم وأبوا ان يلقوا بمفاتيحها لمن ليس من طبقهم وحفظوها لابنائهم من بعدهم وكان رؤساء هياكل ممفيس وسائس يقومون بتأدية الوظائف المختلفة للملك فكان للكهنة اعظم شأن بين الناس بعد الملوك اجراء العدل فكان معبوداً لهم فقويت بذلك شوكتهم لدرجة أمكن بها لقسوس طيبة وآمون خلع الرعامسة وأنسوا بأنفسهم بعدها العائلة الحادية والعشرين

أثبت التاريخ أن رمسيس الثاني هو أول من أسس نظام العسكرية ووضع له خطة مخصوصة يسير بموجبها وقد أفرد لطائفة العسكرية قسماً كبيراً من الأراضي المصرية لتوزع على أفراد هذه الطبقة ويكون لهم حق الانتفاع بها ولم يفعل سيزوستريس ذلك إلا مكافأة للعساكر لقيامهم بواجب الدفاع وحماية الوطن من الغارات الشعواء من جيرانه كما أثبت ذلك شاعر رمسيس الثاني في قصائده التي وجدت في جداول وقد وهب هذا الملك للعساكر جانباً كبيراً من أملاكه وأراضيه الخصوبة التي آلت إليه من طريق الإيثار. ووجدت من الآثار أوراق تثبت أن وظائف القيادة العسكرية كان يتوارثها الابن عن أبيه وكان يمكن لأحقر جندي أن يصير ضابطاً أو رئيساً كبيراً في الدرجات العسكرية إذا أظهر كفاءة أو مقدرة في حمل السلاح والقيام بالمهام الحربية. وكان باقي الأهالي في عهد رمسيس الثاني لا يملكون في الحقيقة إلا المواشي وأما الأراضي فكلها كانت ملكاً للملك ولهم حق فلاحتهم والانتفاع بفلاتها وثمراتها فقط. ولكن في عهد بوخوريس تغير هذا النظام حيث وزع هذا الملك الأراضي على الأهالي وجعل لها حدوداً معينة ونظاماً مخصوصاً ومن هذا الحين عرف المصريون حق الملكية بعد أن كانوا لا يعرفون غير حق زرع الأرض فقط.

وقد ترتب على تحويل حقوق الملكية والانتفاع لبعض الطوائف المصرية مثل العساكر والكهنة تقييد باقي الطبقات الأخرى من الأهالي وحصر الانتفاع في تلك الطبقات الممتازة ﴿ نظام الوراثة عند قدماء المصريين ﴾ إن انتقال حقوق امتلاك الأراضي والمواشي والمحاصيل من ذرية إلى ذرية بلا انقطاع كان من شأنه أن يزيد في الخصوبة والنماء. هذا هو السبب الحقيقي في تقوية تلك الطوائف المصرية التي تملك الأراضي فإن حصر الوراثة في ذريتها كان على الدوام سبباً لخصوبة الأرض وتكاثر محصولاتها وزيادة عدد المواشي وحسن تربيتها وقد يخطئ الذين يظنون أن السبب الوحيد في تقوية هذه الطوائف هو لأغراض سياسية أي حصر حق الملك وحوزة الأراضي في أيدي فئة من الناس استأثروا بكل مرافق الحياة وخيرات الأرض وعلى كل حال فإن تقسيم الشعب المصري إلى طوائف مختلفة ترتب عليه تقسيم الأراضي التي كان يملكها الملك ذاتها والكهنة والعساكر وبهذه الطريقة تحولت الأملاك الذاتية إلى شبه الزامات متجددة.

وفي حكم العائلة الثانية عشر سلمت بعض الممتلكات الخاصة بالملك وبالكهنة إلى بعض الإخصاء للانتفاع بها واستغلال ريعها ولا شك في أن هذه الأملاك نفسها هي التي جرد منها فرعون موسى الرعاة كما جاء في التوراة. — وبعد طرد هؤلاء الرعاة ابتداء تقسيم الأراضي على الصورة التي مر ذكرها ومن المرجح أن فرعون مصر هو رمسيس الثاني أو سيزوستريس

وهذا الملك هو الذي يعزى إليه تقسيم الاراضي المصرية وتوزيعها على طوائف مختلفة ووضع ضرائب مخصوصة لها

ومع ان البلاد كانت منقسمة في ذلك العهد الى قبائل وطوائف فان روح التعاون وتبادل المنفعة كان سائداً بين هذه الطوائف والقبائل حتى يحيل للناظر الى حالتها العمومية أنها أفراد عائلة واحدة

وفي عهد العائلة الحادية والعشرين الدينية والعائلة الاثيوبية التي أعقبها كان الملك الحقيقي والآله في مصر (آمون) الذي كان قابضاً على السلطين الدينية والمدنية معاً ، وفي ذلك العهد أخذت تتقلص المبادئ الاقتصادية التي وضعها ملوك مصر في عهد رمسيس وكذلك سقط مبدأ فصل السلطات المختلفة عن بعضها . واختلطت اموال الملك بأموال الكهنة وأصبح رجال العسكرية بمثابة خدم ومتفذين لأوامر الكهنة ، وأما طائفة الاشراف فأخذت في الزوال والاضمحلال

وفي ذلك العهد صار رب كل عائلة هو صاحب النفوذ الاعلى والمرجع الاخير هو بالاشتراك مع زوجته الشرعية يستخدم من شاء في فلاحه ارضه واستغلال خيراتها
وفي عهد آمون الآله والملك في العائلة الحادية والعشرين والعائلة الاثيوبية كان له اخضاء واصدقاء في منزلة اشراف المملكة هم بمثابة حاشية خصوصية له

وأما باقي المزارعين والعمال وغيرهم من طبقات الشعب فلم يكونوا وقتئذٍ الأخداماً للآله . وكانت توزع عليهم سنوياً الاراضي للاستغلال فيها . وكان الوسيط بين هؤلاء الفلاحين وبين الملك هم هؤلاء الاخضاء والاصحاب . وقد وجد هذا النظام في عهد آمازيس ايضاً وهذا الحاكم كان يمثل صورة رب العائلة في طبقات عامة . وقد ترك هذا النظام الخاص بطبقتي الاشراف والعامة اثرأ ظاهراً محسوساً في أخلاق الامة

وبالجملة فان شكل تقسيم الامة الى طوائف وقبائل مختلفة الطبقات في وادي النيل ابتداءً في عهد ابو خوريس ، ثم في عهد آمازيس ، الذي في وقته انشأ نظام الطوائف والقبائل ووضعت القوانين لحماية العمال من اضرار مبادئ الاستقراطية (سطوة الاشراف)

وقد وضع آمازيس في قوانينه كل ما يهيئ في النظم الخاصة بالاقتصاد السياسي وبين هذه القوانين الاقتصادية السياسية وضعت قوانين خاصة بالعمل وقد استعان الملك آمازيس في عهده بجمعية وطنية للنظر فيما يلزم إدخاله من الاصلاحات العمومية في البلاد . وهذا ما ساعد على حفظ مركزه أمام رجال الدين وأصحاب المبادئ الارستقراطية

ومن مآثر هذا الملك ايضاً أنه وضع نظاماً آخر لتوسيع دائرة الحرية الشخصية ، وبيان

ذلك انه كان يوجد قبل عهده في كل هيكل من الهياكل المصرية سجل خاص تذكر فيه احصائيات دقيقة عن عدد الاهالي في كل قسم والاراضي التي يمتلكونها

وكان في كل قسم هيكل خاص كان الهمة هو سيد هذا القسم وحاكمه فرأى أمازيس ان يلغي هذا السجل ويجعل الاقسام كلها موحدة وتابعة لسلطته العليا . ولكن سجلات الهياكل بقيت طول مدة حكم العائلات الاثيوبية موجودة الى جانب السجلات الملكية التي انشاها ذلك الملك

﴿ طريقة التعامل والبيع والشراء ﴾ كان المصريون القدماء يتعاملون في أسواقهم بطريق التبادل بالاشياء مع جمل القمح الاساس في المعاملة لانه من أهم الحاجيات وأما المعادن ذات القيمة فكانت تحفظ لذوي السلطة والمقام

وقد أخذ المشرعون الاحتياطات اللازمة لجعلوا النقود من مظاهر الابهة والمظمة في أيدي الكبراء . وفي اول عهد المصريين القدماء لم تكن النقود معروفة بالمرّة وبقيت طريقة التبادل بالاشياء ذات القيمة جارية ومستعملة عندهم مدة طويلة وعلى ذلك كانت مبادئ الاقتصاد السياسي في عهدهم غير مؤسسة على مبدأ المعاملة بالنقود باعتبار انها مقياس لقيمة الاشياء والمبنيّة على قاعدة الاخذ والعطاء بل كانت مبنية على مبدأ الواجب والاحسان

ومن جملة المبادئ الاقتصادية التي تقررت في ذلك الوقت انه لا يجوز تميم الاراضي وبيعها بالنقود وعليه لم تستعمل النقود في المعاملات إلا في عهد أمازيس ومن ثم صارت العقود كتابية وبالنقود

على ان كل هذه النظم والقوانين الجديدة لم تغير شيئاً من نظام الاقتصاد السياسي الذي كان معروفاً منذ القدم في هذه البلاد بل ان مصر بقيت مدة طويلة تتخذ القمح اساساً لمعاملاتها الاقتصادية حتى انه بعد استعمال النقود بقي القمح حافظاً قيمته باعتباره من أهم الاشياء المستعملة في التعامل والتبادل وبقي في مصر القديمة خزينتان احدهما خزينة النقود والاخرى خزينة الغلال وهي المخازن الملكية

ويظهر ان التقاليد والمبادئ الاقتصادية التي كان يعمل عليها المصريون القدماء هي التي جعلها الرومان واليونان فيما بعد أساساً لمعاملاتهم وخصوصاً في عهد الملك قسطنطين . وقد وجدت في آثار البطالسة كتابات كثيرة ذكرت فيها كيفية تقسيم الارض في ذلك الزمن القديم . ووجدت مثل هذه الآثار في رشيد

وقد اقتبس الرومانيون من مشايعة أمازيس كل ما يتعلق بسلطة اصحاب الاموال وأسياد القبائل والعائلات وتحييدها وما يتعلق بتوسيع دائرة الحرية الشخصية بعد ان كانوا قد تركوا هذه النظم وصارت منسية

ان آثار هذه المبادئ الاقتصادية بقيت معمولاً بها في مصر الى نحو القرن الثامن عشر وخصوصاً فيما يتعلق بامتلاكات الملك الحاكم حيث كانت الارض توزع سنوياً وكان نظام المحاسبية والمحتسب والملتزم عندهم من بقايا ذلك النظام المصري القديم والاراضي التي كانت توزع على الفلاحين سنوياً يقومون هم بفلاحتها وزراعتها ويدفعون الخراج عنها وكذلك في الوجه البحري وإلى ذلك العهد اتبع النظام نفسه الذي كان معمولاً به في عهد الملك « امازيس » وهذا مما يدل على ان علم الاقتصاد السياسي كان في ابان تقدمه في ذلك العصر القديم وهو كغيره من الفنون والعلوم المصرية القديمة بلغ اوج التقدم والنجاح ومنه اقتبست الامم والشعوب المتأخرة ما مهد لها السبيل في جعل هذا العلم من العلوم العصرية المستقبلية وقد وضعت في هذه الايام المؤلفات الكبيرة والمجلدات الضخمة في شرح مبادئ هذا العلم والفضل في ذلك كله لاجدادنا المصريين القدماء كما يشهد التاريخ



نرات مصر الفنى والمعمارى

لفرنسواز محرم كمال

الامين المساعد بدار الآثار المصرية

ان اللذة المتصلة بدراسة الفن المصري القديم آتية عن طريق توغله في القدم . ولا عجب فانا نرى فيه المحاولات الاولى لتمثيل ما بلغ فيها بعد ، وفي بعض البلاد الاخرى ، درجة عظيمة من الكمال والاتقان . ويمكننا أن نرى فيه النواة الاولى لشيء كثير ، درج به قوم ، يقدرون الشعور ويشعرون بالجمال ، في طريق التمدن والتحسين . فصر ، منذ العصور الاولى ، قد تركت أثراً ظاهراً من حيث فنّي الزخرفة والعمارة وغيرها في الاقوام الآخرين الذين كانوا على درجة من الرقي أقل من درجتهم ، او الذين بدأوا ينفضون عنهم غبار البربرية والتوحش . وأن النقوش المتعارفة من أزهار اللوتس ورسوم أبي الهول وغير ذلك من الحيوانات الخرافية التي كانت ترسم على الحزف الاغريقي وعلى الجدران ، شأنها في ذلك شأن الفهود وغيرها من الطيور والحيوانات التي كانت ترسم على الاواني وغيرها من الادوات ، يظهر ان لها صلة بالخيال المصري القديم ، أو بعبارة أوضح وأصح أنها مأخوذة عنه ومستعارة منه .

لقد كانت عادة الناس ، كما هي الآن ، أن يستعبروا فنونهم وصناعاتهم من غيرهم ممن وصلوا الى درجة من الرقي والحضارة تفوق درجتهم ، وعلى ذلك فقد كانت الامة المتفوقة على غيرها في الفن هي التي تقود باقي الامة . وعلى الرغم من أن بعض هذه الامة قد أدخل تغييراً على ما استعاره من فن من الخارج لكي يكسبه طابعاً خاصاً به إلا أن الفكرة الاصلية لم تكن دائماً ان نتبعها وأن نتعرفها وأن نرجعها الى المصدر الذي أخذت عنه .

ولقد استمرت مصر مدة كبيرة الامة السائدة غيرها . ولقد ادى اختلاطها بغيرها من الامة ، سواء أكان ذلك الاختلاط للتجارة أو في الحرب ، إلى أن انتشر الذوق المصري ، ذوق اعظم امة متمدينة في ذلك العهد في بلاد عديدة ، فها هو رخام ومرمر نينوى الذي يرجع عهده الى عصر سنحاريب ينطبع عليه رسم الشمس ذات الحياحين وغير ذلك من الرموز المصرية المعروفة التي أسست عليها عناصر فن الزخرفة الاشوري .

وخلاصة القول أنه بينما كانت اليونان تفت في نومها كانت مصر تحمل علم الفنون ومصباح المعرفة تثير بقبسه البلاد المجاورة . بل بينما كانت اليونان في مهدها كان ذكر مصر ، من حيث عظمتها وبهاؤها ، ثروتها وقوتها ، قد طار فعم البلدان ، واعترف لها الجميع بالتفوق ، بل بمنصب الاستاذية في الحكمة والمدنية . فلا غرابة اذن ، والحالة هذه ، في أن أخذ الاغريق عنهم كثيراً من الاشكال المصرية . صحيح ان ذوق هؤلاء القوم المطبوعين الفني هو على درجة كبيرة من الجلال والروعة ، اولئك القوم — ونعني بهم الاغريق — الذين سرعان ما ارتقوا بالفن إلى درجة من الابداع لم يصل اليها مصري ولا غير مصري من قبل ، ولكن لمن الفضل في ذلك ؟

الفضل للمصري بلا نزاع . فاذا اردنا أن نتعرف نواة الفن والعمارة الاولى فيجب علينا أن نبحث عنها ، ونبحث عنها في وادي النيل

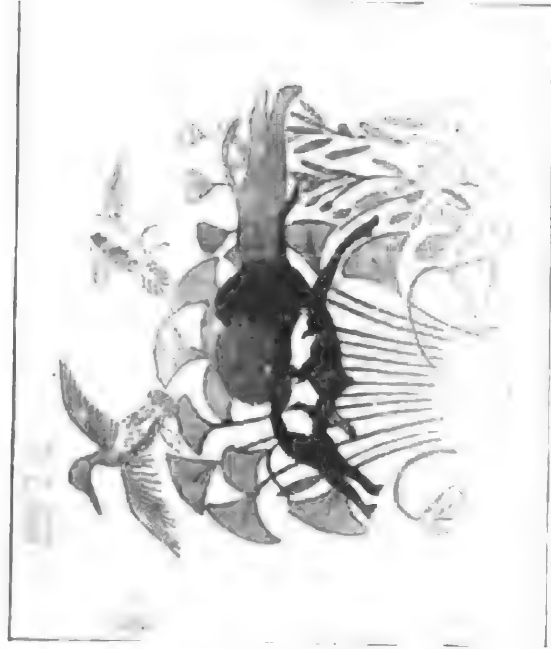
الآن وقد انتهينا من هذه المقدمة بجدر بنا ان ننقل الى ذكر اكتشاف غير وجه التاريخ وزاد في رخاء العالم وتقدمه ، اعني اكتشاف المصريين للنحاس وما ترتب على ذلك من صناعة الاسلحة والادوات التي لم يكن الفن ليرقى الا بواسطة استعمالها في مختلف شؤونهم ومظاهره .
لحوالي عام ٤٠٠٠ ق . م على اقل تقدير خرج مصري فضرب خيامه وأوقد ناراً فاذا بالنار تلهب ، واذا به يجدد في اليوم التالي مكانها معدناً يتوهج بانعكاس أشعة الشمس عن سطحه البراق .
أثار الامر عجبه وسروره فكرر العملية فاذا به يحصل على نفس المعدن وإذا به يصنع منه الحلى اولاً ثم يندرج فيصنع منه فصل مديته لكي تحل محل مديّة الظرآن التي كان يضعها في حزامه . وفي لحظة واحدة انتقل العالم من حال الى حال ، فقد كان هذا المصري المتجول واقفاً على باب عصر جديد ، عصر المعادن . وكانت هذه القطعة الصغيرة من النحاس اللامع التي التقطها من رماد النار بشيراً برؤية بهجة ، بحلم جميل تصطبغ فيه معامل اوربا وامريكا بالآلاف الآلات ، وتمتلئ فيه الطرق الحديدية بملايين القاطرات . فكل مظاهر حضارة العالم الحديث وما تعنيه لنا لم تكن لتظهر في الوجود لولا هذه القطعة الصغيرة من المعدن ، التي حملها المصري الجوال في يده لأول مرة في ذلك اليوم العظيم منذ آلاف السنين

فصر باكتشافها معدن النحاس أحدث حدثاً كبيراً ظهر أثره في آسيا واوربا على السواء .
اما في مصر نفسها فقد بدأ ارسال الحملات الى الحدود لجلب النحاس والخشب وغيرها من المواد اللازمة للصناعات . فنذ عصر الاسرة الاولى ابتداء المصريون في استغلال مناجم شبه جزيرة سيناء لاستخراج النحاس الخام وفي الالف الثالثة قبل المسيح كانت اساطيل مصر تتاجر في البلاد الاجنبية ، فتستجلب خشب الارز من لبنان في الشمال وكانت البعثات ترسل لجلب المر والراتينج والخشب والذهب من بلاد بنت في الجنوب ويذهب المؤرخ ماير Meyer الى اكثر من ذلك فيقول ان فلسطين والساحل الفينيقي كانا في عصر الدولة القديمة مستعمرات مصرية

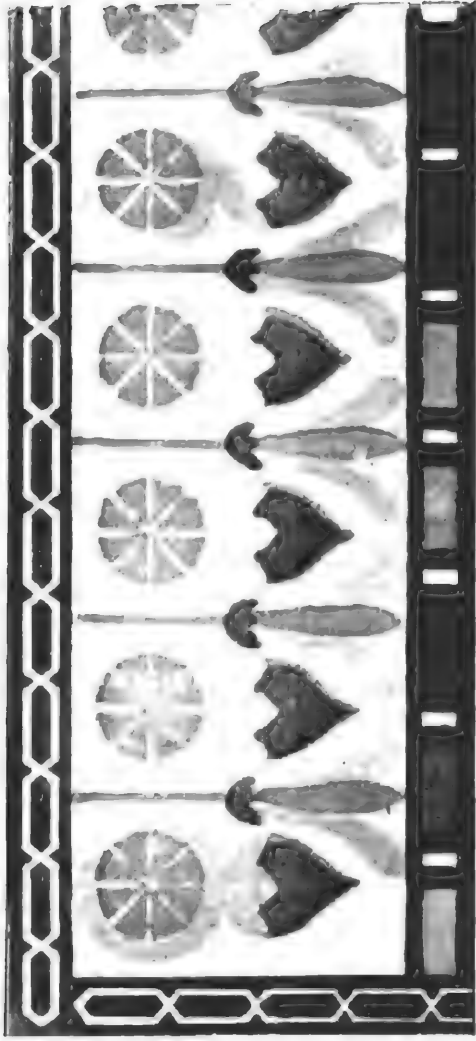
وما لا شك فيه ان اختلاط الاجانب بالمصريين قد أحدث أثراً كبيراً ، ليس في المصريين فحسب ، وانما على الاخص فيمن اختلط بهم من الاجانب . فان اهالي القسم الشمالي من سورية تعلموا استعمال النحاس دون شك من أثر هذا الاختلاط ولا ريب في ان معرفة هذا الاستعمال قد انتشرت بعد ذلك سريعاً ، شرقاً في بلاد ما بين النهرين ، وشمالاً في آسيا الصغرى ، ثم ان هؤلاء الاسيويين أدخلوا استعماله في اوربا — ولم يكن هذا هو الطريق الوحيد لاتقال فنون



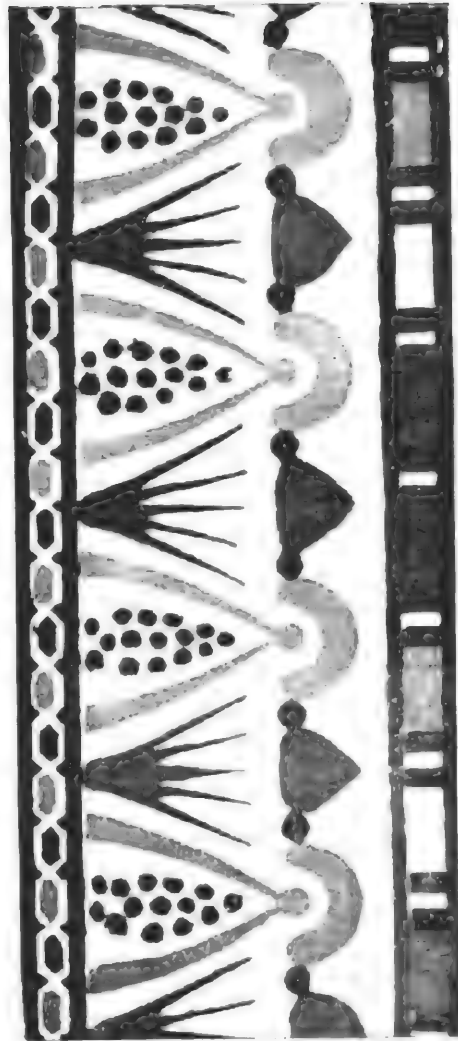
صورة رقم ٤ — (١)



صورة رقم ٥ — (ب) (٨١)



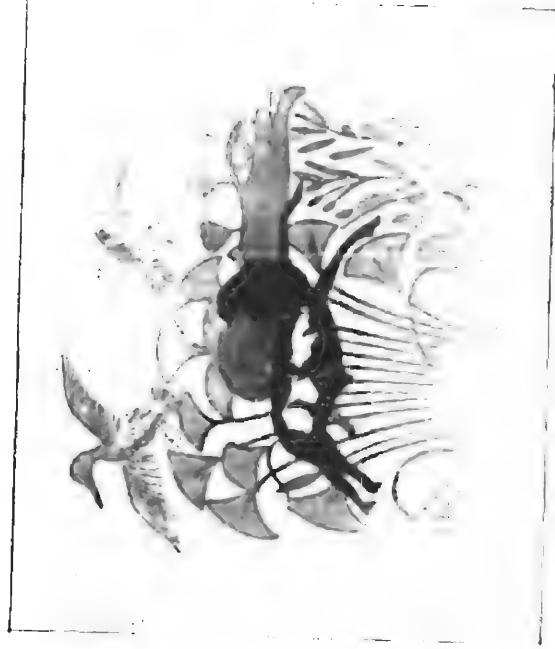
صورة رقم ١١ — شريط يمثل الورديات او الزهيرات الصغيرة المستديرة



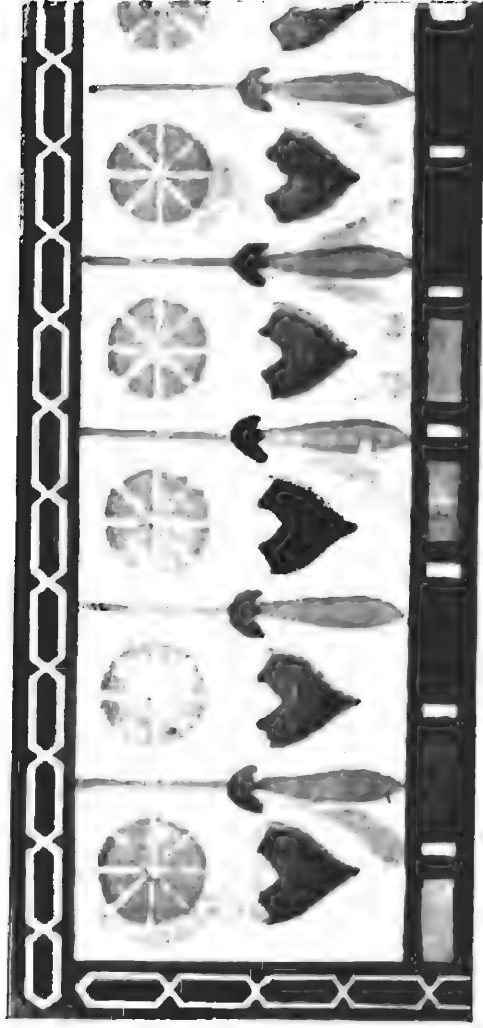
صورة رقم ١٢ (ب) شريط يمثل زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة الغب والمنفرد



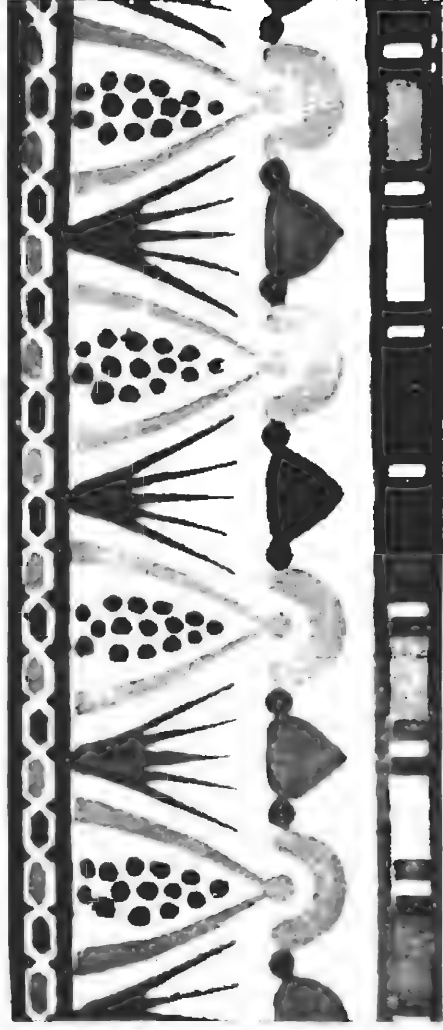
صورة رقم ٤ — (١)



صورة رقم ٥ — (ب) (ص ١٨١)



صورة رقم ١ (أ) - شريط يمثل الورديات أو الأزهارات الصغيرة المستندرة



صورة رقم ١ (ب) شريط يمثل زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والنفود

قدماء المصريين وصناعاتهم الى العالم الغربي إذ أن هناك ساحل افريقية الشمالي وهو الذي قد تكون انتقلت منه الحضارة ايضاً الى كريت وبلاد الاغريق وصقلية وغيرها من الجزر ثم الى سردينيا ونحن لا ندعي هنا أن حضارة اوربا كلها مأخوذة من مصر ، وإنما نقول ان مصر في ذلك الوقت كان مثلها مثل العضو الأكبر في عائلة يأخذ عنه باقي افراد العائلة الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، فلما انتقلت مصر من العصر الحجري الى عصر المعادن برتب على ذلك تقدمهم السريع في مدارج الحضارة ، فكان لمهارتهم في مختلف الصناعات والفنون اثر كبير تناقله العالم من جاز الى جاز فرفع مستواهم هم ايضاً . وليس أدل على ذلك من ان اهالي جنوب ايطاليا بعد ان كانوا يدفنون موتاهم في حفرياتهم عليها التراب رقوقا فحفروا مقابرهم في الصخور او اقاموها من الأحجار . فهذا الترقى الذي هو صورة طبق الاصل من طرق قدماء المصريين في دفن موتاهم في العصر الواقع بين الاسرتين الرابعة والسادسة لا يترك مجالاً للشك في انه مقتبس عن المصريين القدماء

نحن نعلم انه منذ عصر الأسرة الثالثة بدأت المباني العظيمة من الحجر في مصر ، فاذا وصلنا الى الأسرة الرابعة وجدنا خوفو وخفرع ومنقرع يقيمون أهرامهم الهائلة من كتل عظيمة من الأحجار ، هي ومعابدهم الجنائزية المجاورة لها . لذا فانه من المفهوم أن تحاول الامم الاخرى التي كانت تنظر لمصر كمهد للوحي والارشاد أن تقلد مباني المصريين الهائلة ، دون أن تكون لديهم المهارة والمقدرة الكافية لتقائها ، ودون ان يفهموها بتاتاً في بعض الاحيان . وأظن أن القراء الآن قد أصبحوا مستعدين ومهيئين لسماع تفصيلات هذا التقليد وهذه الاستعارة أو بعبارة أخرى تفصيل ما أعطته مصر للعالم أجمع في فني الزخرفة والمهارة

فمن حيث الزخرفة لا نكون مغالين إذا قلنا أن العالم مدين في زخارفه المصريين . فهناك زخارف عديدة اقتبسها الاشوريون والفرس من مصر ثم انتقلت منهما الى الاغريق ثم الى الرومان ثم انتشرت بعد ذلك في جميع انحاء اوربا . وليس في وسعنا أن نخطط هنا بجميع أطراف الموضوع وإنما نكتفي بإيراد بعض الامثلة ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

فمثلاً زهرة اللوتس المصرية انتقلت الى كثير من الشعوب الاخرى وظهرت في فنونهم في أشكال مختلفة ، فقدت في بعضها مشابقتها للطبيعة وأصبحت رسمياً هندسياً بعيداً عن محاكاة الطبيعة . وهذا الأمر نفسه ، أعني به التقليد دون فهم ، يحمل في جوانبه الدليل الكافي على الاقتباس والاستعارة فالرسمان اللذان نقدمهما هنا أولهما يبين زهرة اللوتس في الزخارف المصرية . وهنا أرجو ملاحظة زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود في الشريط السفلي (انظر الصورة رقم ١-ب) كما أرجو ملاحظة الوريدات أو الزهيرات الصغيرة المستديرة في الشريط العلوي (صورة رقم ١-أ)

قدماء المصريين وصناعاتهم الى العالم الغربي إذ ان هناك ساحل افريقية الشمالي وهو الذي قد تكون انتقلت منه الحضارة ايضاً الى كريت وبلاد الاغريق وصفيلة وغيرها من الجزر ثم الى سردينيا ونحن لا ندعي هنا ان حضارة اوربا كلها مأخوذة من مصر ، وأما نقول ان مصر في ذلك الوقت كان مثلها مثل العضو الاكبر في عائلة يأخذ عنه باقي افراد العائلة الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، فلما انتقلت مصر من العصر الحجري الى عصر المعادن رتب على ذلك تقدمهم السريع في مدارج الحضارة ، فكان لممارتهم في مختلف الصناعات والفنون أثر كبير تناقله العالم من جدار الى جدار فرفع مستواهم هم ايضاً . وليس أدل على ذلك من ان اهالي جنوب ايطاليا بعد ان كانوا يدفنون موتاهم في حفر يملئون عليها التراب رقوقا يخفروا مقابرهم في الصخور او اقاموها من الأحجار . فهذا الترفي الذي هو صورة طبق الاصل من طرق قدماء المصريين في دفن موتاهم في العصر الواقع بين الاسرتين الرابعة والسادسة لا يترك مجالاً للشك في انه مقتبس عن المصريين القدماء

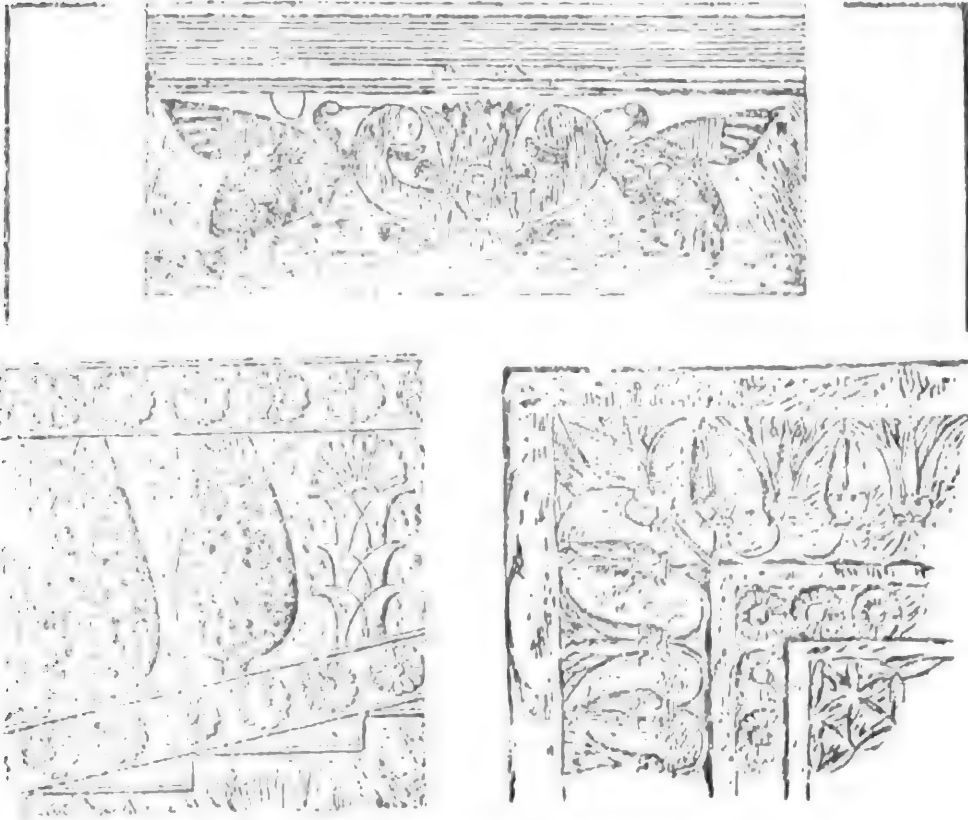
نحن نعلم انه منذ عصر الأسرة الثالثة بدأت المباني العظيمة من الحجر في مصر ، فاذا وصلنا الى الأسرة الرابعة وجدنا خوفاً وخفراً ومتفرعاً يقيمون أهرامهم الهائلة من كتل عظيمة من الأحجار ، هي ومعابدهم الجنائزية المجاورة لها . لذا فانه من المفهوم أن تحاول الامم الاخرى التي كانت تنظر لمصر كمهد للوحي والارشاد أن تقلد مباني المصريين الهائلة ، دون أن تكون لديهم المهارة والمقدرة الكافية لتفاتها ، ودون ان يفهموها بتاتاً في بعض الاحيان . وأظن أن القراء الآن قد أصبحوا مستعدين ومهيئين لسماع تفاصيل هذا التقليد وهذه الاستعارة أو بعبارة أخرى تفصيل ما أعطته مصر للمام أجمع في فني الزخرفة والعمارة

فمن حيث الزخرفة لا نكون مغالين إذا قلنا أن العالم مدين في زخارفه المصريين . فهناك زخارف عديدة اقتبسها الاشوريون والفرس من مصر ثم انتقلت منهما الى الاغريق ثم الى الرومان ثم انتشرت بعد ذلك في جميع انحاء اوربا . وليس في وسعنا أن نحيط هنا بجميع أطراف الموضوع وأما نكتفي بإيراد بعض الامثلة ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

فمثلاً زهرة اللوتس المصرية انتقلت الى كثير من الشعوب الاخرى وظهرت في فنونهم في أشكال مختلفة ، فقدت في بعضها مشابقتها للطبيعة وأصبحت رسماً هندسياً بعيداً عن محاكاة الطبيعة . وهذا الأمر نفسه ، أعني به التقليد دون فهم ، يحمل في جوانبه الدليل الكافي على الاقتباس والاستعارة فالرسمان اللذان نقدمهما هنا أولهما يبين زهرة اللوتس في الزخارف المصرية . وهنا أرجو ملاحظة زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة الغنم والمنقود في الشريط السفلي (انظر الصورة رقم ١-ب) كما أرجو ملاحظة الوريدات أو الزهيرات الصغيرة المستديرة في الشريط العلوي (صورة رقم ١-ا)

اما الرسم الثاني (صورة رقم ٢) فانه يرينا زهرة اللوتس بعينها كما نقلها الفينيقيون وأهالي جزيرة كريت « وهذا في الصورة العليا (١١) أما في الصورة اليمنى (ب) فتراها بعد أن انتقلت الى الاشوريين ، نرى الزهرة بشكلها المصري تماماً كما نرى ايضاً الوريدات الصغيرة المستديرة التي سبق رؤيتها في الشكل المصري ، ثم نرى في الصورة اليسرى (ج) كيف تطورت زهرة اللوتس عند الفرس فأصبحت شبيهة بالزنابق ، وهذا الشكل نفسه شكل مصري آخر لزهرة اللوتس ظهر في فن تل العمارنة على الخصوص . اما الوريدات المستديرة فهي ظاهرة في هذه الصورة ايضاً وهي تدل على انتقالها من مصر الى هذه البلاد بعينها التي أعطاها بدورها الى اوربا

(١)



(ج)

(صورة رقم ٢)

(ب)

ثم هناك ايضاً الخطوط المنحنية او المنحنيات في الزخرفة كما نجدها في سقف مقبرة نفر حوتب فهذه ايضاً قلدها اليونان تقليداً هندسياً أعمى لم يفهموا فيه دقائق هذه الزخرفة المصرية فظهرت غريبة كما نجدها في حلية صدر من مسينا

وهذا كله يكفي للدلالة على أن زخارف الفن الميسيني (الاغريقي) هي بنفسها زخارف الفن المصري القديم ، وان التغيير الذي أدخل عليها فبدلاً من الشكل الطبيعي الى الشكل الرمزي

والهندسي كله حدث من جانب الفن المسيحي وهذا يوصلنا حتماً الى النتيجة الآتية : ، وهي ان الفن المسيحي هو الذي استعار هذه الزخارف والرسوم من الفن المصري ، وانها لم تنشأ مستقلة قائمة بنفسها في بلاد الانعريق



صورة رقم ٣ (أ)



صورة رقم ٣ (ب)

لترك زهرة اللوتس الآن والوريدات المستديرة والمنحنيات أو الموجيات وننتقل الى شكل زخرفي آخر نجده مرسوماً على ابواب العابد وغيرها من المباني الفرعونية أعني قرص الشمس الممتد منه أجنحة على الجانبين . فهذا الرسم الزخرفي الذي كان يمثل في الاصل عند المصريين الممهم الذي على شكل صقر وهو اله الشمس مرفرفاً بأجنحته عند ما يطير في السماء « صورة رقم ٣ (أ) » نقله الحثيون (أعني أهالي آسيا الصغرى) ومنهم انتقل الى آشور بشكله المصري في رسم على الحجر الاسود اقامه ملك آشوري بقصره على نهر دجلة حيث يرى قرص الشمس ذو الأجنحة

مرفرف امام ملك آشور الذي وقت يتقبل فروع الطاعة من ثلاثة من اليهود ، ونجده بشكل متغير معدل في رسوم أخرى ترى فيها قرص الشمس وقد رسموا فيه صورة الممهم آشور ، اله الحرب الذي وحدوه بالشمس ورسومه وهو يطلق سهامه ، يحيط به جناحان كالخفاكين اللذين يحيطان بقرص الشمس المصري « صورة رقم ٣ (ب) » . ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب ، بل ان هذا الرسم الزخرفي قد انتقل ايضاً الى الفرس حيث نجده في الرسوم التي عمماها دارا الاول على صخور بهستون ، وذهب الى أبعد من ذلك فظهر في بلاد المكسيك

فاذا أجهدا البحث والاستقصاء عن قرص الشمس بعد أن تأمنا تطوره الى امريكا عدنا بسلام الى مصر ومسينا نعد بينهما الموازنة (صورة رقم ٤) فنجد خنجرأ مسينياً « الرسم (أ) » على مقبضه رسم يمثل فهذا يجري في اثر احد الطيور وقد أمسك بواحد منها بين الاعشاب وسيفان البردي النابتة في ارض مستنقعة . فهذا الرسم له نظير ، بل اذا اردنا الدقة قلنا له اصل في النقوش المصرية « انظر الشكل رقم ٤ (ب) » . هذا الاصل هو قطعة من ارضية قصر تل

العارة نجد فيها رسم فهد يصارع ثوراً بين سيفان البردي والطيور ترفرف من حولها فالمقابلة بين هذين الرسمين ، ولا سيما بين القوائم الخلفية للفهد في كلا الرسمين وهو يقفز جازياً وراء غنيمته بشكل امتدت فيه هاتان القائمتان الخلفيتان بشكل مستقيم الى الخلف ، نقول تلك المقابلة تفضي بنا لاشك في آخر الأمر الى اليقين بما بين الفنيين من صلة ، نعتي صلة تقليد الفن المسيحي للفن المصري القديم تقليداً عظيماً . ورب شخص يتساءل بعد هذا فيقول : لم أنكلم عن فن الزخرفة والرسم هذا فأورد عنه إلا مئة دون أن أتحدث عن الفنون الصناعية ؟ فهذا اعتراض وجيه اخاف إن أنا اهملته ان يظن البعض ان المصريين القدماء لم يقدموا للعالم شيئاً في هذا الفن والواقع ان المصريين القدماء قد قدموا الشيء الكثير وهاهو المثال عليه : لدينا آنية مصرية «صورة رقم ٥ (١)» وجد رسمها في مقبرة رخمارع في طيبة ، فهذه الآنية تقسم «رقم ٥ (١)» نجدها مغلدة في آيتين ذهبيتين عثر عليهما في مسينا احدهما (هي رقم ٥ ب) تتفق في الشكل مع الآنية المصرية وعليها المستطيلات العمودية الزخرفية التي تشاهد على الجزء الاسفل من الاناء المصري ، وفي الاناء المسيحي الآخر صورة رقم ٥ (ج) نجد نفس الوريدات المستديرة التي في القسم الاعلى من الاناء المصري . اما غطاء الاناء المصري الذي عمل على شكل رأس حيوان من المعدن فيذكرنا برأس ثور من الفضة عثر عليه في مسينا ايضاً ، ربما كان هو ايضاً غطاء لانياء . وليس هذا هو الاناء الوحيد المشابه لآنية مسينية بل ان هناك اواني مسينية كثيرة تشبه

عدداً كبيراً من الاواني المرسومة على

جدران هذه المقبرة في الشكل والزخرفة

والآن فلنذكر مثلاً آخر (صورة

رقم ٦) لاوان وقان صنعت من الزجاج

اللون ومن المرمر ، أصلها مصري (كالذي

في اقص اليسار) ثم انتقلت بعد ذلك الى

بلاد بابل (وهو الاناء الذي في الوسط)

والى ايطاليا القديمة (وهو الذي الى اليمين)

ثم انتشر بعد ذلك بين امم حوض البحر

الابيض المتوسط حيث أصبحت هي الشكل

المتداول استعماله لوضع العطور والطيوب

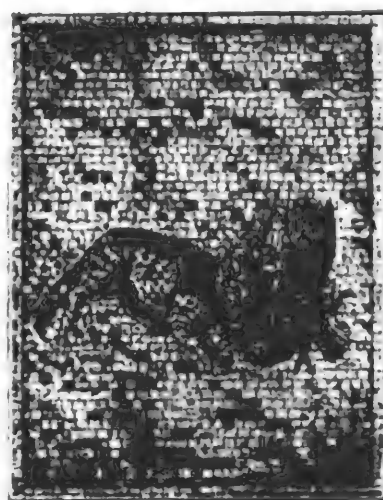


(صورة رقم ٦)

وغيرها . ففي هذا المثال الذي تتكلم عنه نجد ان الاواني المقلدة في بابل وايطاليا القديمة هي في مطابقة شكلها وزخرفتها تمام المطابقة للاواني والفناني المصرية

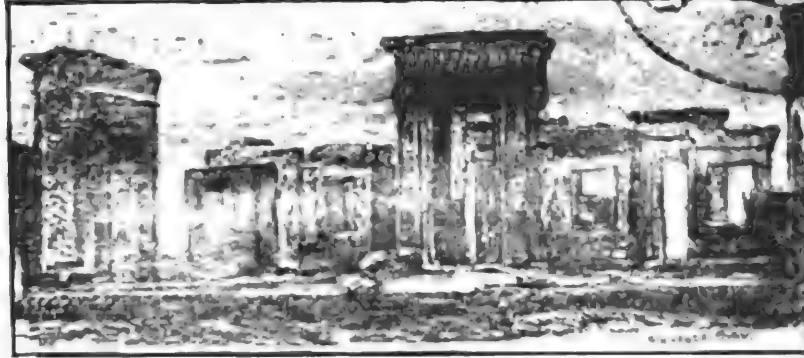


صورة رقم ٨

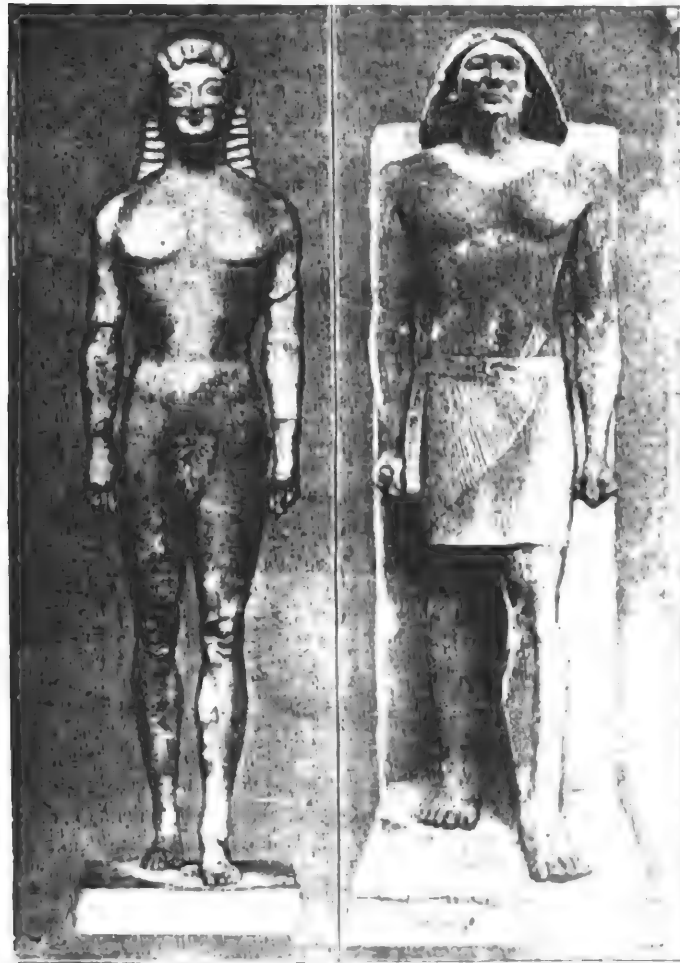


صورة رقم ١٠

دار الكتب
مكتبة
مصر



صورة رقم ١٨ — (ب)

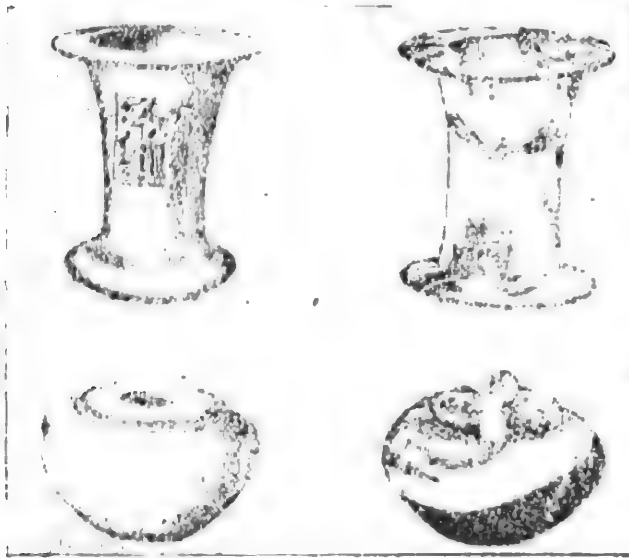


صورة رقم ١٩

وليس هذا هو كل ما في الامر بل إن لدينا أواني من الفضة والبرونز كان الفينيقيون يصنعونها في صور وصيدان (صيدا) ويخزفونها بأشكال مصرية تمثل موضوعات مصرية كما يتضح لنا ذلك في آية من الفضة بحالة بالزينة المصرية (صورة رقم ٧) يرى فيها في الدائرة الوسطى الداخلية (ملك مصري يظلمه قرص الشمس ذو الاجنحة وهو روم دنوسه إحدى يديه ليهوى به على رؤوس الاسرى الراكعين أمامه وهو (اي الملك) يمسكهم من شعورهم باليد الاخرى بل ان هناك ما هو أكثر من ذلك . فالمجموعة الظاهرة بالصورة (رقم ٨) مكونة من أربعة نصال من النحاس والبرونز فقدت مفايضها فهذه الاسلحة تزيينا كيف انتقل الشكل المصري من مصر (اقصى اليسار) الى إيطاليا (يليه جهة اليسار) ثم الى جبال جورا (التي يليه الى اليمين) ثم الى دانمارك والبلاد السكندنافية (اقصى اليمين) وهي من الواضح بحيث يمكن المرء من اول نظرة الحكم بمندار تأثير الفن المصري في ذلك

ونحن لا نضيف الى الكلام الصامت الذي تنطق به هذه الصورة سوى ان السيوف التي ظهرت في اوربا الغربية بعد ذلك بزمن ان هي الا خناجر مصرية قديمة قد زادوا صلاحها طولاً والآن لتتجه بأفكارنا إلى حضارة اخرى اعني بها حضارة جزر بحر ايجه . فالجزيرة التي كانت حلقة اتصال بين هذا البحر من الشمال وبين مصر من الجنوب كانت جزيرة كريت التي قامت حضارتها متأثرة كل التأثر بالنفوذ

المصري وذلك بين عام ٣٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق . م . فحوالي عام ٣٠٠٠ ق . م ظهر في كريت النحاس (منقولا عن مصر) وتبعه البرونز . وبدأ اعلى الجزيرة خطواتهم في طريق التقدم فقلوا عن المصريين حيلهم استعمال العجلة لصنع الفخار ، والافران المعلقة التي يباع طولها طول الانسان . فأكبرهم ذلك ان يصنعوا الاواني والجرار من الطين المحروق وتدرجوا فقلدوا الاواني المصرية المصنوعة من الاحجار بعد ان اكتسبوا



صورة رقم ٩

من المصريين طرق نقبها ونحتها فصنعوا الجرار والاواني والاقداح وغير ذلك بأشكال جميلة والصورة (رقم ٩) توضح ما نقول . فالأواني الحجرية التي الى اليسار مصرية صنعت في

مصر . فنحن اذا قارناها بالاولاني الكريتية اي التي صنعت ووجدت في كريت (وهي التي إلى اليمين) لوجدنا ان الصانع الكريتي قد نقل اشكال الاولاني المصرية الشائع استعمالها في الجزء الاخير من عصر بناء الاهرام (حوالي ٢٧٠٠ — ٢٦٠٠ ق.م)

والان لننتقل الى صناعة اخرى هي صناعة الفسيفساء او ببارة اخرى ذلك الفن الذي يقوم على وضع قطع صغيرة من الاحجار المغلفة بالمينا أو قطع الزجاج بعضها الى جانب بعض لتكون اشكالا ورسوماً . فهذا الفن هو مصري قديم في الاصل اتخذته اغريقو الاسكندرية صناعة فرقة وساروا به شوطاً بعيداً فحذقوه واستعملوه في عمل ارضيات بديمة الشكل واقبيسة عنهم الكثير من الامم الاخرى والصورة رقم ١٠ تبين ان الاغريق لم يكتفوا بنقل فكرة هذه الصناعة لحسب ، بل انهم قد نقلوا الرسوم ايضاً . فالى اليمين رى مثالا جميلاً من الفن الاسكندري لصناعة الفسيفساء يظهر فيه فطياتهم طائراً بضمه ومن حوله طيور اخرى . فهذا الرسم يمثل بنفسه عن الرسم المصري الظاهر الى الشمال وفيه نرى نفس الفط وهو باتهم الطائر وتمت ارجائه الامامية والخلفية طائران آخران . فالمطالبة هنا تامة بحيث تعطينا برهاناً جليلاً على تأثير الفن المصري القديم من حيث صناعة الفسيفساء على ما ظهر من فن بعد ذلك



(صورة رقم ١١)

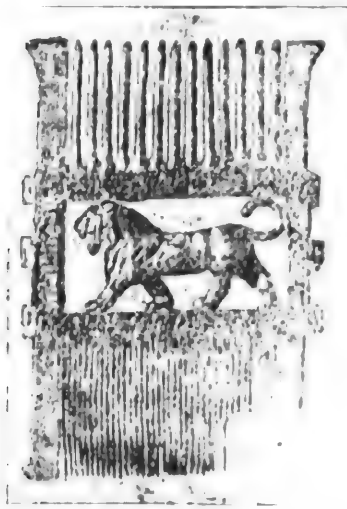
نتفقا الآن الى اشور فنضع تحت الانظار قطعة من العاج (صورة رقم ١١) وجدت في قصر آشوري تمثل ابا الهول بشكاه المصري ناشراً أجنحته . فهذه القطعة العاجية وامثالها كانت ترصع اثاث القصور كالفاسد وغيره ، التي كان يقوم بعملها صنّاع فينيقيون كانت يستخدمهم ملوك آشور . هؤلاء الصّناع كانوا يستخدمون دائماً اشكالا ورموزا مصرية بعد ان يرجوها بزموز آشورية . ونجدد بنا ان نذكر هنا ان ابا الهول ذا الأجنحة وجد في

الاصل في الفن المصري ثم انتقل من مصر الى الفينيقيين والحيثيين بسوريا . ومن هناك الى بلاد آشور حيث ظل يتطور تدريجاً حتى أصبح بشكل ثور ذي أجنحة كان يحلى الواجهة الامامية لقصور ملوك آشور

وفضلاً عن ان آشور كانت تعتمد في فنها وصنائعها على ما اقتبسها من مصر بدليل ما نقله الصّناع الفينيقيون من اشكال الاثاث وما عليه من حلي وزخارف مأخوذة كلها عن الفن المصري القديم كما رأينا ، فان هناك صناعات اخرى نقلوها ايضاً عن مصر ، نذكر منها على سبيل المثال

صناعة الزخرفة بالمينا حيث كانت تنشر طبقة من الزجاج المتعدد الالوان على قوالب من الطوب تحلى بها جدران المنازل والقصور . فهذه الصناعة المصرية انتقلت الى آسيا ولعبت دوراً كبيراً في تزيين قصور ملوك آشور وبابل بأزهى الانوان كما يرى ذلك على آجر محلى بالمينا مرسوم عليه أسود ، هو جزء من جدار قصر « نبوخذ نصر »

والآن ما ذا نزيد على ذلك فيما يخص بالفنون الصناعية ؟ لاشي ، سوى كلمة بسيطة عن صورة (رقم ١٢) نرى فيها الى اليمين (الشكل ١ - -) مشطاً مصرياً (رقم كتالوج المتحف المصري ٤٤٣٣٤) وجد بصقارة مصنوعاً من الخشب والعظم ، نرى في القسم الاوسط (المفرغ) منه شكل أسد والى اليسار (الشكل - ب -) نرى مشطاً فينيقياً من العاج بشكل المشط المصري تماماً يطابقه حتى في القسم الاوسط منه ، حيث نجد رسم الاسد ايضاً بطريقة التفريغ . فأمثال هذه الامشاط والادوات ظاهراً فيها تأثير مصر بشكل واضح لا يترك مجالاً للشك ، وهي وان كانت قد صنعت في صور وصيدون (صيدا) وأمثالها من المدن الآن النيبتيين قد نشروها في بلاد حوض البحر الابيض المتوسط حتى وصلت غرباً الى اسبانيا حيث وجدت امثال هذه الامشاط في مقابر هناك



صورة رقم ١٢ (ب)



صورة رقم ١٢ (ا)

الآن ننقل الى النقطة التالية وهي : ما الذي قدمته مصر للعالم في فن العمارة والبناء ؟

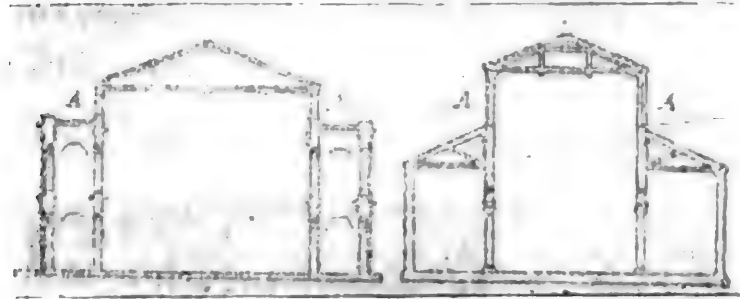
نبدأ بمبحثنا من عاصمة البلاد : مصر القاهرة

فالى جانب ابي الهول يقوم معبد بني من الجرانيت نطلق عليه الآن معبد ابي الهول . فهذا المعبد أقامه الملك خفرع ليكون معبداً جنازياً لعبادته ، ولبس هذا هو الذي يعنينا إنما الذي يعنينا بل ويهنا هو ما اتخذ في هذا المعبد من وسائل انارته ، وبخاصة اماره قاعة الاعمدة

فماعة الاعمدة في هذا المعبد (انظر صورة رقم ١٣ (١) الشكل الابر) يتنذ إليها الضوء من نوافذ ضيقة قليلة الارتفاع في سقف الجزئين الجانبيين من الماعة ، وهما الجزءان اللذان يفلان في الارتفاع قليلاً عن القسم الاوسط حيث وضعت هذه الكوات لينفذ منها الضوء ، مشار إليها في الرسم بحرف (١)



صورة رقم ١٣ (١)



صورة رقم ١٣ (ب)

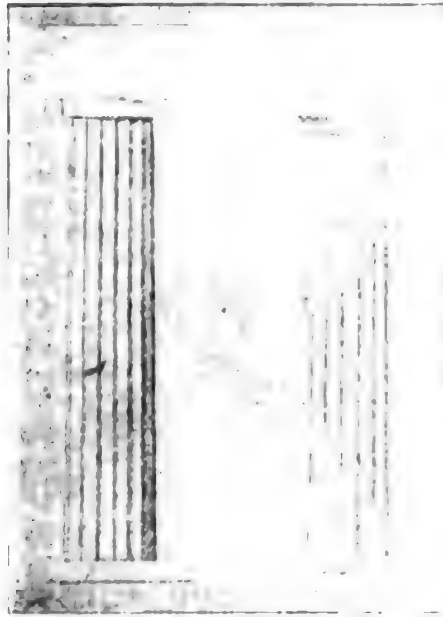
وضعت مئذنت السنين قد درجت هذه النوافذ وتدرجت معها فتركتنا الدولة القديمة وسرنا اشواطاً حتى بلغنا معبد الكرك بك بالاقصر حيث تقف الآن فيه خاشعين امام جلال قاعة اعمدته الكبرى، فاذا أجلسنا الطرف فيها (وهي ظاهرة هنا في الشكل الاوسط من الصورة العليا رقم « ١ ») وحدها القسم الاوسط يعلو بأعمدته الاثني عشر (المربعة

في سقفين) عن الجناحين او القسمين الجانبيين فنشأ عن ذلك فرق بين علو السقفين او ان شئت دقة التعبير ، بين علو سقف القسم الاوسط وسقفي الجناحين ، وهنا لا نستطيع مغالبة التساؤل عما قصدوه من ايجاد هذا الفرق . السر في ذلك بسيط ، فقد قصدوا بايجاد هذا الفرق أن يضعوا فيه قطماً من البلاط مشقوق فيها نوافذ طولية عمودية تسمح بدخول الضوء الى داخل المكان فهذه النوافذ الطولية التي تطورت فلم تعد ضيقة قليلة الارتفاع كما رأينا في معبد ابي الهول ، وانما نجدها مرتفعة عالية ، انتقلت الى اليونان ثم الى روما كما نرى ذلك في باقي الاشكال ثم صارت بعد ذلك مظهراً متميزاً من مظاهر الكنائس المسيحية الضخمة في اوربا في الشكل المسمى الآن بالـ *Basilica*

الى هنا أجد القراء يهسون في اذني همساً يزداد قوة يطلبون مني شيئاً يخلو من التعقيد شيئاً يخلو من اجبارهم معي على كد الفهم ودقة التتبع ، فلمهم عليّ حق الامر ، وعليّ واجب الطاعة رأيتم معي تلك الاعمدة الهائلة الضخمة التي كانت تملأ الابهاء في معابد مصر الشاغخة التي مازالت تقوم عظيمة على ضفاف النيل ، وفهمتم معي ضمناً ان تلك الاعمدة وفكرتها قد تناولتها

يد التقليد في الأمم المختلفة حتى وصلنا إلى بلاد الإغريق ، وهناك اتخذت الأعمدة اسماً أطلق عليها هو ال Doric حيث نجد في أقدم معبد وجد ببلاد الإغريق أعني معبد (هيرا) بالاولمبيا فما هو هذا العمود « الدوريك » ؟

هو أقدم وأول عمود استعمله الإغريق في مبانيهم يتكوّن سطحه من تيجان طويلة أو أضلاع محفورة في جذع العمود . فهذا العمود يماثل تماماً الأعمدة التي وجدت في معابد بني حسن التي يرجع تاريخها إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة ق.م كما وجدت أعمدة مصرية بهذا الشكل في سفارة وجدها فرت و يرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة أي أنها قد ظهرت قبل فدياس بنحو خمسة وعشرين قرناً وهذا نتيجته الفرصة فتعرض على المراء شكلاً واحداً



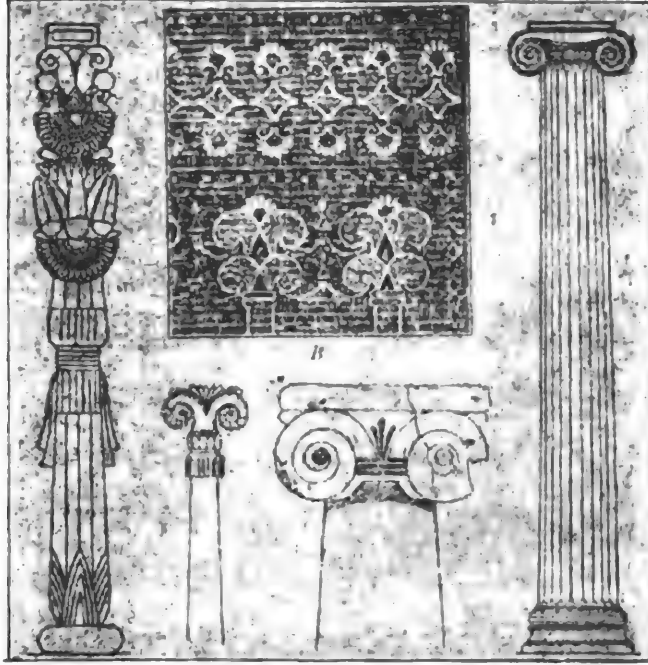
جمعنا فيه رسمي كل من العمود « الدوريك » الإغريقي إلى اليعين (صورة رقم ١٤) والأصل المصري الذي نقل عنه الذي يعرف بالـ (Doric) إلى اليسار والذي وجد في معابد بني حسن

ننتقل الآن إلى طراز آخر من الأعمدة هو الطراز الذي يطلق عليه اسم Doric فهو وإن كان يشبه ال Doric السابق يترحه إلا أنه أرفع منه ويمتاز عنه بوجود قاعدة له وتاج ذي شكل ممتاز . فتاج هذا العمود يرجع في شكله إلى أصل مصري (كما يرى بأعلى العمود المصري في الشكل رقم ١٥ إلى أقصى اليسار) ثم انتقل إلى بابل كما نرى ذلك في رسم على المبنى من حدردان قاعة عرش نبوخذ نصر بابل (في وسط الصورة إلى الأعلى مشاراً

(صورة رقم ١٤)

إليه بحرف ١٤) ثم انتقل إلى آسيا الصغرى في أوائل عصر فن العمارة الإغريقي هناك (إلى اليسار في الجزء السفلي من القسم الأوسط) ثم اقترب من شكله الأخير في عمود وجد بالأكروبوليس بأثينا احتفت فيه شكل الزنبقة تقريباً وبقيت حلقاتها الجانبية (إلى اليمين في الجزء السفلي من القسم الأوسط) ، ثم تطور واتخذ شكله الأخير في العمود الأيوني Doric (إلى أقصى اليمين) الذي تلاشت فيه الزنبقة وظهرت بدلها حلقتان جانبيتان فقط وهذا العمود الأخير أخذ رسمه عن معبد النصر بالأكروبوليس بأثينا

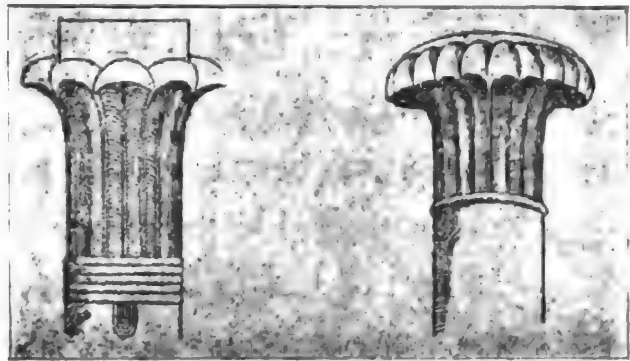
بعد هذه الأعمدة البسيطة الشكل شعر المصريون بمحاجتهم إلى وضع تاج للعمود يرثيه واتخذوا هذا التاج على شكل النباتات فظهر العمود الذي تاجه على شكل البردي والعمود الذي تاجه على



(صورة رقم ١٥)

شكل اللوتس ، والعمود الذي تاجه على شكل أغصان النخيل ، وهذا الأخير هو الذي يهتما الآن . وترى صورته (رقم ١٦ « أ ») ، ووجه أهميته أنه انتقل بنصه وفصه الى الخارج حيث نقله (شكل ب) معماريو برجاموم في العصر الهللاي . وهذا المثال يرينا بوضوح أن فكرة اتخاذ أشكال زخرفية معمارية نقلاً عن النباتات والزهور اكتسبها الأغريق من الخارج ، وأن العمود الكورنثي (صورة ١٦ « ج ») هو دون شك مقتبس بالطريقة نفسها

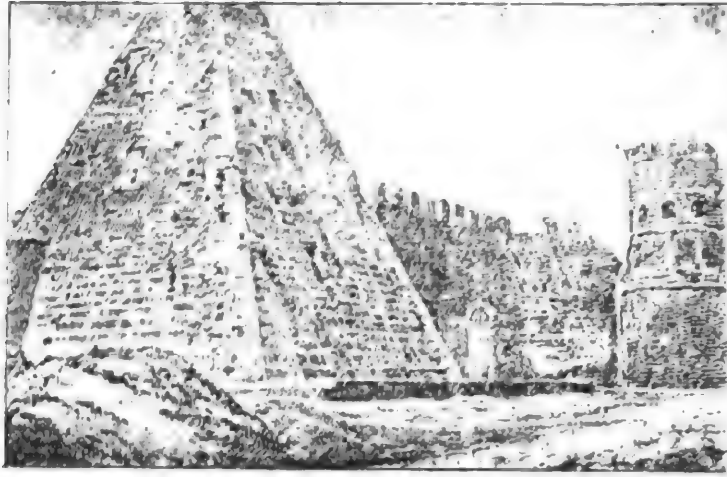
الآن وأنا أراكم قد سأتم ذكر الأعمدة والمقارنة بينها انتقل الى ذكر روما ، روما العظيمة الخالدة ذات التاريخ المجيد ولكن ما لروما وفن العمارة المصري القديم ، هذا ما يهتما به الكثيرون الآن



صورة رقم ١٦ — (ج)

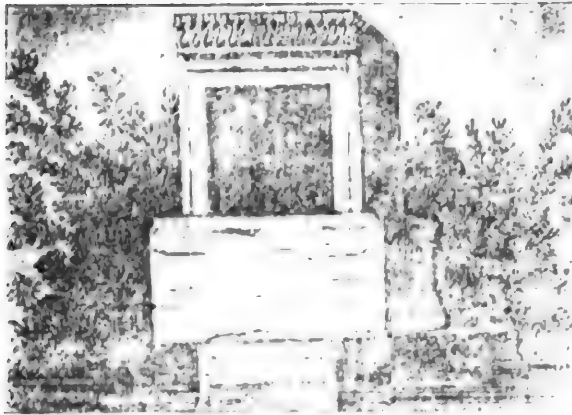
(ب) — صورة رقم ١٦ — (أ)

لا أتوي ان أدخل في تفاصيل عميقة جديدة ، فليس ما ألقه درساً في جامعة ، وإنما أكتفي بأن أقول ان كثيراً من الرومان الأثرياء الذين تمودوا على الشرق أخذوا يبنون



صورة رقم ١٧

مقابرهم في نفس روما على الطراز الفرعوني ، كما فعل النيل كسنوس الذي أقام لنفسه مقبرة على شكل هرم في عصر اغسطس خارج المدينة، ثم بعد ثلاثمائة سنة تقريباً أراد Augustus بناء سور يحيط بروما ليقمها غزوات الفاتحين فدخل هرم هذا النيل ضمن ذلك



صورة رقم ١٨ — (١)

السور الذي نرى جزءاً منه في الصورة على كلا جانبي الهرم (صورة رقم ١٧) الآن خطوة الى الوراء لنعود الى الفينيقيين ، فهؤلاء القوم أخذوا عن المصريين الكثير من قواعد فن عمارتهم، فنحن نرى في الآثار الفينيقية القليلة التي نجت من الدمار منظراً مصرياً خالصاً ، قالناووس « صورة رقم ١٨ — (١) » الذي عثر عليه المسيو رينان بالقرب من

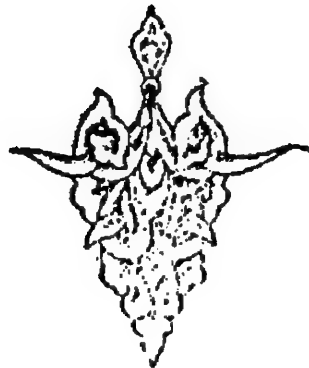
امريت التي هي مارات القديمة ، يعتبره الانسان لاول وهلة مصرياً محضاً لو كان اكتشافه على ضفاف النيل

وايضاً فان بعض الاجزاء في قصر دارا الفارسي بمدينة برسپوليس « صورة رقم ١٨ (ب) » تؤكد ان تكون اطلال احد المعابد المصرية ، فان جميع الابواب محلاة من اعلاها بأطناف (جمع طنّف وهو افرز الحائط وما اشرف خارجاً عن البناء ويقابله في الفرنسية لفظة Corniche) تشبه الأطناف المصرية في شكلها وصلابتها ، وفي هذا دليل على انتقال الكثير من مظاهر فن العمارة المصرية الى فارس التي أعطاها بدورها لغيرها من الامم ونختتم البحث بكلمة موجزة عن فن التحت وصناعة النمايل في مصر وآثر ذلك الفن في الخارج

الواقع أن مثالي الاغريق تأثروا تأثراً شديداً في أول عهدهم بالتمثال المصرية القديمة التي رأوها . والدليل على ذلك أن تماثيل الاغريق الاولى التي صنعوها من الحجر كانت ظاهرة التقليد كما يتضح ذلك من الصورة (رقم ١٩)

فهذا الشكل برينا تماثيل ، الايمن منهما هو تمثال مصري للكهنة رع نفر (الاسرة ٥) اما الايسر فهو تمثال اغريقي . فالتمثال المصري أقدم من التمثال الآخر بما لا يقل عن ألفي سنة ، يمثل صاحبه واقفاً بالطريقة المتعارفة وذراعه ممتدان إلى جانبيه ، وهو يقدم الرجل اليسرى . فنحن إذا قارنا التمثال الاغريقي به لوجدنا أن شكل وقفة هذا التمثال الاخير تماثل تماماً نظيرتها في التمثال المصري ، كما ان الذراعين بوجودهما إلى الجانبين تماثلان تماماً التمثال المصري ، وكيفية اطباق اليد مع ترك الابهام خارجاً هي واحدة في التماثيل

وفوق هذا كله فان التمثال الاغريقي فيه الرجل اليسرى مقدمة كالتمثال المصري تماماً ، هذا بصرف النظر عن ان التماثيل ينظران الى الامام بكيفية واحدة الى هنا أراي قد أطلت الشرح ، لذا فاني اتهي راجياً ان اكون قد وفقت الى ابراز صورة صحيحة واضحة لأثر مصر في الامم القديمة من حيث الفن على وجه العموم



تراث مصر الفكرى والفلسفى

فى عهد الفراغة

لبرهان بن موسى

لم يصف برستد نفسه بأنه « بشري » ولكن الذي يقرأ مؤلفاته عن مصر يشعر بأن هذا الوصف ينطبق عليه . فانه من أولئك الفائلين بأن الاخلاق أو التميز بين الخير والشر لم يحدث بتوفيق وإلهام . وانما حدث — مثل اللغة — بمجهود بشرية . وكتابه « فجر الضمير » هو عرض واف لهذه الجهود لأولئك المصريين الاولين الذين ابتكروا للعالم حضارته وعلموا الانسان القراءة وفتحوا له بذلك أبواب الثقافة الادبية والدينية والاجتماعية والاخلاقية . ونحن ابناء الفراعنة لم نستبد بهذا التراث كما يشهد بذلك ألف دليل . فان حروف الهجاء في الجمل والموبيدات المخططة في أمريكا الجنوبية وتقديس البقرة في الهند وشعائر الاديان المختلفة من التطهر بالماء أو الفردوس إلى الثانوث بل حتى عبارة « ابن الانسان » قد عرفها آباؤنا قبل أربعة آلاف سنة ونشروها في أنحاء العالم مع فن الزراعة الذي أخرجوا به الانسان من حياة الغابة والبداءة الى حياة الحضارة والاجتماع

وبرستد واحد من هؤلاء الرجال الذين يرصدون حياتهم لخدمة العلم على نحو ما يرصد الرهبان حياتهم لخدمة الدين . فان في الدنيا هذه الايام عبادة جديدة تقتضي من صاحبها نسكاً وإنكاراً للنفس وإرصاد الفكر والصحة والمال للبحث عن ماهية الانسان وأصوله في التاريخ القديم وعن مستقبله . وهؤلاء الناسكون الصوفيون يمارسون صوفيتهم في المعمل الكيماوي أو السيكلوجي كما يفعل الكسيس كاريل أو بافلوف ، أو في المعمل الأثري كما كان يفعل برستد

ولا يحسن أحد أن هذا الكلام يعني المادية أو أنه يدعو إلى نبذ الدين . فان من لا دين له لا شرف له على حد ما يقول هذا الصوفي العظيم برناردشو . وأما عن المادية فان تاريخ الانسان يصبح باستنكارها . وقد أخرج لنا برستد من « شق الرجا » الذي وجدته في إحدى مدن الصعيد ما يكشف عن بذرة الاخلاق والاتجاه الذي اتجه اليه الانسان الاول لكي يضع أسس الاجتماع فهذا الشق يعود الى عصر بناء الاهرام أي نحو ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد . وهو أول لوح مكتوب في العالم لم يعثر على اقدم منه . وهو يذكر أصل الاشياء ويبين لنا أصل الاخلاق . وهو يذكر القلب بمعنى العقل والفهم . كما لا تزال عليه بعض اللغات . وهو يقول بالنص : « كل شيء نشأ وتكون لان القلب (العقل) أرادته واللسان نطق به » أي كانت الفكرة ثم كانت الكلمة . وهذه العبارة تدل على أن المصري القديم شعر أن العقل فوق المادة

وشعوره هذا عجيب جداً . وهو يدلنا على أن طبيعتنا ليست مادية وان الانسان نفس قبل أن يكون جسماً . وهذا الكاتب لشق الرجا لا يعرف من الخير والشر أو الفضيلة غير هذه الكلمات :

الرجل الذي يعمل ما يحبه الناس له الحياة

الرجل الذي يعمل ما يكرهه الناس له الموت

وهذه هي الاخلاق الاولى كما عرفها الانسان قبل ٥٣٠٠ سنة . وهي تدل على شيئين :

الاول : أن مهمة الاخلاق الاولى هي خدمة الاجتماع بان يعمل الفرد ما تحبه الجماعة

والثاني : أن المعنويات فوق الماديات لان القلب (العقل) فوق كل شيء .

وهذه البذرة الساذجة للاخلاق والفلسفة مازالت تتطور حتى وصلت بعد ألفي سنة (١٣٠٠ ق.م)

الى فلسفة التوحيد والاخاء البشري عند اخناتون . وقد آصابت في عصر الدولة القديمة ثم عصر

الاقطاع من نوبات الارتفاع والانحطاط شيئاً كثيراً . ولكن سلسلة هذا التطور تبدي لنا ناحيتين

احدهما ناحية الشعب الذي يقوم أبناءه من الملوك والصعاليك والكتّاب والصنّاع بابتكار

الاخلاق الجديدة للمصور الجديدة والارتفاع بالانسان الى مدارج سامية من الرقي والدقة في

معاني الفضيلة والرذيلة . وفي الناحية الاخرى نجد الكهنة الذين يحيلون الاخلاق الى شعار جامدة

لا تقبل التنقيح لانها مقدسة . فالابتكار يأتي من الشعب والجمود من رجال الدين

ولكن شق الرحا ليس أول ما كتب عن الاخلاق . وإنما هو أول ما وجد في عصرنا

من النقوش القديمة لا يعرف أقدم منه . ولكن عصر الاهرام حافل بالنقوش العديدة التي تعطينا

صورة من الاخلاق الاولى كما فهمها الانسان لأول اصطدامه بحقائق الدنيا وبالمسائل الاجتماعية

فمن ذلك ان المصري الاول لم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى الموت . فهو

لا يذكره باسمه إلا حين يدعو على عدو . اما حين يذكر حبيباً فإنه يؤكد أنه لم يميت وأنه سيعيش

وسيعيش . وهذا يقال مع المومياء المحنطة . وهذا الخوف من الموت هو الذي ألهم بناء الاهرام

والهم التحنيط وألهم الفردوس المصري القديم . فان الميت لم يميت . بل هو يعيش في الفردوس .

هذا الفردوس الذي نرى اوصافه في كثير من الفراعديس التالية

ولا يمكن أن يقال إننا نحن نسكن إلى الموت ونسلم به . فان الرغبة الحادة التي تجعلنا أحياناً

نعتقد المجالس « لمناجاة الأرواح » تدل على أننا مازلنا عاجزين عن التسليم بالموت . وان اختلافنا

من المصري القديم الذي كان يرفض أن يلفظ بلفظة الموت وكان يبني الاهرام قصد الخلود إنما هو

اختلاف في الدرجة فقط

٢ — وفي عصر الاهرام هذا نجد هذه العبارة في التزيك « محبوب من الاب ممدوح من الأم

يحبه اخوته » وهذا يدلنا على أن الأسرة كانت أساس الحب الاجتماعي . وهي لا تزال كذلك .

واشتقاق الرحمة من الرحم في اللغة العربية يدل على أن هذه الفضيلة نشأت أولاً لخدمة ذوي

الارحام أي الاقارب . وكذلك كان الشأن عند المصريين القدماء . بل السيكولوجية الحديثة تدل على أن حب الطفل لأسرته هو النواة لحبه للهيئة الاجتماعية . واتفاق السيكولوجية والمصروولوجية برهان على عظم المكانة التي تحتلها الأسرة من الاجتماع

٣ --- نجد في عصر الاهرام حكم بتاح حوتب تدعو الى النجاح الشخصي ولكن مع الاستقامة . كما نجد ان الناس يحتاجون إلى الزكية بأعمالهم لكي ينالوا السعادة الابدية . بل الآلة المصرية نفسها كانت تحتاج الى الزكية . وهناك ما يسمى « نصوص الاهرام » وهي النقوش التي وجدت في قبر يبي من ملوك الأسرة الخامسة والسادسة . وفي هذه النصوص نجد هذه الكلمات يفعل الملك يبي شراً . وانها لكلمة كبيرة في عينك يا رع»

فنفهم من هذه الكلمة أن الملك كان في حاجة لان يزكي نفسه أمام ربه ويثبت أنه كان صالحاً لا يظلم الناس . ويمكن ان نستخلص من عصر الاهرام أربعة مبادئ في الاخلاق الاولى التي عمت مصر قبل ٥٢٠٠ سنة تقريباً :

١ --- المبدأ الاول هو الخوف من الموت وأثر ذلك في إيجاد الحكمة ومحاولة الحلود بالتحنيط والاهرام . وقد كان لهذا الخوف اثره الحسن في انبعاث المصريين الى السياحة جلب مواد التحنيط والدفن فانتشرت بذلك الحضارة الاولى كما عرفت مبادئ الصناعات والعلوم . ولكن كان له أثر سيء هو سلطان الكهنة وإرصاد الجهود الكبيرة لبناء الاهرام وتوجيه العقول إلى عالم آخر

٢ --- المبدأ الثاني اتنا نعرف من قصة شق الرحا ان الفضيلة كما فهمها المصري الاول هي ما أحبه الناس . والعكس بالعكس

٣ --- والمبدأ الثالث ان الأسرة هي أساس الاخلاق للاجتماع

٤ --- والمبدأ الرابع هو أن كل انسان مسئول وأنه يحتاج لهذا السبب الى الزكية ولو كان ملكاً

كل هذا نراه واضحاً فيما بين سنة ٣٣٠٠ ق . م الى سنة ٢٥٠٠ ق . م

ولكننا بعد ذلك نبدأ بالشعور بأن الشك أخذ يتسرب الى العقائد . ومنذ حوالي سنة ٢٥٠٠ نجد المصريين ينظرون بعين الشك إلى قبة الاهرام في تخليد الميت . ولا بد أن كثيراً من هذه الاهرام التي كانت تدمر بالعشرات قد بلي وتفتت كما تهدمت المعابد التي أقيمت بجوارها فتقلقت العقائد الدينية وأصبح الناس يتساءلون --- كما تتساءل --- من هو الرجل الفاضل ؟ هل هو المصلي المتعبد أم هو الرجل العادل الذي لا يظلم الناس ؟ ونجد أحد الفراعنة ينصح لابنه مريك رع (٢٥٠٠ ق . م) فيقول له « ان فضيلة الرجل المستقيم نجد من القبول أكثر مما يجده ثور الضحية الذي يقدمه الرجل السيء » وبكلمة أخرى الدين المعاملة . ولكن الشك في ثور الضحية هو شك في الدين

وفي هذا الوقت أيضاً نجد أن الله يوصف بأنه خفيٌ يعرف كل شيء . وفي هذا الوصف ما يعني أن له رقابة على العالم . وهذا هو البذرة الأولى للتوحيد . والمصري القديم الذي يؤمن بهذا الإيمان بعد بلا شك زنديقاً من ناحية إيمانه بالآلهة الأخرى

وحوالي سنة ٢١٠٠ ق . م نجد الشك يزداد . فإن الثقة العمياء التي دفعت الملك خوفو إلى أن يعي . قوات الدولة لبناء الهرم الكبير لكي يعيش في العالم الآخر إلى الأبد قد زالت وجاء مكانها روح جديد يشبه روح عمر الحُبَّام . فتناسع شاعراً مصرياً ينشد « ليس أحد يأخذ معه أمواله وليس أحد من الموتى يعود » وهذا القائل كان يعرف الأهرام وكان بعضها قد مضى عليه ١٢٠٠ سنة . فكان ينظر إليها ويقول : « ما الفائدة ؟ . لقد ماتوا وكل هذا عبث ! »

ويقول هذا الشاعر في قبر الملك انتيف من الأسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق . م) :

« لا يعود أحد من هناك (من الآخرة)

لكي يفتننا عما جرى لهم وعن الحظ الذي لاقوه

حتى ترضى نفوسنا إلى أن نرحل نحن أيضاً إلى المكان الذي ذهبوا إليه »

ثم يحض على الاستمتاع بالدنيا لأن الآخرة لا تعرف فيقول :

« أشعير قلبك الشجاعة وأانس الموت

وأمتلىء سروراً واتبع رغائبك ما دمت حياً

ضع المرء على رأسك (أطيب) والبس الأقمشة من الكتان الحسن المهيأ بألوان الترف »

وزد مسراتك ولا تجعل قلبك يذبل . واتبع رغائبك وما تحب ، ولتنتظم أعمالك على

الأرض كما يشتهي قلبك حتى يأتي إليك يوم الرثاء حين لا يسمع القلب الساكت

هذا الرثاء »

هذا التفكير الجريء الفاجر نجد منه كثيراً بعد سقوط الدولة القديمة . فإن الاستقرار الذي

بُنيت فيه الأهرام والذي بقي نحو ألف سنة قد تقلقل وجاء عصر الفوضى والاختلاط وحكم الأمراء

المستقلين وتزعزع السلطان سواء أكان في الدين أم في الحكومة . وهذا العصر الذي يحخر فيه

النظام يكسب فيه الذهن ، لأن الإنسان في مثل هذه الظروف يتساءل : ما السبب لهذا الفساد ؟

ولماذا كان أسلافنا صالحين ؟ ولماذا نحن غير صالحين ؟ وماذا ينقصنا ؟ وما هو مستقبلنا ؟

وهذا التفكير يكثر في الأزمات . ولا بد أن أسلافنا قاسوا في هذا العصر ألواناً من القحط

والحرمان للفوضى السائدة . وعندئذ نجد أنهم يفكرون في المنقذ الذي سوف يأتي فيعمم بين

الناس الرخاء والعدل ويخفف الظلم ويرفع المظلوم . وقد أدنى بهم هذا التفكير الى فكرة أصبحت تقليدية في جميع الأديان تقريباً هي ان « المنقذ » في شخص ملك أو نبي سيأتي وينقذ الناس من جميع الشرور التي حاقت بهم . وهذا المنقذ قد وصفوه بهذا الوصف العجيب « ابن الانسان » ولا يمكن أن يفسر هذا الحلم الذي حلمه آباؤنا قبل ٤٠٠٠ سنة إلا انه ثمرة الحرمان والفحط وتفشي الفوضى والعجز عن علاجها

كلنا يعرف ان التفكير الديني انتهى أيام اخناتون الى التوحيد الصريح وهدم الاصنام واستنكر تعدد الآلهة ومكافحة سلطان الكهنة . ولذلك يحسن بنا ان نتبع الدرجات التي انتهت الى هذه النتيجة

ففي أيام بناء الأهرام كانت الدولة مستقرة والنظام سائداً والمعابد تبنى وترمم بكل عناية في كل مكان . والايمان بالخلود بعد الموت عظيماً جداً تؤيده أهرام ما زالت لا يامنا قائمة . وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أحد أن يكون حرّاً في تفكيره وهو لا يستطيع ذلك . ثم يجب ان نذكر ان الآلهة كانت آلهة مصر فقط

فلما كثرت الأهرام والمعابد والاضرحة أصبح من المحال ترميمها وتجديدها كلها فصارت تبلى وتهدم وتترك على هذه الحال فيراها المصري القديم فيفكر في قيمة الخلود المزعوم والقوة الإلهية المفروضة . ويشك فيهما . ثم يؤمن بأن الموت لاغش فيه ولا تخالطه حياة فيقول كما قال هذا الشاعر على جدران قبر إنتيف : « استمتع بالدنيا »

ثم يأتي عصر الفوضى والفحط وقطع الطرق فيحلم آباؤنا عن المنقذ « ابن الانسان » الذي يعمم العدل . وكأنهم يشعرون أنهم

ثم يستتب النظام من جديد في الدولة الجديدة . ولكنه ليس كنظام الدول القديمة جاء على فطرة وسذاجة وخوف من الموت . وإنما هو نظام يستند الى أفكار خنثرة متصارعة قد اختلط فيها الفكر بالايمان . والدين ظاهرة اجتماعية لا يختلف عن أي ظاهرة أخرى . ولذلك نجد تحطس الثالث حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . ينشئ أمبراطورية فيحتاج الى أن يجعل آلهته امبراطورية ايضاً فيصف رع بأنه يرى الدنيا جميعها في كل وقت . وهذا هو المعقول لانه اذا كان فرعون قد ملك الدنيا فيجب ان يملك آلهة الدنيا ايضاً . ومادام إلهه رع يملك الدنيا فما قيمة الآلهة الاخرى؟ اذا ماذا يملك الى جانبه ؟ وهذا المنطق يؤدي الى التوحيد

وبكلمة أخرى نقول ان التوسع الامبراطوري الذي قام به تحطس الثالث هو الذي هبنا

الافكار للتوحيد . لان إله مصر لم يعد خاصاً بمصر بل صار إلهاً الامبراطورية : للدنيا

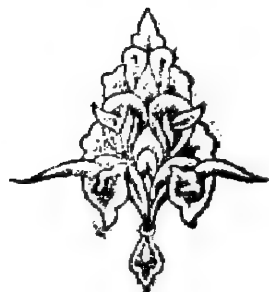
فاذا وصلنا الى اخناتون نجد أن مصر قد مضى عليها ٢٠٠ سنة وهي تتولى الحكم في امبراطورية

واسعة فيقسم التفكير فيها بالسمة العالمية . ويدعى اخناتون دعوة صريحة الى التوحيد . وهو يجد في رع أليق الآلهة لأن يتبوا مكان الإله الواحد . وهو يسميه انون من اسمائه القديمة ويدعو نفسه اخناتون أي الراضي بأنون

وقيمة التوحيد ككرة جداً لأنها تعني الاخاء البشري وان الناس كلهم سواء أمام الله اذ هي الديمقراطية الدينية للبشر . فليس لشعب ان يقول هذا ربي وليس ربكم . بل الكل سواء ولكن التوحيد الذي دعا اليه اخناتون في مصر أخذه الكهنة وعادوا الى عبادة الاصنام . ولكن دعاة اخناتون نجحوا في نشر التوحيد في آسيا

هذه هي قصة الفكر المصري الى عهد اخناتون (١٣٥٠ ق . م) وما بعد اخناتون ليس له قيمة كبيرة . وهذه القصة إن دلت على شيء فهي تدل على ان الشعب هو الذي يفكر وهو الذي ينكر المذاهب والاديان الصالحة في حين ان الكهنة يحبدون ويقاومون كل تطور

ان كثيراً من الامثال والحكم التي نمتد ان العرب أو الاغريق قد اخترعوها إنما هي من مخترعات مصر . مثال ذلك المثل القائل « القتل أتى للقتل » فانه مثل مصري قديم . وكذلك المقابلة بين القلم والسيف وان الاول أعظم من الثاني هو مثل مصري قديم . وما يسمى الآن أمثال سليمان التي بالتوراة إنما هي أمثال امينو موب المصري . وكثير من الادب الاغريقي في الياذة هو مبروس يعود الى قصص مصرية . والمصريون هم أول أمة عرفت أن الدماغ هو مركز العقل وانه هو الذي يسيطر على حركات الجسم



مظاهر الفكر

عند قدماء المصريين



لـ دكتور سامي جبره

أحد أمناء المتحف المصري والاساتاذ بكلية الآداب

أشعر باني أخذت على نفسي بحث موضوع كنت أعتقد في بادئ الامر أن من السهل تعريفه والامام بشيء من دقائقه ولكني أرى أني طلبت أمراً صعب المثل متراني الاطراف كلما أحاول الدنو منه يتعدعني وتحول بيني وبين عقبات كاداء وأشباح مظلمة تكاد تصرفني عن الغرض الذي أسمى اليه

إذا كنا نعرف في هذه الايام كلمة « فكر » بالنهاية القصوى التي يصل اليها العقل عند ما يريد التعبير بكلمات مختارة وجمل وجيزة عما يشهده الحس من شعور وصور . وإذا كان الفكر هو الصورة البارزة وترجماناً عما يشغل النفس من شك ويقين فشكل هذه الاحوال النفسية لا يستقر لها قرار كما تعلمون . وقد نحكم اليوم بطريقة ما على شيء عرفناه وقائبناه على وجوه شتى ثم نأتي في اليوم التالي ونحكم على هذا الشيء بطريقة تختلف عن التي اتبعناها في اليوم السابق لان أفكارنا مبنية على صور قد يتغير ما يحيط بها من ضوء فيتغير شكلها تبعاً لذلك . فمن الصعب اذاً أن نقفني سير هذه التغيرات وأن نقيدها بأسلوب ما . يفكر الرجل المصري بطريقة تحيط فكره بسياج من المنطق ويحاول الكاتب ان يضع حداً ونظاماً يقيد به مظاهر الاحساس المتقلبة فيخرج من هذا المنبع المتفجر نهراً صافياً مستقيماً المجري فيصير لتفكير الافراد قياساً وتفكير الشعوب نظاماً ايضاً . هذه حالة وصلت اليها الشعوب المتمدنية بفضل ما اكتسبته من ثقافة الاقدمين وبعد ان عاشت قروناً عديدة يقاسم أفرادها بعضهم بعضاً ساعات السرور والالام تحت سماء واحدة وبقيادة سلطة واحدة ، فكان لهذه الامم شعور عام وكان لها تفكير عام ايضاً . غير ان مظاهر الفكر هذه لم تكن موجودة بشكها الاكمل عند الانم القديمة . مثا وصلت مدينتها من الرقي . فقد كانت الامم القديمة في بدء حياتها مؤلفة من عناصر مختلفة وقبائل رحالة يخاصم بعضها بعضاً فتحط القبيلة المنتصرة رحلها ايها وجدت للعيش سبيلاً فيتدفق سيل عفائدها وقصصها على البلد المغلوب أو تقتبس القبيلة الظافرة أحياناً ما راء ملاءماً لعقائدها ومطابقاً لمشاربها من البلد المغلوب ولا سيما اذا كان أرقى منها مدنية

نعم كانت توجد رابطة الوحدة بين هذه القبائل واسكنها وحدة مبنية على العنف والشدة . ولم ينل السيف سبيلاً من أرواح هذه الشعوب ولم تقز القوة بطائل يمكنها من تعديل أفكار الناس وتحويل عقائدهم فالزم من وحده هو العامل الاقوى للتغير والتطور . ورغم هذه الاعتبارات وما يترتب عليها من مظاهر متناقضة للحركة الفكرية عند الامم القديمة ورغم مظاهر فكر اختلط فيها الساذج بالفلسفي يمكننا أن نحول جولة مثمرة في مظاهر الفكر المصري لان مصر طبعت بطابع خاص كل ما دخل عليها من العناصر الاجنبية بل نقدر أن نلمس هذا الطابع في كثير من أطوار تاريخ الامة المصرية

مظاهر الفكر المصري في الدولة القديمة، وأعني هنا بالدولة القديمة خلافاً للتقسيم المتفق عليه في بعض كتب التاريخ، العصر الذي يبدأ من الأسرة الأولى وينتهي في الأسرة العاشرة وهو عصر يشمل مدة الانحطاط والفوضى التي تلت الأسرة السادسة. يتدنى هذا العصر في القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد وينتهي في القرن الحادي والعشرين.

كانت مصر في عصر ما قبل الأسر كما هي الآن واقعة على حدود ثلاث قارات: قارة أفريقيا في الجنوب، وآسيا في الشرق، ثم اتصل بالجزر اليونانية وأوروبا بواسطة البحر الأبيض المتوسط الذي كان يفسر الجزء الأكبر من الدنيا. ولست في حاجة هنا إلى أن أبسط أمامكم تلك المناقشات المملة التي يريد أصحابها أن ينسبوا المدينة تارة لسكان الجزء الشمالي الشرقي لمصر وهي بلاد آشور وبابل وتارة لسكان الجزء الجنوبي الشرقي أو منطقة بلاد العرب الحالية. وذلك لا تألم أعرف لأن مدينة أقدم عهداً من المدينة المصرية، ولأن المدينة المصرية نشأت وازدهرت في وادي النيل. وأرى من المجازفة الأخذ بهذه النظريات والاعتماد عليها. ولكن هناك فكرة واحدة اتفق عليها علماء التاريخ وهي أنها ذكرها، وهي أن سكان مصر من الشلال الثاني إلى ممفيس كانوا مؤلفين في العصر السابق للأسر من الجنس الأبيض أو الجنس الليبي المصري ولم ترحف القبائل السوداء على منطقة الشلال الأول في عهد الأسرة السادسة.

تدل الجماجم المصرية التي وجدت في عصر ما قبل التاريخ وما بعده كما تدل أقدم التماثيل على أن الاجناس المصرية التي سكنت وادي النيل من قديم الزمان تنقسم إلى الاقسام الآتية: (١) الرؤوس الطويلة Dolichocephale وهم العنصر الأكثر عدداً في مصر ويقال عنهم أنهم حسنو الشمال ليسمى المريكة (٢) أصحاب الجبهة العريضة Brachycephale وكانوا يسكنون الحيزة وهم خشنو الطباع شداد المراس راجحوا العمول إذا نالوا قسطاً من المدينة (٣) أصحاب الرؤوس المتوسطة Mesaticephale ونجد عندهم صفات مشتركة من صفات أصحاب القسنيين السابقين.

استوطنت هذه العناصر صعيد مصر وشمالها وعاشت في بادية الامر، معيشة قبائل همدجية متفرقة ومنعزلة بعضها عن بعض. غير أن وادي النيل لا يصلح لمعيشة القبائل المتفرقة على أرضه فلا يصلح السكن في مصر إلا في أماكن قريبة من ماء النيل. وفيضان النيل يحتم على الأفراد الخروج من أوكارهم ووحدهم وقت الفيضان ويتطلب مجهوداً عظيماً يتعاون فيه العدد الأكبر من السكان لبناء الجسور وحفر الترع ولدفع غارات الفيضان. فالوسط دعا سكان مصر وهم في فجر تاريخهم إلى التعاون والاختلاط ثم الوحدة. وقد كان استعداد المصريين الفطري للتفكير أقوى باعث لهم على النهوض بسرعة من حالة الهمدجية إلى حالة أمة ذات مدنية راقية. وكان من مزايا نشاطهم العقلي أنهم عرفوا وهم في فجر حياتهم التاريخية كيف ينتفعون بهذا الفيضان وكيف يجعلونه

مصدراً لخبراتهم ونعمهم . وقد مكّنهم هذا النشاط الفكري من التوصل قبل غيرهم من الامم القديمة الى ضبط اصواتهم واسرارهم فجعلوا منها صوراً ثم مقاطع صوتية ملتصقة ثم أحرفاً صوتية مستقلة وبعبارة موجزة توصلوا بعد جهاد مشر الى ان يوجدوا لغة يتخاطب بها سكان وادي النيل ويتفاهم بها الناس لقضاء شؤونهم المهمة

أردنا أن نشرح ما لسكان مصر من الصفات العقلية قبل ان تنتقل الى البيئة وتأثيرها حتى ندرك اتجاه الفكر في مصر ومظاهره . ولا بد من دراسة الاثنين معاً حتى يتحدد ما لكل منهما من التأثير في حياة الامة . فالبيئة الحسنة لا تجدي نفعاً من دون النشاط العقلي ، والنشاط العقلي قد يعثره الخمول ان لم يجد بيئة حسنة ومجالاً يساعده على تحقيق ما يفكر فيه

ففي جنوب افريقيا وفي اواسطها اودية خصبة لم يقدر أهلها على تعبيرها لان عقولهم لم تنضج ، وفي الصحراء عقول راجحة لم تشر لان الوسط كان اكبر عائق لها . اما من جهة البيئة فقد كان للنيل أثر كبير في تطور الفكر المصري فهو الذي وجه جهود المصريين الى الحياة الزراعية والى العلوم الهندسية بل وقد كان النيل يتحكم احياناً في حركات المصريين فيجعلهم يعملون كالنحل بصبر وجلد متكافين كلما حل فصل الفيضان والزرع . غير ان هذه النعم تأثراً عكسياً فالعيشة في ارض خصبة تتجدد فيها فصول الفيضان بنظام دقيق لا يتغير أوجدت في نفسية السكان روح التواكل واستعداداً شديداً للمحافظة على العادات والتقاليد . ومن يذكر أمة زراعية يذكر أمة ذات تقاليد قديمة . وقد كان هذا المظهر الفكري الاخير ملازماً للمصريين في كل تطوراتهم . ولا اقصد هنا ان الصناعة والفكر لم يتطورا في مصر بل كان القديم يعيش مع الجديد جنباً الى جنب فيحول دون الوصول الى المثل الاعلى

توصل المصري كما ذكرنا وهو في فجر حياته الى انشاء لغة مؤلفة من أحرف صوتية كباقي اللغات الحية ولكنه احتفظ وقت الكتابة بالصور أو بمخصصات بعضها في آخر الاحرف الصوتية وأحياناً كان يستعمل المقاطع الصوتية غير المنفصلة . وهذه طرق كان يستعملها من سبقوه قبل ان يصلوا الى ترتيب الاصوات وتوزيع الحروف . ثم كان لذاك الوادي المسطح الارعاء تأثير آخر في عقلية المصري . واد تظله سماء صافية وتغمر أرضه شمس مشرقة دائماً تظهر الاشياء فيه على خط واحد واضحة الاشكال فيراها الناظر كما هي لا يدخل عليها ظل أو غموض فاذا صورها كانت الصورة طبق الاصل واذا وصفها كان الوصف بسيطاً رقيقاً متأثراً بجمال الطبيعة قوية ملكة الملاحظة عند المصري تحت هذا الضوء حتى استطاع ان يستمد من مشاهداته اليومية معاني لكلماته ونماذج لصناعاته ودروساً لعقائده فشلاً كان يكتب كلمة لحظة «^١» ثم يرسم في نهايتها صورة مخصصة لمعناها هي رأس فرس البحر لانه شاهد فرس البحر يطفو على سطح الماء

لحظة صغيرة من آونة الى أخرى. وكان يكتب كلمة مائة الف بأحرف صوتية تقرأ Hufen ويردفا بمخصص وهو الضفدع الصغير الذي تسبح المئات منه على سطح الماء في الترع وقت أيام الفيضان للمصري شغف شديد بالملاحظة وحب الاستطلاع وقد وجد في هذا الادب الصافي مجالا واسعا وبدأ يرصد السكواكب والنجوم فقسمها الى قسمين قسم سماه بالنجوم السيارة وقسم آخر أطلق عليه اسم النجوم الثابتة ثم لاحظ نجما يظهر في أفق ممفيس مرة واحدة في السنة قبل شروق الشمس بربع ساعة وكان من حسن الحظ ان انفق ظهور هذا النجم مع بدء فصل الفيضان فسمى هذا النجم بكلمة سبد Saped المجهر أو المبشر بموسم الزرع وجعل يوم ظهوره فاتحة السنة الزراعية وهو أول يوم توت. ويقول لنا علماء الفلك ان هذا النجم كان يظهر مرة واحدة بعد كل ٣٦٥ يوم وربع وقد ظهر لأول مرة في مكانه في القرن الثاني والاربعين قبل الميلاد وهو التاريخ الذي عرف فيه المصريون السنة الشمسية. غير ان كهنة هليوبوليس وممفيس كانوا يعلمون تمام العلم ما لعقائد الشعب وما لعاداته من قوة فاكثفوا بتسجيل هذا التاريخ في المعابد وتركوا الشعب يؤرخ حوادثه بالسنة العادية المؤلفة من ٣٦٠ يوماً. ولما اراد الكهنة ادخال خمسة أيام حتى يقرّوا السنة العادية من السنة الشمسية التجأوا الى بدعة خرافية لا أرى داعياً لذكرها هنا وقد أطلقوا على هذه الايام الزائدة أيام ولادة الآلهة حوريس وأوزيريس وإيزيس ونفتيس وست حتى لا يفزع السواد الاعظم من هذه التغيرات. هذه هي أهم مظاهر الفكر المصري وهو في بدء حياته التاريخية ويمكن ان نلخصها في ما يأتي: (١) استعداد فطري للتفكير نجده في العناصر النشطة التي عمرت مصر في عصر ما قبل التاريخ (٢) بيئة ملائمة لتوحيد السلطة وور واضح يقوي ملكة الملاحظة فيجعل المصري محققاً في صناعته بسيطاً في عباراته (٣) ميل الى التواكل والمحافظة على التقاليد والعادات

ولتبسط الآن كيف نمت هذه الصفات المتناقضة وما مظاهرها في تطور الفكر المصري اذا رجعنا الى تاريخ مصر قبل ان توحد الساطة فيها تحت لواء ملك واحد وجدناها منقسمة الى امارتين امارة الوجه القبلي وامارة الوجه البحري وكانت تنقسم كل منهما الى اقاليم ومدن ولكل من هذه الاقاليم والمدن إله وقصص واساطير مختلفة تفسر تارة تاريخ مصر وتارة مسألة الخليفة ولكن هذه الاساطير لم تكتب بل كان يتناقلها الابناء عن الآباء عن طريق الحديث الشفوي ولم تدوّن هذه الاساطير والقصص والعقائد الا في عهد ملوك الاسرة الخامسة على جدران حُجَرِ الاهرام في دهشور وصقارة

تشتمل نصوص الاهرام على فصول عديدة لم يراع فيها التبويب والتقسيم بل نجد فيها تضرعات وصلوات للملك المتوفى وادعاء لعقائد قديمة وانشيد لاوزيريس إله الموتى ولا إله

النيل حابي وتماويذ سحرية وقد كتبت بشكل خطاب موجه تارة للملك وتارة للإله
وما زلنا في حاجة الى الصبر والآناة لنصل الى تفسير هذه النصوص تفسيراً مرضياً غير
اننا نعرف انها كتبت في جُمل قصيرة حتى يراعى فيها الالتقاء والاوزان الشعرية التي تشبه
الترانيل ومن وقت لا نخرج في هذه الاناشيد جملاً لا تخلو من الصور الجميلة والخيال الشعري.
فتلاً نجد الجمل الآتية في خطاب موجه لاوزيريس وكلمة اوزيريس يقصد بها الملك المتوفي وهو
بلقائف التحنيط :

« قم وحل هذه اللقائف . إنها ليست لقائف تضم جسمك . بل هي خصلة من شعر نفثيس
أختك التي تبكيك . تبكيك السماء . تتصدع الارض أسى لفراقك . يتلبد الجو بالغيوم وتمطر
النجوم حزناً . ويقف الحراس خشعين عندما يمر روحك »

ونجد في نصوص الاهرام رقم ١٥٥٣ - ١٥٥٤ وصفاً للنيل :

« تضطرب القلوب خوفاً عند تلاطم أمواجك يا حابي (اله النيل) . ولكن تضحك الحقول
وتزدهر الضفتان . فهاؤك هبة السماء للارض تجعل الناس يسجدون لك بقلوب طروبة »

نعم لم تدوّن عقائد المصريين وقصصهم إلا في عهد الأسرة الخامسة ولكن لنا من حسن
الحظ كثير أمن الآثار التي يرجع تاريخها الى الأسرة الاولى والثانية أو قبل الأسرة الخامسة
بخمسمائة سنة . وقد أراد المصريون في كثير من هذه الآثار أن يصفوا لنا بعض الحوادث السياسية
أو الاعياد الدينية ، واستعراض بعض هذه الحوادث وتفسيرها يمكننا من الاطلاع على أول
مظاهر الفكر وطريقة التعبير عنه . وأول شيء يلفت أنظارنا في بعض الآثار المأخوذة من الأسرة
الاولى وما قبلها هو اكتثار المصري من استعمال الصور والرموز لوصف هذه الحوادث وهذه
الاعياد اذ كان من العسير عليه ان ياجأ الى لغته المكتوبة لان الكلمات المكتوبة لم تزل قليلة
ولأن وصف هذه الحوادث يتطلب اسلوباً مرئياً لم يك من السهل العثور عليه في لغة حديثة
العهد . ومع ذلك ترداد دهشتنا عند ما نلاحظ ان كثيراً من هذه الصور كان متقن الصنع وقد
راعى الصانع فيه بعض القواعد الفنية كتناسب الاوضاع وبساطة الصور مع خفة الحركة فكان
الصناعة الفنية ولدت قبل صناعة الكلام

ومن هذه الصور صورة تمثل اميراً من أمراء الوجه القبلي يرأس حفلة زراعية بعد انتصاره
على سكان الدلتا ومن بقي من سكان الوجه القبلي . نجد هذا الامير واقفاً على ضفة نهر قابضاً
على فأس يشق به الارض الى ان يصل الى العمق المحدود فتفجر المياه وتنساب في الارض
حتى تضحك الحقول وتزدهر ضفتا النيل كما يقول لنا المصري في نشيده للنيل . ولا شك في
ان هذه الصورة الرمزية تبرهن لنا على ما للحياة الزراعية من المقام . حتى ان أمير البلاد يرأس

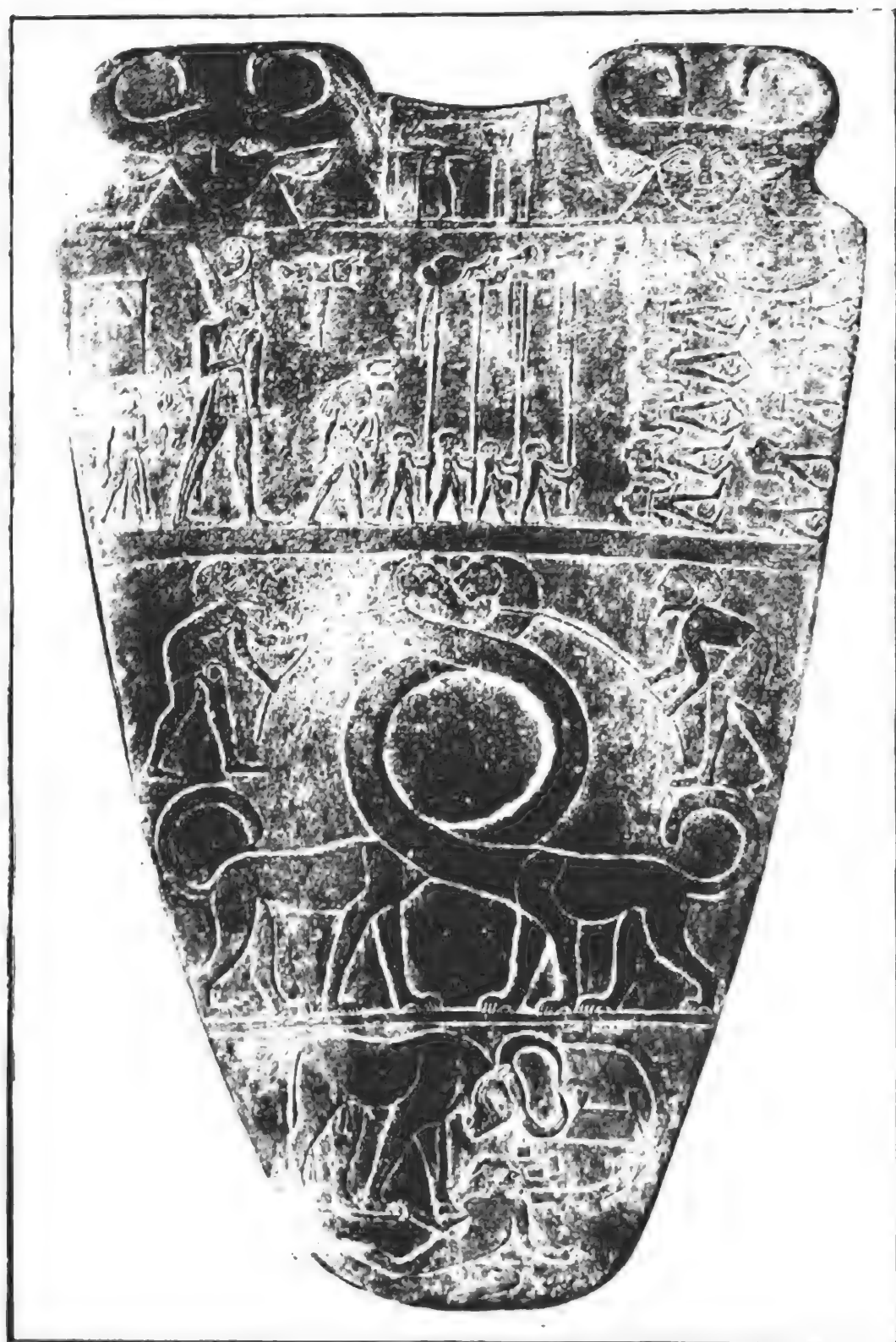
هذه الحفلة بنفسه . وقد قيل لي ان في بلاد الحبشة عادة تقرب من هذه العادة وهي ان الملك تذهب الى الحقول وقت الحصاد وتفتح فصل الحصاد بيدها

ونعمة صورة اخرى تضاف لنا المرحلة النهائية لتوحيد السلطة في الوجهين القبلي والبحري فنرى الملك نارمر او من متوجاً بتاج الوجه القبلي يتأهب لضرب احد الاعداء في الشمال الشرقي بالدفلة وأعداء آخرين يتأهبون للهروب . وعلى الجانب الآخر من هذه اللوحة نجد الملك متوجاً بتاج الوجه البحري تتقدمه اعلام القبائل التي اتحدت معه وعاونته في مهمته ثم نجد اجساماً قطعت رؤوس اصحابها ووضعت الرؤوس بين الأرجل ولما اراد الصانع ان يحدثنا عن شدة عزيمة الرئيس وابطشه في ساحه القتال شبهه بثور يدمر حصون قلعة بقرنيه

ولوحة ثالثة مأخوذة من قاعدة تمثال الملك خاسنجم احد ملوك الاسرة الثانية ، وقد اراد الصانع هنا ان يصف لنا انتصار الملك على قبائل الليبيين والنوبيين قتل لنا معركة واجساماً وقعت على الارض تحت سهام قواد الجيش وها نرى منهم من يفزع ومن يحتضر ومن يهرب . في كل هذه اللوحات الثلاثة لا نجد ما يزيد على العشر كلمات وكلها اسماء اشخاص او اسماء بلاد او عدد الاسرى

بدأ المصري اذاً يعبر عن افكاره بصور ورموز ظهرت فيها قوة الملاحظة ودقة الرسم ولكن انى وقت اضطر فيه ان يعالج بعض المسائل الدينية والادبية التي تحتاج الى كثير من الاسترسال والامعان فنجدته يتقل من المرحلة الاولى ويستعين بالكتابة بل يكثّر من الكلام المكتوب غير انه لم يسع في الخلاص من الرموز بل كان يكتب الرمز كتابة ويصوره تصويراً يعقبه بجمل قصيرة متكررة فيخيل للناظر السطحي ان التعبير ركيك وان المعنى ساذج مع ان لهذه الرموز والصور مغزى فلسفياً يدل على الاسترسال والتعمق في الفكر

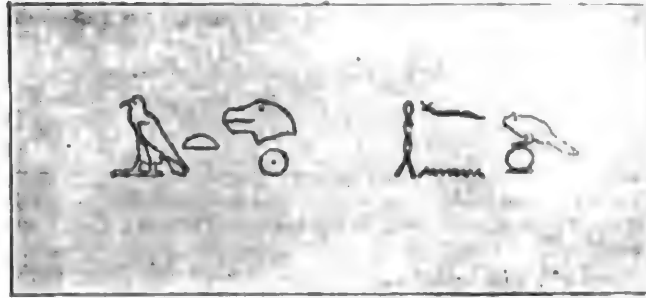
سأل Porphyre احد تلامذة المدرسة الافلاطونية في الاسكندرية التي كان رئيسها افلوطين في سنة مائتين وخمسين بعد الميلاد صديقاً له مصرياً وكاهناً اسمه Anibo (مشتقة من Anibus (الاله المصري) لماذا يستعمل المصريون رموزاً منظورة للتعبير عن قوة الاله الكامنة وغير المنظورة ؟ فأجابه الكاهن المصري ان قوة الخالق تظهر لنا في كل مخلوقاته وان جمال هذه القوة يتحقق في كثير من هذه الرموز التي يستعملها الكهنة المصريون في عبادتهم . يمثل لنا المصريون الاله جالساً فوق زهرة اللوتس وزهرة اللوتس مقدسة عند المصريين لان حبوب هذه الزهرة تنمو داخل غلافها ثم تمزق هذا الغلاف وتتخذ الماء عرشاً ثم تزهر على سطحه ولأن شكل اللوتس يشبه الدائرة والدائرة تشبه قوة العقل التي تدور حول نفسها في كل مظهر من مظاهر النشاط العقلي والعقل نفسه مظهر الاله الاكبر في خليقته



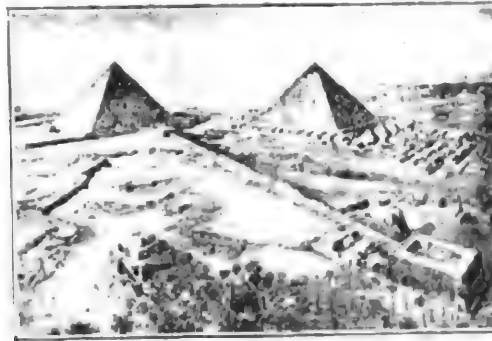
فكان الصنعة الفنية ولدت قبل صنعة الكلام (ص ١٠٧)



ثلاثة أمثلة لثلاث جماجم ص ١٠٤



التعبير عن المعاني بكلمات تردف كل كلمة منها بصورة مخصصة ص ١٠٦



فكرة إعادة حلقة الزمن في بناء الاهرام ص ١٠٩



للتعبير عن حياة الانسان في الحياة الابدية ص ١١٠

عالج المصريون مسألتين كبيرتين وهما مسألة الخلود او الابدية ومسألة الخليفة
خلود او ابدية عند المصريين معناه تجدد دائم وتكرار حلقة الوقت والزمن وسلسلة الزمن
لا يقطعها الموت، وما الموت الا طريق يعبر منه الانسان حتى يتمكن من تجديد حياة اخرى
لا تخلو من الشبه بالحياة المادية السابقة

تقول ايزيس في رثائها لاوزيريس نقلاً عن نصوص اهرامات الأسرة السادسة: —
أنت الذي رحلت عنا سترجع إلينا مرة ثانية. أنت الذي تمت ستستيقظ. أنت الذي مت
ستحيا. قف فحسبك لا يفتنى الآن وستبقى للأبد

ونجد في موقف آخر في نصوص الاهرام ما يأتي: —

لم يمت الملك تبتي بل يعيش الى الأبد. من قال أنك مت أنك بلغت المرسى

قم قف فأنت نجم ساطع لا يفتنى بل يعيش الى الأبد

ونجد نظرية رجوع الزمن وتكراره الدائم حتى في قصص المصريين فنجد في قصة سينوحي

وقد طالت به العربة في صحراء سيناء ما اسعد من يموت في بلدة ولد فيها

نجد ايضاً فكرة إعادة حلقة الزمن في بناء الاهرام وفي صناعة التمثال

كلمة فرعون معناها صاحب البيت العالي. كان يمتاز فرعون وهو حي بعلو مسكنه وبجلال

مكانته فهو خليفة الله على الارض وهو الوسيط بين الشعب وربه وفيه يجد المصريون رمز

الوحدة والسلطان. فالاهرام العالية الذرى هي بيوت فرعون الابدية ومنها يشرق على شعبه كما

كان يشرق عليهم وهو في حياته. ونرى مقابر حاشيته تحيط به وهم عند قدم الاهرام كأنهم

يركعون خشوعاً ويشخصون اعجاباً كما كانوا يفعلون وهم على قيد الحياة

اما التمثال فهو مسكن الروح اذا فنى الجسم وفي التمثال نجد صورة ناطقة للملك تلوح عليه

سمات الجلال والسكون فهو جالس على عرش رسم على احدى جوانبه صورة اللواتس والبردي

يتعانقان وهما رمزان لقوات الوجهين القبلي والبحري

لم يفرق المصري بين الابدية المطلقة التي لا علاقة لها بالزمن حيث لا توجد بداية ولا نهاية

وبين ابدية زمنية يتوقف امدها على الطبيعة ولما اراد ان يفسر لنا مصير الانسان في الحياة

الابدية قسم الجسم الى ثلاثة اقسام Akh و Ba و ka ويلوح لنا من غموض النصوص التي تشرح

هذه الاقسام ان المصري جمع شتات عقائد منتشرة في وادي النيل وحاول ان يدمجها في عقيدة

واحدة. يقصد المصري بكلمة كاه. ظهر العقل والخلق في الانسان. يرافق الكاه الانسان في

هذه الحياة الدنيا ويقوده في الآخرة ولكن لا بد ان يلتقي الكاه بالجسم او ما يحل محله والا

كان مصيره الفناء وقد ملوه بشكل ذراعين رفوعتين للفضاء للتضرع والحماية. وما زلنا نجد في

الفرى المصرية عقيدة تشبه عقيدة السكاء في كلمة قريبة اما عند الامم الغربية فيعبرون عن كلمة كاء بكلمة الملاك الحارس Ange Guardian

اما الباء فصوره المصريون على شكل طائر بوجه انسان له ذراعان يقبض باحدهما على علامة الريح وبالاخرى على علامة القوة . اما وجه الانسان فهو صورة الله واما الريح فمعناه ان الهواء روح الانسان وكلمة روح Ba. Animus لهما معنى واحد

يحكى في قصة مصرية معروفة بورقة Westea ان الملك خوفو كان حزين النفس فأحضرت له الحاشية عرافاً قديراً على قطع رقاب الحيوانات وردها الى الجسم قبل ان تفارقه الروح فطلب منه الملك خوفو ان يقطع رقبة اسير ويردها الى الجسم . فأجاب العراف : مولاي، ان الانسان صورة الله وهو حيوان مقدس . فلم يشدد الملك في طلبه وتركه يقطع راس طائر وردها . وجاء في سفر التكوين الاصحاح الاول : وقال الله فعمل الانسان على صورتنا وشبهنا ونفخ في انفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية . ونجد في نصوص الاهرام الجمل الآتية في وصف Ba « انت روح . انت آله . ان روحك لك فلتعش وان تموت »

اما كلمة اخ Akl فهي الحالة الكاملة التي يصل اليها الانسان بعد موته فيصير نجماً ويصبح في مصاف الالهة كان هذه الاقسام لا تنفصل بعضها عن بعض وعن الجسم او ما يحل محله فالسكاء يعيش مع الجسم والروح لازمة للسكاء ولا مندوحة عن هذا وذاك قبل ان يصير الخلق اخ او يدخل في مصاف الالهة

ترون مما تقدم ان المصري حاول التفكير والبحث فيما وراء الطبيعة وقد فكر في مسألة الروح والعقل فتارة يسمو الى جميل التعبير المعنوي وتارة يهوي الى الماديات فيخلط بين المادي والروحي ويفسر الروحي بالمادي ويتصور ملكوت السماء على شاكلة ملكوت الارض

كيف انتقلت مضارة مصر



لوريناز عبر الرهادى حمادة

الامين المساعد بدار الآثار المصرية
ومدرس اللغة المصرية بمعهد الآثار

تناول حضرات من سبقوني تراث قدماء المصريين للحضارة العالمية ، فوقفوا المواضع حقها من البحث ، وكشفوا لنا عن طرف هام من حضارة مصر ، وآثارها في حضارات العالم ، ولم يبق علينا الآن إلا أن نستقصي أثر تلك الحضارة وكيفية انتقالها من مصر الى غيرها من الامم ، وهذا ما أحاوله في هذا المقال

ومن حسن الحظ أن الاكتشافات الحديثة قد هيأت لنا كل السبل اللازمة للبحث والاستقصاء ، مذ توجهت عناية الباحثين من علماء الآثار والمؤرخين الى الحفر في انقاض المدن القديمة . فمن أواخر القرن الماضي فصاعداً ، توالت الحفائر بمصر وسوريا وآسيا الصغرى والعراق وفلسطين وكريت وغيرها ، وكانت النتيجة أن وصلنا الى آراء تكاد تكون ثابتة عن أصول المدينات الجديدة . وأضحى لدينا البراهين الملموسة على مبلغ ما أسدى الشرق القديم — وبالأخص مصر — الى أمم العالم أجمع ، في جميع نواحي المدنية من فن وعلم وفكر وثقافة . ولكي نتبع أثر الحضارة المصرية في أدوار انتقالها الى الامم الاخرى في الازمنة المختلفة ، ينبغي علينا أن نرجع الى العصور الاولى لمنشأ تلك الحضارة ، وأن نتناول أيضاً طرفاً من تاريخ الامم التي كانت على اتصال بها

ولتشعب الموضوع رأيت أن أقسمه الى قسمين أطلّقتُ على الاول منها عصر التكوين ، وهو العصر الذي تكونت فيه الحضارات المختلفة التي ضربت الحضارة المصرية بسهم وافر في تكوينها ، واطلّقتُ على الثاني عصر الانتشار ، وهو العصر الذي توثقت فيه عرى الاتصال بين مصر والامم الاخرى ، وانتقلت فيه حضارة ناضجة من مصر الى تلك الامم ، كما امتدت حضارات تلك الامم الى باقي انحاء العالم . ويقضي الترتيب الطبيعي أن نبدأ بالقسم الاول قبل المسيح بنحو خمسين قرناً كان العالم كله لا يزال غارقاً في بحار الهسجية ، بالرغم من أنه كان قد بلغ العصر الحجري الحديث . ومنذ ذلك الوقت ، ابتدأت الحضارة تغزو بعض أجزاء العالم . فكانت كما غزت بقعة من البقاع انتقلت من ظلمة الجهالة الى نور العرفان . وقد كان هذا بطبيعة الحال في عصور مختلفة وتحت تأثيرات متباينة . فبينما نرى نواحي من العالم قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق المدنية والتقدم ، اذ بنا نجد نواحي أخرى منه قد ظلت في عصورها الحجرية عشرات القرون بعد ذلك

واذا أردنا أن نتكلم عن الجهات التي غزتها الحضارة في عصور مبكرة كان علينا أن نلقي نظرة على جزء من العالم يمتد من البحر الاسود وبحر قزوين شمالاً الى حدود مصر جنوباً ، ومن حدود الهند شرقاً الى بلاد ايطاليا غرباً . على أن مهد الحضارات الاولى يكاد لا يشمل إلا

(لوحة رقم ١)

في هذا الجزء من العالم نشأت حضارات مختلفة ونمت وازدهرت ثم تصادم بعضها ببعض فاندثرت حضارات وقامت مكانها أخرى ، واتحد بعضها الآخرُ ببعض فتكونت حضارات جديدة وأهم هذه كلها ثلاثُ حضارات تكونت في أزمنة مبكرة وفي أوقات متفاوتة . وتلك هي : حضارة المصريين في وادي النيل ، وحضارة البابليين في حوض نهري الدجلة والفرات وحضارة جزر بحر ايجي وأهمها جزيرة كريت وكان أقدم تلك الحضارة ، الحضارة التي تكوّنت في وادي النيل ويرجع تاريخ منشئها

غالباً الى نيف وخمسة آلاف سنة قبل المسيح . ولا حاجة للتدليل على ذلك ما دام ثابتاً انه كان للمصريين تفويم فلكي في سنة ٤٢٤١ ق . م . فهذا ولا شك أثرٌ من آثار حضارة متقدمة جداً لا بد وأن تكون قد نشأت قبل ذلك التاريخ بمدة قرون . وقد سمعنا في المحاضرات السابقة الكثير عن الحضارة المصرية في نواحيها المختلفة . أما الحضارة الثانية فهي حضارة لا تقل عن حضارة مصر . وان ترجّح الآن انها تلوها في القدم وهذه هي حضارة بلاد ما بين النهرين

ففي أواخر الالف الرابع قبل المسيح ظهرت حضارة في شمال الخليج الفارسي عند مصب نهري الدجلة والفرات . ويظهر ان قوماً جبليين نزّلوا من الجبال الشمالية الشرقية الى تلك الجهة . لم يكن هؤلاء القوم ساميين ، اذ كشفت الحفائر التي عملت في السنوات الاخيرة ببلاد التركستان ، عن آثار لا تختلف في قليل أو كثير عن آثارهم . وهؤلاء القوم هم المعروفون بالصوميريين . وكانت لهم حضارة فزرعوا الوادي الخصب ، وعرفوا العجلات ، واستخدموا لجرّها الثيران والحمار ، واستعملوا النحاس في صناعاتهم ، ونظّموا دولة وتجارة ، وأثبتوا لغتهم بالكتابة التصويرية ثم أخذوا في تبسيطها حتى أصبحت الكتابة المعروفة بالمسمارية . واستقر في شمال موطنهم قوم ساميون ، بارعون في الحروب ، يدعون الاكاديين . وبالرغم من أنهم كانوا أقل حضارة من الصوميريين الا أنهم أغاروا عليهم وتمكنوا من فتح بلادهم . ثم اتحد هذان العنصران وتكونت منهما أمة عظيمة ، هي الامة البابلية نسبة لبابل قاعدة ملكهم . وقد أثبت التاريخ في بطون صفحاته ملكهم العظيم « هامورابي » الذي عاش قبل المسيح بـ ١٠٠ عام ، وما قام به من الإصلاح والتنظيم في جميع نواحي الحياة ، لاسيما ما وضعه من القوانين

هذا هو الطور الاول للحضارة التي تكونت وازدهرت في حوض نهري الدجلة والفرات . وهي إحدى الحضارات الثلاث التي أشرنا اليها . وكانت أساس حضارة الطور الثاني بتلك البلاد ، كما كانت ذات أثر واضح في تكوين حضارات أمم أخرى . وفي هذا الطور من تاريخ بلاد ما بين النهرين ، يرجح أنه لم يكن هناك صلات مباشرة بينها وبين مصر ، اذ ليس لدينا حتى الآن دليل على أن الأمتين كانتا مختلطتين . غير ان حضارتهما اتصلتا بالفعل عن طريق أمة أخرى كانت ذات أثر فعال في حضارات الامم القديمة وهي الامة الفينيقية

والفينيقيون الذين اشتق اسمهم من كلمة Poivos ومعناها أحمر ، ويغلب أن يكون الرومان قد أطلقوها عليهم بسبب لون جلدهم ثم قوم رحّل أنوا من جهة الخليج الفارسي ، واستوطنوا الجزء الشمالي من الشاطئ . الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . وقد هيأت لهم الظروف المحيطة بهم نوع حياتهم ، فقد وجدوا طريق البحر بسواحلها وما فيه من جزر قريبة منبسطاً أمامهم ، كما وجدوا في متناول أيديهم الاخشاب اللازمة لبناء السفن . فأصبحوا بحارة وتجاراً من الطبقة الأولى .

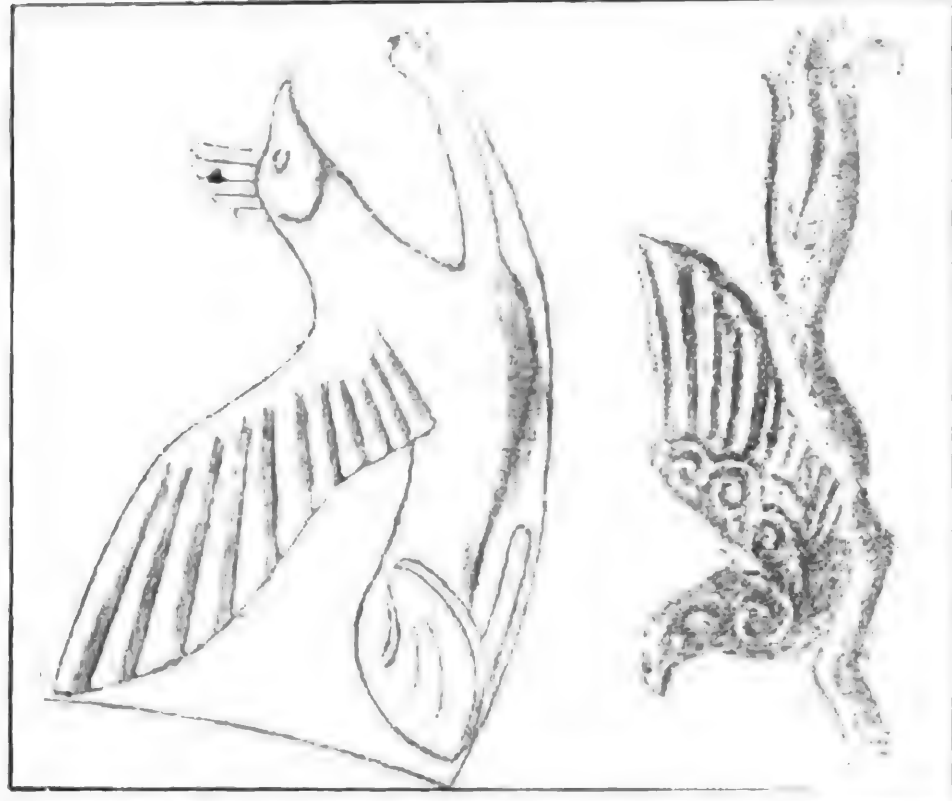
لا سيما وأنهم بعد أن تعلموا الفلك من المصريين لم يوجهوه الى التنجيم والسحر ، كما فعل غيرهم من الأمم الشرقية بل انتفعوا به في حياتهم ، واتخذوا منه أداة لجوب البحار ومعرفة سبلها ليلاً ونهاراً وقد أسسوا على شواطئ البحر الايض مدناً أصبحت فيما بعد أعظم المراكز الهامة للتجارة وبقيت سماؤها خالدة في التاريخ . ومن منا لم يسمع عن أرواد وصور وصيدا وحيل وسمارا وعكا وبيروت ؟ استقر هذا الجنس في فينيسيا منذ الالف الثالث قبل المسيح ، ولم تكن هؤلاء القوم حضارة خاصة ، لكنهم اتصلوا بالمصريين وأخذوا عن حضارتهم ، كما اتصلوا بالبابليين واقتبسوا من حضارتهم ، وكوّنوا لانفسهم حضارة قائمة بذاتها ، ولكنها في الحقيقة مزيج من الحضارتين المصرية والبابلية . وكما كانت لهم سفن تجوب البحر بمناجرهم وتصلهم بالمصريين وغيرهم ، كانت لهم كذلك قوافل تسير على حافة الهلال الحصب بين البحر الايض والخليج الفارسي وتتصل بالحضارات التي نشأت هناك والتي كان على رأسها الحضارة البابلية

وقد أخذوا عن المصريين الكثير من أساليبهم في جميع شؤون الحياة من فن وصناعة وعلم وفكر ، ف تعلموا منهم صناعة القيشاني والزجاج ونسج الكتان والصباغة وصناعة المعادن بأنواعها . وكان فنهم في الزخرفة مزيجاً من الفنين المصري والبابلي . ولكن أهم ما أخذوه عن مصر شيئان هما في الحقيقة عناصر الحضارة الاولى في ذلك العصر ، وهما استعمال النحاس والكتابة . فقد اقتبس الفينيقيون الحروف الهجائية المصرية وعددها اثنان وعشرون حرفاً من الخط الهيراطيقي وحوّروا في أوضاعها قليلاً للتبسيط واستعملوها لكتابة لغتهم التي كانت ولا شك لغة سامية . وقد أصبح واضحاً في الأذهان أن اتصال هؤلاء القوم بالمصريين يرجع الى أوائل عصر الدولة القديمة بمصر . وبلغ من شدة صلتهم بالمصريين بعد ذلك أن أقطعهم ملوك مصر حيناً خاصاً بهم في مدينة منف ليكون سكناً لهم ومركزاً لتجارته

والحضارة الثالثة هي حضارة جزر بحر إيحي . وأسبق هذه الى الحضارة وأعمها كانت جزيرة كريت . فبحر إيحي الذي يشبه بحيرة كان محاطاً من جميع جهاته بأرض تسكنها أمم متحفزة لا أخذ قسطاً من المدنية . وجزيرة كريت هي مفتاح هذا البحر ، وتكاد تكون القنطرة الطبيعية بين الشرق والغرب . ومنذ الالف الثالث قبل المسيح ظهرت بها مبادئ حضارة أخذ في تكوينها جنس أبيض موهوب . وظهر استعمال النحاس في الجزيرة من أوائل الالف الثالث قبل المسيح . ولا شك أنهم أخذوه من مصر ما دام قد ثبت أن اتصالهم بالمصريين يرجع الى عصر بناء الاهرام بمصر او قبل ذلك . ويكفي دليلاً على ذلك ورود اسمهم « كفتو » في النصوص المصرية منذ ذلك العصر . ومن منتصف الالف الثالث قبل المسيح ابتدأ الكريتيون يتعلمون من المصريين صناعة الحزف والصناعات المعدنية . غير أنهم — والحق يقال — عند ما جاء الالف الثاني قبل الميلاد كانوا قد

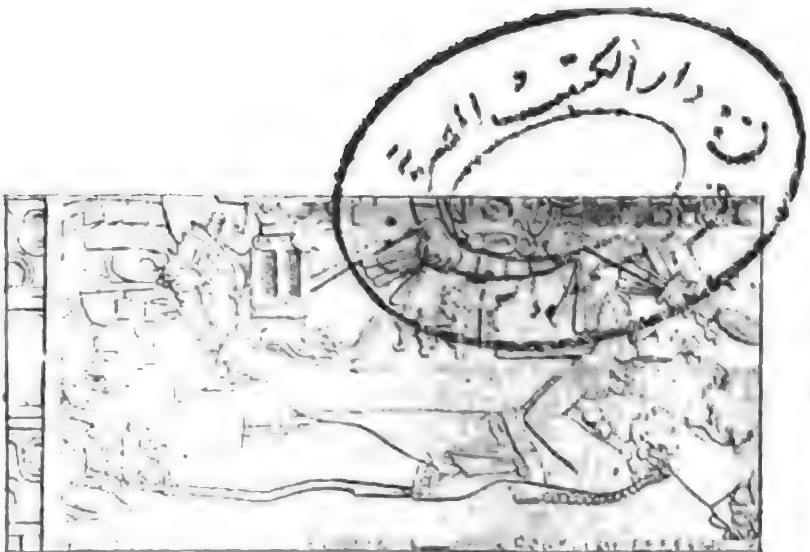


١ - صورة قطعة من الخشب من مغارة نوت عنيخ امون ، كانت مستعملة عند قدماء المصريين لصيد الطيور في المستنقعات حيث يكثر بكثرة نبات البردي
٢ - صورة لنفس هذه الآلة التي استعملوها لتعصف القفري خفيفاً من استراليا
المقابلة وهي تعرف هناك باسم اليومبراني ولا تزال مستعملة الى الآن



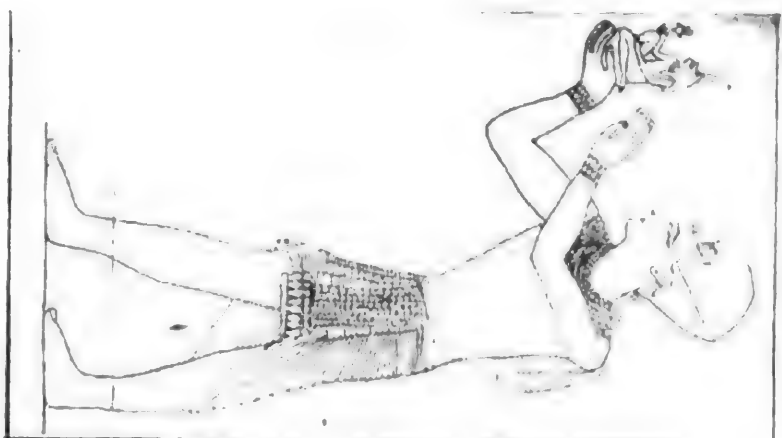
(١) فوق - تمثال الحيوان الجناح عند المصريين
(٢) - تمثال نفس الحيوان كما وجد في الصور السينية

(لوحة رقم ٥)



٤ — مكيكية

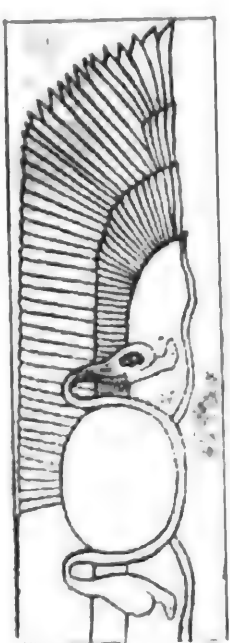
٢ — صورة منقولة من نقوش هيكل
احد معابد الشمس في « بالفتك »
بولاية « شياياس » بالمكسيك الجنوبيه وهي
متأثرة ولاشك كل التأثر بالصورة الاولى



٣ — مصريه

١ — تمثال الملك ستي الاول
يقدم رمز الخلق « ماعت »
لاحد الآلهة وهي منقولة
عن معبد ابيروس

(لوحة رقم ٢)



١ — مصريه

١ — تمثال قرص الشمس ذا الاجنحة تكتفه
من الجانبين الحية المقدسة



٢ — اشورية

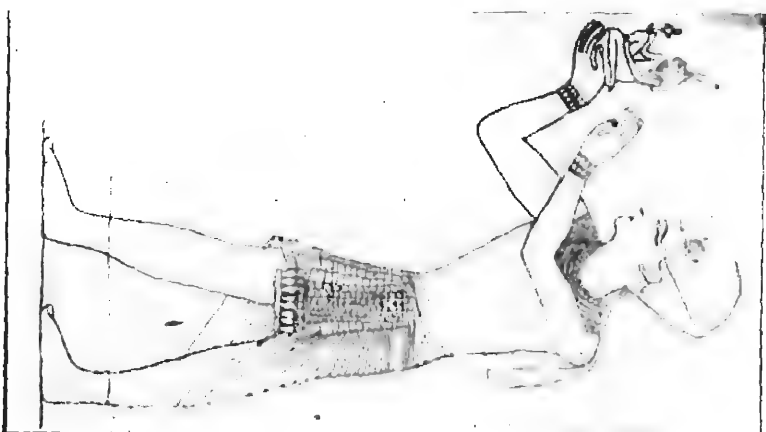
٢ — تمثال الآلهة الاشوري « اهورا مزدا »
في دائرة على مثال قرص الشمس
يمسكه من الجانبين جناحها

(لوحة رقم ٥)



٤ — مكسيكية

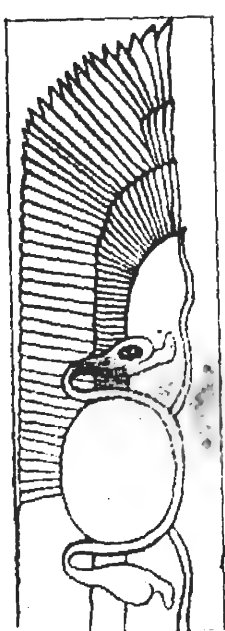
٢ — صورة منقولة من نقوش هيكل
احد معابد الشمس في « بالفتك »
بولاية « شياباس » بالمكسيك الجبوية وهي
متأثرة ولا شك كل التأثر بالصورة الاولى



٣ — مصرية

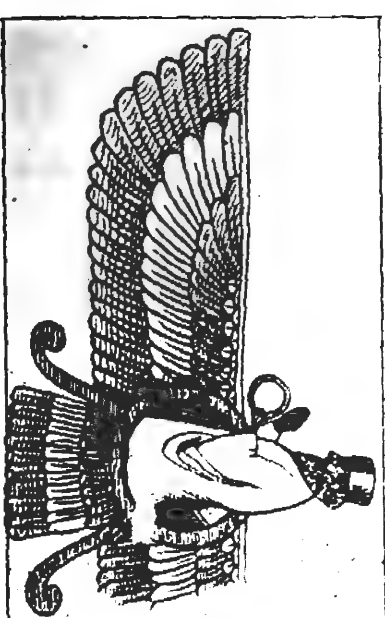
١ — مثل الملك ستي الاول
يقدم ومن الخلق « ماعت »
لاحد الآلهة وهي منقولة
عن معبد ابيروس

(لوحة رقم ٢)



١ — مصرية

١ — مثل قرص الشمس ذا الاجنحة تكتفه
من الجانبين الجية المقدسة



٢ — اشورية

٢ — مثل الآلهة الاشوري « اهورامزدا »
في دائرة على مثال قرص الشمس
بشقه من الجانبين جناحها

فاقوا أسانذتهم في تلك الصناعات وقدّموا للعالم أواني فخارية ومعدنية تعتبر أرقى ما وصل إليه الإنسان من البراعة في الصناعة والفنون . وقد أجريت في السنوات الأخيرة حفائر بالجزيرة أظهرت لنا عظم الصلة بين حضارتها وحضارة مصر ، وقد رأيت التشابه الكبير بين أواني كريت وأمثالها من الأواني المصرية التي عرضها عليكم أحد الزملاء في محاضرة سابقة . أما في القصور التي بناها ملوك كدوسس فأثر الحضارة المصرية واضح جلي . وكما أخذ الكريتيون عن حضارة مصر اقتبسوا أيضاً من حضارات الأمم الأخرى لاسيما الفينيقيين ، ولكنهم وجهوا تلك الحضارات وجهة خاصة بهم . غير أن الأصول المصرية ترى واضحة الظهور فيها

هكذا تكونت الحضارات الثلاث الأولى التي تعتبر أسس حضارات العالم وقطعت شوطاً بعيداً

في التقدم ولم يحل بعد الألف الثاني قبل الميلاد

فاذا كان أوائل الألف الثاني قبل المسيح . إذ بأم أخرى في أدوار تكوين حضارتها . واذ بعوامل جديدة تشترك في تكوينها ، فقد اتصل الفينيقيون بسل الحضارة المصرية بأم آسيا الغربية ، ركان أهم من اتصلوا به بعد البابليين هم الحيثيون الذين كانوا يسكنون آسيا الصغرى . وكان هؤلاء على اتصال دائم بمهدين للحضارة هما بلاد ما بين النهرين وجزر بحر إيجه . غير أنهم تأثروا بتلك الحضارة الجديدة الوافدة إليهم ، وساعد على ظهور صبغة عالية لحضارتهم فيما بعد عاملان ، أولهما وجود معدن الحديد في جبالهم الواقعة عند سواحل البحر الأسود الجنوبية . وثانيهما معرفتهم بالخيل . اذ كان لهذين العاملين أثر كبير في حروبهم وحضارتهم ، على أن اتصال الحيثيين بالحضارة المصرية لم يكن فقط عن طريق الفينيقيين . اذ أن الحيثيين قد اتصلوا أيضاً بفلسطين موطن اليهود في ذلك العصر . ولا داعي أن نذكر أن يهود فلسطين كانوا قد تحضروا بالحضارة المصرية من بدء تاريخهم اذ عاشوا أكثر من ألف عام في كتف المصريين حتى خرجوا مع موسى وناهيك بما نقلوه عن المصريين في تلك القرون الطويلة من عوائدهم وأفكارهم وعلومهم على الوجه الصحيح

ولمّا لو اعتبرنا حضارة الحيثيين أقل بكثير من حضارة مصر وبابل ، فإننا لا يمكننا أن

نشكر أنها لعبت دوراً هاماً في مجموعة الحضارات المجاورة لبحر إيجه وحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي . غير أن أهم دور لعبه الحيثيون كان في حياة الآشوريين . فأشور التي نشأت تحت نفوذ الصوميريين سكان دلتا ما بين النهرين كانت في ذلك الوقت في دور تكوين حضارتها . والآشوريون ورثة الحضارة البابلية كانوا على اتصال دائم من جهة الشمال والغرب بأم أخرى كلها ذات صلة بالحضارة المصرية بالفينيقيين والحيثيين ويهود فلسطين . وقد عرض عليكم بعض الزملاء في محاضرة سابقة صوراً تبين أثر الحضارة المصرية في حضارة آشور ، وأرى أن أعرض عليكم الآن صورة أخرى يرى فيها الارتباط بين الأفكار المصرية والآشورية (أنظر لوحة رقم ٢)

تحت كل هذه المؤثرات تمت وأبنت الحضارة الاشورية الكلدانية وكونت الطور الثاني من حضارة بلاد النهرين وكان لها تأثير عظيم في أمم آسيا على وجه عام وفي أمة الفرس على وجه خاص ولعظم أهمية الامة الفارسية في تاريخ الحضارات نرى لزماً علينا أن نشير بطرف الى شيء من حضارتها . فالفرس يمكن تسميتهم بحق أسلاف الاوربيين فهم من الجنس الآري الذي احتل الجزء الممتد من حدود الهند الشرقية الى المحيط الاطلانطي وكانوا يتكلمون لغة هي التي اشتقت منها اللغات الاوربية . انتشر هؤلاء القوم وتفرقوا فتطورت لغاتهم وأصبحت رطانات متباينة ومن ذلك الفارسية القديمة واليونانية واللاتينية والسنسكريت المعروفة في الهند الشرقية . وقد نزع بعضهم الى البلقان واستقر بعضهم بإيطاليا . اما من بقي منهم في الشرق فقد رحل الى الهند واستوطن بها أو استقر غرب الخليج الفارسي . وهؤلاء الاخرون ظلوا يدعون باسمهم « ايرانيون » . اختلط هؤلاء الايرانيون بالامم الشرقية بغرب آسيا وتكونت لهم حضارة خاصة لم تظهر الا في عصر الانتشار لكنها تمت تحت تأثير حضارة الاشوريين ببلاد ما بين النهرين . اذن فهي لا تخلو من عناصر مصرية . وقد زاد تلك العناصر المصرية في حضارة الفرس ما نقله الفنيقيون منها الى تلك البلاد عن طريق

الفينيقيون	المصريون	اللاتينيون	الفرس
𐤀	𐎀	A	𐎠
𐤁	𐎁	B	𐎡
𐤂	𐎂	C	𐎢
𐤃	𐎃	D	𐎣
𐤄	𐎄	E	𐎤
𐤅	𐎅	F-V	𐎥
𐤆	𐎆	Z	𐎦
𐤇	𐎇	H	𐎧
𐤈	𐎈	...	𐎨
𐤉	𐎉	I	𐎩

(لوحة رقم ٣)

ذلك وكانت هذه أول كتابة ظهرت على سواحل اوربا وربما يلدكم أن تروا هذه الكتابة في أطوار انتقالها : (انظر لوحة رقم ٣)

قلنا إن كريت أخذت استعمال النحاس عن مصر وقد اتضح لنا الآن أنهم أخذوا الكتابة

أيضاً ، وهذان هما أهم عنصرين في انتقال العالم من العصور الحجرية الى العصور التاريخية أو عصور المدنية والتقدم . واذا ذكرنا الكريبتين وحضارتهم واتصالهم بالمصريين من العصور السحيقة في القدم فاما نذكر ذلك لان الكريبتين هم اسلاف اليونانيين في الحضارة . فقد غزت أساطيل الكريبتين التجارية من أوائل الالف الثاني قبل المسيح سواحل آسيا الصغرى من جهة بحر ايحي وظهر في منتصف هذا الالف قصور لامراء ايحيين في ميرانا ومسينا وهذا هو مبدأ عصر ازدهار الحضارة المسيانية . وربّ معترض يقول : وأن مصر من تلك الحضارة وقد بعدت الشقة بينهما بعد هذه التطورات ؟ فلكي اصل ما انقطع في الازدهان من روابط تلك الحضارة رأيت ان أعرض احدى الصور (انظر لوحة رقم ٤)

على ان برابرة اليونان الرحل الذين كانوا قد استطابوا المراعي الخصبة في شمال بلاد اليونان ، أخذوا يتوغلون شيئاً فشيئاً الى أن تمكنوا من غزو كل سواحل اليونان الجنوبية وجزر بحر ايحي حتى جزيرة كريت نفسها . كان ذلك بعد منتصف الالف الثاني قبل المسيح . ونرى آثار تلك الغزوة ظاهرة في نقوش طيبة اذ نرى منظرأ يمثل رمسيس الثالث في موقعة حربية مع الايحيين الذين فروا أمام غزاة اليونان وأرادوا النزول الى الشواطئ المصرية . وقد كانت هذه الغزوة المتكررة سبباً في ضياع الحضارة الايحية لاسيما في كريت . على أنه لم يمض الا فترة قصيرة حتى اتحد الغازون مع السكان الاصليين . وهما من جنس واحد ، وأنشأوا أكبر حضارة عرفها التاريخ وهي الحضارة اليونانية

الآن وقد ذكرنا شيئاً عن مهود الحضارات الاولى وكيفية تكوينها . ومبلغ ما أسدت حضارة مصر لذلك التكوين ، يجدر بنا أن ننقل الى القسم الثاني وهو عصر انتشار الحضارة الناضجة والاتصال الوثيق بين مصر وغيرها من الامم وأودعنا أن أوجه التفات حضراتكم الى ان الاتصال بين الامم في عصر القسم الاول كان غالباً عن طريق التجارة أو الحروب . أما في هذا العصر فالاتصال وثيق جداً اذ هو عبارة عن اختلاط تام لأزمنة طويلة ، مكن الامم المختلطة من درس حضارات بعضها والاقتباس من بعضها في الصناعات والفنون والعوائد والافكار اقتباساً واسع النطاق

ففي هذا العصر انتشرت الحضارات التي تكلمنا عنها سريعا الى الشرق والغرب فأخرجت الامم التي كانت لم تزل في عصور الهمجية الى عصور المدنية والتقدم ويبدأ هذا العصر في عهد الدولة الحديثة بمصر ، أي قبل المسيح بألف وخمسمائة عام حيث كانت مصر في أوج عظمتها واحتلت جيوش فرعون معظم بلاد غرب آسيا فأصبحت فلسطين وفينيقيا وسوريا مستعمرات مصرية . وأصبح لمصر ولمدنية مصر القدر المعلى بين تلك الامم . وبلغ من نفوذ مصر هناك أن شيد ملوكها معابد في تلك البلاد كالعبد الذي شيده رمسيس الثالث في كنعان

ومعبد نحتمس الثالث في رتو وانتشرت الأفكار المصرية كما انتشرت الفنون والصناعات والعوائد في غرب آسيا . واستمر ذلك ثلاثمائة عام . فاذا كان عام ١٢٠٠ ق . م . نجد مصر قد انكشبت قليلاً ونجد الفينيقيين رسل حضارة مصر وقد عظم نفوذهم وزادت متاجرتهم على شواطئ آسيا الصغرى كما انتقلوا الى شواطئ افريقيا الشمالية . ونجد اليونانيين وقد زادت حضارتهم وعمت جزر بحر ايجه وسواحل آسيا الصغرى ، وزاد اتصالهم بمصر حتى أسسوا بها مدناً خاصة لهم فاذا جئنا الى القرن الثامن قبل المسيح وجدنا مصر وقد فترت عزيمتها من كثرة ما اتت بها من غزوات الاجانب ووجدنا الدولة الاشورية وقد أشرق نجم عظمتها وامتد نفوذها الى ما حو لها من بلاد غرب آسيا واستمر نفوذها يشتد حتى خضعت لها مصر وفلسطين وسوريا كما خضع لها اليديون في بلاد ايران . وهكذا حكمت الامبراطورية الاشورية الشرق كله

فاذا كنا في عام ٦٠٠ ق . م . اذ بالامبراطورية الاشورية ما زالت عظيمة غير ان مصر خرجت من يدها وابتدأ يفزو مصر النفوذ اليوناني كما غزا جزءاً هاماً من آسيا الصغرى وتساليا وامتد الى ايطاليا وصقاية وشواطئ بلاد النول (فرنسا) . كما نجد نفوذاً آخر بدأ يجتاح أممهم نفوذ الامم الاخرى في حوض البحر الابيض وهو نفوذ الفينيقيين اذ نجدهم يؤسسون مستعمرة قرطاجنة في شمال افريقية ممتدة من تونس حتى جبل طارق وهي المستعمرة التي كان لها بعد ذلك يبضع قرون أعظم تجارة في حوض البحر الابيض كما كانت أقوى منافساً لرومة في اواخر القرن الثالث قبل المسيح

فاذا انتقلنا الى القرن الخامس قبل الميلاد اذ بالامبراطورية الفارسية وقد نمت وعظم شأنها فيما بين حدود الهند شرقاً وحدود اليونان غرباً حتى عم سلطانها معظم هذه الامم . وأصبحت مصر وبلاد غرب آسيا وحول البحر الاسود من جهة اوربا مستعمرات فارسية . واصبحت وجهاً لوجه أمام اليونان والرومان من بعدهم . وقد ظلت هذه الامبراطورية العظيمة لم تخضع الامبراطوريات الاوربية اكثر من الف عام . وكانت حضارتها ذات أثر واضح في معظم امم آسيا كالحند والصين وغيرها

فاذا كان أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، رأينا مقدونيا في شمال بلاد اليونان وقد كبرت وعظمت قوتها فاحتلت جيوش الاسكندر الاكبر كل آسيا حتى حدود الهند شرقاً كما احتلت مصر وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية

فاذا كان القرن الثالث قبل الميلاد نجد رومة وقد عظم سلطانها تحاول انتزاع النفوذ من قرطاجنة مستعمرة فينيقية التي أصبحت خطراً يهددها . وفي هذا العصر يحكم مصر ملوك يونانيون أهمهم البطالسة ويستمر ذلك نحو الثلاثمائة عام

فإذا جاء أواخر القرن الأول للميلاد نجد رومه وقد تغلبت على منافسيها وأسست أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ وأصبحت مصر إحدى مستعمراتها

وهكذا نجد الحضارات الأولى التي كانت حضارة مصر من أهم عناصرها قد انتشرت عن طريق هذه الأمم في النصف الغربي من آسيا وفي كل أوربا كما انتشرت في شواطئ إفريقيا الشمالية الآن وقد انتهينا من هذا الاستعراض التاريخي . نود أن نذكر بعض العوامل الأخرى الهامة التي كانت من أسباب انتقال الحضارة المصرية في أطوار نضوجها إلى أوروبا المتحضرة ومن أهم هذه العوامل مدينة الإسكندرية . فقد أصبحت هذه المدينة بعد تأسيسها أعظم مركز اتصال للحضارات المختلفة على وجه عام وللحضارة المصرية واليونانية على وجه خاص . ولا يتسع المقام هنا لذكر كل ما انتقل من مصر عن طريقها من أفكار وعلوم وصناعات وفنون ويكفي أن نذكر أنه كان هناك فن خاص ذاع عند اليونان والرومان ويطلق عليه الفن الإسكندري ولا تنكر أن مصر اقتبست من الحضارات الجديدة التي تكونت على شواطئ البحر الأبيض الشمالية . غير أن ما اقتبسه اليونان والرومان من الحضارة المصرية الناضجة كان أعظم . وقد بلغ من تأثير اليونانيين بالأفكار المصرية أن أصبحت عبادة الإلهة إزيس شائعة في بلادهم . وما اسم « إزيدورا » الذائع بين الاسماء اليونانية إلا ترجمة لعبارة معناها « عطية إزيس » وقد كان لهذه المعبودة معبدٌ قائم بمدينة دلفي

وقد نعرف مبلغ آثار الحضارة المصرية في الغرب كله إذا نظرنا إلى آثارها عند الرومان فقد وجدت الأفكار المصرية طريقها من اليونان إلى روما وبلغ من تأثير الرومان بالديانة المصرية أن أقام الإمبراطور « كاراكالا » معبدًا فخماً للإله المصري « سيرايس » وهو الإله أوزيريس متحدٌ مع العجل « ايس » وقد أقام الملك هدران مسئة في رومة ونقش عليها تذكراً بالكتابة الهيروغليفية . وما زال السائح على ضفاف نهر الرين والدانوب يرى تماثيل صغيرة للإلهة « إزيس » لا على أنها مصرية بل على أنها من مواطني تلك البلاد

على أن امتداد الحضارة المصرية لم يكن إلى الشمال والشرق والغرب فحسب، بل كان أيضاً إلى جهة الجنوب . فقد ثبت أن مصرياً ما قبل التاريخ كان يعرف شواطئ البحر الأحمر الجنوبية وقد تكلم عن ذلك أحد الزملاء

أما في المصور التاريخية فقد كثرت رحلات المصريين إلى الجنوب وقد اهتم ملوك الدولة القديمة بارسال بعثات إلى السودان والحبشة فتوغلت تلك البعثات في إفريقيا ليأتوا بالأقزام الذين كان لهم حظوة عند ملوك مصر ، ويزى تماثيلهم منتشرة في المتحف المصري . على أن أهم ما حدا بالمصريين إلى الاتصال بالجنوب كان الاهتمام باستجلاب المر والطيب وغيرها من مواد التحنيط

من بلاد الصومال التي كانوا يدعونها « بونت » . وقصة البحار المصري الذي قام برحلات في البحر الاحمر وما في قصصه عن ذلك من خيال بديع هي من عصر الدولة الوسطى وكان لاتصال المصريين بالجنوب أثر هام في نقل كثير من الحضارة المصرية الى أمم آسيا على الشواطىء الجنوبية والشرقية . أضف الى ذلك الرحلات الواسعة النطاق التي كان يقوم بها التجار الفينيقيون في المحيط الهندي منذ القرن الثامن قبل المسيح وينقلون في أبنائها من حضارتهم وحضارة مصر الى أمم الشرق الاقصى الشيء الكثير . وقد بلغ هؤلاء التجار في رحلاتهم المحيط الباسفيكي . فلا موضع للعجب اذا رأينا في الهند وفي برما واستراليا وحتى على شواطىء المكسيك آثاراً للحضارة المصرية وللأفكار المصرية . وما نعت ملوك الشرق الاقصى بأبناء الشمس وأبناء السماء وعبادتهم للشمس وتمثيلهم لمعبود مركب من قرص الشمس ذي أجنحة باشق مع الثعبان ، إلا من آثار تلك الحضارة

على أننا لو أردنا أن نبحت عن كل ما نقل من الحضارة المصرية الى جميع هذه الأمم لوقفنا امامنا صعوبات عديدة . اذ أن معظم ما نقل لم ينقل كما هو بل اختلط بحضارات أخرى وتناولته يد التغير في كثير من نواحيه

وبالرغم من ذلك فقد يستطيع المرء ان يرى في بعض نواحي حضارات البلاد النائية كاستراليا واميركا آثاراً واضحة للحضارة المصرية لم تطمس معالمها يد التغير فتبرز له الاسول المصرية في النحت والتصوير وفي الافكار وحتى في أساليب الحياة (انظر الاوحتين رقمي ٥ ، ٦)

الأدب المصري القديم



بقلم

جمال الدين السَّيَّال

ليسانسيه في التاريخ من الجامعة المصرية

تقرئة

تدين الحضارات جميعاً للمصريين القدماء بالفضل العظيم ، إذ كان المصري القديم أول من فكر في تسجيل خواطره وأفكاره ، وكانت له محاولات جديّة قديمة في هذا السبيل حتى وفق أخيراً إلى اختراع الكتابة ومن ثم أخذ يسجل هذه الخواطر وهذه الأفكار على الأحجار أولاً ثم على جدران المعابد والمقابر . غير أنه تبعاً لسنة التطور اتسعت آفاق تفكيره وتقدمت مرافق حياته وبالتالي أوجد لنفسه آداباً وعلومًا وأحبّ تسجيلها في صحف يتناقلها الخلف عن السلف ، وأحبّ تلقينها للمصريين جميعاً بل واسكان العالم الانساني فالحجأة الضرورة إلى اختراع ورق البردي . فكان هذا الاختراع الهدية الثانية الى العالم كي يعرف نفسه ويدون ما عرف ليتركه للأجيال التالية جيلاً بعد جيل

سهلت إذن على المصري الكتابة . فالكتابة على ورق البردي أسهل من النقش على الحجر — ما في ذلك شك — وملا الصحف بأدعياته الدينية ، وآغانيه الغرامية ، وأناشيده الوطنية ، وقصصه الشعبية ، وآرائه العلمية والفلكية . فكان لنا مما بقي من هذه الصحف ذخّر لا زلنا نجد في استقراء أسرار

إذن فقد كان للمصريين القدماء أدب حي استمر يتطور بتطور الحضارة المصرية حتى وصل إلى نوع من الأدب الرفيع المعبر عن العواطف والآمال . وقد وصل إلى علماء المصريين أوراق من البردي كتبت عليها قصص هي من أجل القصص موضوعاً وخيالاً ووصل إليهم أيضاً شعر وغناء وأناشيد كلها كالقصص ممتع وجميل . وكان المصريين إلى جانب هذا كله أدب ديني قائم بذاته كانوا يصلون فيه إلى مذهب أبي نواس حيناً فيناجون اللهو والساقى والحمر والراقصة وإلى مذهب أبي العتاهية حيناً آخر فيناجون القلب والروح والآلهة

وشبابنا المثقف يعرف أن لليونان القدماء أدباً مزدهراً يقرأونه بل ويدرسه الكثيرون منهم ، وشبابنا المثقف يعرف أن للفرس كذلك أدباً مزدهراً يقرأونه بل ويدرسه البعض منهم ، وشبابنا المثقف يعرف أن للعرب والروس والفرنسيين وللانكليز بل ولكل شعب من شعوب العالم القديم أو الحديث أدباً مزدهراً كذلك يقرأونه بل ويدرسه ويكتب عنه الكثيرون منهم

وبعد . فهل يعرف شبابنا جميعاً والمثقفون منهم خاصة أن للمصري القديم أدباً وُجد وازدهر وأينع قبل ان توجد آداب الشعوب جميعاً ؟

قال سقراط : « اعرف نفسك » فهذه الكلمة اليسيرة يجب أن تكون نبراسنا في هذه الحياة .
يجب أن نعرف عن أنفسنا كل شيء قبل أن نسعى لمعرفة الغير . ومصر القديمة بتاريخها وآدابها
وعلمها وفيها تكاد تكون مجهولة لدى الغالبية العظمى -- لا أقول من الشعب -- بل من
الشباب المثقف

﴿ توت إله العلم والحكمة والأدب ﴾ : كان المصريون القدماء يعتقدون أن مخترع الكتابة
المصرية هو الإله توتو Tehuti أو توت Thoth — ومن هنا سميت الكتابة عندهم بالكتابة
الهيروغليفية أو الكتابة المقدسة . . ومن عقائدهم أيضاً أن توت هو الذي اخترع علم
الحساب وإذ كان هو الذي يتولى ضبط مدارات الشمس والقمر والنجوم وينظم الفصول فقد
اعتبروه أول عالم بعلم الفلك

كان توت إذن إله الحكمة والمعرفة في الأرض والسماء والمبتكر لكل محاولة حاولها الإنسان
في الرسم والتصوير والنحت . سيد الكتب وموجدها ، والكاتب الحاذق — كاتب الآلهة
والأمين على سجلات البشر حيث تدون أعمالهم
علمه الغزير كان يمكنه من العثور على الحقيقة دائماً . وهذه المقدرة دعت المصريين إلى
تعيينه قاضي قضاة الأموات

وتقول الرواية القديمة إن توت تولى هذا المنصب في الجنة عند محكمة أوزيريس لما اتهمه
أخوه « ست » إله الشر بارتكاب بعض الجرائم . . . درس توت القضية درساً وافياً وأعلن رأيه
للآلهة أن ادعاءات « ست » باطلة وأن قول « أوزيريس » هو الحق . . . ولذلك كان
المصريون يصلون لتوت دائماً رجاء أن يحكم لهم يوم البعث كما حكم لأوزيريس ، ورجاء أن
يطفف الكفة التي تحمل قلوبهم يوم الحساب

وتقول الرواية الشعبية القديمة إن كتب « توت » الدينية كانت تحوي كل أنواع العلم
والمعرفة وإنها هي التي اكتسبت مصر هذه الشهرة العلمية العالمية وإنها كانت تبلغ ٣٦٥٢٥ كتاباً
كان المصريون يجعلون الكتاب الذين يدرسون هذه الكتب وينسخونها لاعتقادهم أن
روح « توت » كانت تحل فيهم . . وكان للكتاب لديهم مقام جليل لا يعده مقام إنسان آخر
لأنه رجل العلم والمعرفة

ويبدو « توت » على أوراق البردي والتماثيل في شكل رجل له رأس إيس Ibis ويصاحبه
دائماً نسناس له رأس كلب يدعى Asten

﴿ الملكة القديمة ﴾ : امتاز العصر الاول — عصر المملكة القديمة — بنوع خاص من
الأدب الديني الخالص هو ثمرة من ثمار سيطرة الكهنة الدينية في هليوبوليس ، ويتكوّن

هذا الأدب من تلك الوثائق المعروفة « بنصوص الاهرام » التي تمتد بحق أوفى مرجع عن تاريخ وديانة هذا العصر

ويقصد بهذه النصوص النصوص الهيروغليفية الطويلة المنقوشة على جدران خمسة اهرامات في سفارة أقدمها بُني للملك « أوناس Una » أحد ملوك الأسرة الخامسة . والاربعة الباقية بُنيت لتيتا Teti وبيبي الاول Pepi ومرفرع Merevra وبيبي الثاني Pepi II من ملوك الأسرة السادسة

وهذه النصوص أقدم صورة من صور الأدب الديني لأنها تتحدث عن عقائد ترجع إلى آلاف السنين قبل الأسرة السادسة

ومن المرجح أن قدراً كبيراً من هذه النصوص قد أنشأه قساوسة المصريين لصالح الأموات في عصور سحيقة جداً قبل أن يعرف المصريون الكتابة . وانهم كانوا يعيدون تلاوتها عند وفاة كل ملك .. وكان رجال الدين أول الأمر يحفظون هذه النصوص عن ظهر قلب ثم تناقلها الألسن جيلاً بعد جيل حتى تعلم المصريون الكتابة وخشوا أن تأتي عليها يد النسيان فسجلوها على جدران هذه الاهرام

ومحدثنا نصوص الاهرام عن المعتقدات الدينية القديمة للمصريين الأول كما تروي لنا بعض الحقائق التاريخية التي لا نعتز عليها من مصدر آخر . ولكن بعض مقتوعات هذه النصوص تصور ألواناً من الحياة والأجواء وأشكالاً من الحضارات الغريبة التي لا نستطيع فهمها في عصورنا الحديثة .. كذلك معاني بعض كلماتها غير معروفة وتركيب بعض الكلمات والجلل غير مألوف والآراء التي تعبر عنها غريبة لأنها تمثل آراء العنصر المصري الافريقي الأول

وقد كتبت هذه النصوص لخير الملك الميت ولتجلب له السعادة في العالم الآخر ولتتمكنه من أن يكون ملكاً في هذا العالم الآخر كما كان ملكاً على الأرض قبل موته .. ولذلك كان موضوع كل صلاة أو أدعية أو أغنية في هذه النصوص يدور حول هذا المعنى « حفظ الحياة للملك في العالم الآخر ليتولى العرش هناك »

غير أننا لا نعدم العثور في مخلفات هذا العصر على بعض النصوص الادبية التي تتحدث عن الشؤون الدنيوية — وإن كانت هذه النصوص محصورة قليلة العدد كأغنية الراعي أو أغنية حلة الانتقال وكتابها منقوشتان على مقابر ممفيس فوق الصور التي تمثل نواحي الحياة الاجتماعية المختلفة (فترة الانتقال) : وفي فترة الانتقال بين المملكتين القديمة والوسطى نشبت ثورة اجتماعية خطيرة كانت النذير ببدء عهد أدبي جديد — فقد تحرر الشعب من القيود الدينية وتحرر من ضرورة الكتابة على الحجارة وجدران المقابر — وكانت له آلام وآمال بشت في نفسه الشكوى

والرجاء فلجأ إلى طريقة سهلة يسيرة للتفريج عما في نفسه واستبدل الحجارة بأوراق البردي يملئها شجونه وشعوره

وكان شأن الشعب أثناء هذه الثورة شأن الشعوب جميعاً أثناء الثورات جميعاً فقد اصطدمت الأمازي الروحية بالقوة الباطشة، ولم تجد الفصول الأدبية المجال للظهور والانتشار، ولم يستطع الشعب إظهار بعض آثاره الأدبية إلا في عهد ملوك هراكليوبوليس (ملوك الأسرتين التاسعة والعاشر) فظهرت (تعالم الملك مريكارع) و « نقد التجارة » و « قصة الفلاح » وكلها تعد مرآة صادقة للظروف السياسية التي كانت تجتازها البلاد في ذلك الحين . .

ويمتاز أدب هذه الفترة بغياب الروح الدينية . وليس هذا غريباً إذا عرفنا أن العهد عهد ثورة وأن الأدب أدب ثورة . . ومع هذا فإننا نجد لحداثات هذه الثورة صدئ نسمعه في « أغاني بيت الملك أتف » التي يشترك العوادون في تلحينها . . في هذه الأغاني يبدو الشك الفاشي ويكشف عن نفسه في نبوغ وأمن لا تهدده اضطرابات عهد الثورة

(بعد الثورة) : وبابتداء عهد الأسرة الثانية عشرة كان النظام والأمن قد استتباً وعادت الحياة تسير سيراً هادئاً لا اضطراب ولا قلق فيه — وأعدت للجاعات نظم تعتمد على القوانين العادلة وتلاشت الفوارق وغابت حقوق أوزوريس التي كانت تميز فريقاً على فريق وانتشر في مصر أدب ديني جديد كانوا يكتبونه على الأكفان والتوابيت وورق البردي . . هذا الأدب يتحدث عن المثل الصالحة وعن الحياة الطيبة الهانئة في العالم الآخر . . وانشأت في البلاد مدرسة أدبية خاصة تعمل على نشر أساليب اللغة البديعة وتعمل لايجاد أسلوب بديهي جديد . . وقد ترك لنا هؤلاء الكتاب بعض قصصهم الرائعة كقصص « سنوحي » وقصة « الملاح الفريق » كذلك امتاز هذا العصر بأنواع شتى من الأدب كأدب الذكريات والأدب الغنائي وأدب الحكم التي تنسب إلى الوزراء والملوك السالفين

(أدب جديد في الامبراطورية الحديثة) : حتى إذا انتهى عهد المملكة الوسيطة وابتدأ عهد الامبراطورية الحديثة فإننا نجد أن الأدب يسير المجتمع في تقدمه ويتطور تطوراً سريعاً نحو الحرية، ويحاول أن يبعد قليلاً عن أشكاله القديمة . . فإن امتداد النفوذ المصري في أعماق الامبراطورية والإصلاح الديني الذي دعا إليه الملك « اخناتون » قد مهدا السبيل لايجاد أجواء جديدة من التفكير والخيال . . فنجد الأدب يحطم الأشكال القديمة ويفلت من قيود المدرسة الأدبية السالفة ويخرج آياته للمصريين في أسلوب سهل حي مستساغ . بل وسرعان ما تطرقت هذه السهولة وهذه الحياة إلى أوساط الموظفين ورجال الإدارة والمتقنين من الشعب . وخير صور هذا الأدب الجديد تبدو في القصص الكثيرة التي وصلتنا عنه والتي يرجح المؤرخون

إنها كتبت للأطفال والعامة من الشعب . . . ولكننا — مع بساطتها — نقرأها فنحس لحواشيها روعة وعذوبة لا نحسهما في أنفسنا عند قراءة أدب العصر السابق

﴿ الأدب الديني والاخلاقي في هذا العصر ﴾ : كذلك لم يخل هذا العصر من بعض صور للأدب الديني . فالحياة الدينية في مصر القديمة كانت تحتل المسكنة الأولى من تفكير المصريين القدماء . ونلاحظ أيضاً أن هذا التطور الذي لحق أدب هذه الفترة قد شمل هذه الصور من الأدب الديني فامتازت هذه الصور بطابع خاص يميزها عن غيرها . . . وخير مثال لها « أغنيات آتون » التي تتحدث عن حب العبد الخلق وإخلاصه للإله القوي الواحد الأحد . كذلك امتاز أدب هذا العصر بظهور الدعوة الأخلاقية . استمعوا إلى هذا الحكيم « آني » وهو يبين للابن واجبه نحو أمه :

« ضاعف الحبز الذي تعطيه لأمك . احتملها كما احتملتك . إنها عند ما ولدتك بعد شهور من حملك استمرت تحملك على عنقها . وبقيت أعواماً ثلاثة وتُدبها في فمك . إنها لم تسمرن يوماً من أفذارك . إنها لم تقل يوماً : « لم فعلت هذا ؟ » لقد أخذتك إلى المدرسة حيث تعلم القراءة . . . واعتادت أن تنتظرك هناك كل يوم ومعها الحبز والشراب من المنزل . . . فعند ما تشمو وتصبح ذا زوجة وبيت خاص ، أرجع بصرك إلى الورا . لتذكر الوقت الذي حملتك أمك . . . هل لك ألا تدعها تعارك . . . وألا ترفع يديها إلى الله فتشكو إليه منك . . . »
كذلك استمعوا إلى هذه القطعة الأخلاقية الجميلة :

« احترس من المرأة الأجنبية غير المعروفة في المدينة . . . إنها كمجرى من الماء — عميق لا حد له . . . لا أحد يعرف حدودها . . . المرأة التي تلج عليك كل يوم عندما تكون وحيدة وزوجها غائب . « أنا جميلة . . . » من الخطيئة التي تستحق الموت أن تنصت إليها . . . »
هذه أمثلة لأدب كتبه جماعة ذوو نصيب من الثقافة . . . ولكننا إلى جانب هذا الأدب المتقن نجد أمثلة حية من الأدب الشعبي في عهد الإمبراطورية الحديثة . قصصاً رائعة كتبت بالخط الديموطيقي تتحدث عن مخاطر بعض الجنود وكانت هذه المخاطر تنتهي في الغالب بتسويدهم حتى يصبحوا ملوكاً أو أمراء

﴿ أغاني الحب ﴾ : إلى جانب هذه القصص امتاز هذا العهد بظهور كثير من أغاني الحب . وهذا اللون من الأدب الغنائي الخالص يبين بوضوح ناحية جد طريفة من نواحي التفكير المصري . هذه الأغاني الغرامية وضعت « لإدخال السرور في القلب » على حد تعبير المصريين القدماء ، ولهذا كانت تغنى دائماً على القيثارة أو الناي . ومعظم هذه الشذرات الغنائية نوع من الحوار يتبادل فيه الرجل والمرأة الغناء « dialogue » ويدعو أحدهما الآخر « بأخي » و « أختي »

ونحن عند دراسة هذه الأغاني وتحليلها نلاحظ صدق ما رواه هيرودوت عن صور الإباحية في مصر القديمة فهو يخبرنا ان نساء مصر القديمة كن يتسعن بنصيب كبير من الحرية في حياتهن العادية وفي صخب الأعياد ووضوئها ، كما كن يخرجن لشراء ما يلزم ليوتهن في حين يبقى الرجال في المنازل للقيام بشئونهم

وكانت العادة عند الغناء ان يبدأ الرجل ونصيه — في الغالب — من الكلام قليل بينما تقوم المرأة بعده بالنصيب الأوفر من الغناء . . . وها كم أغنية جميلة يتحدث فيها الرجل عن حبه . . . يقول انه سارتقي صفحة النيل متجها نحو ممفيس ، وهناك سيجد « اخته » في حديقة عطرة ، جالسة تحت الظلال ، وسيحس عندما يرشف قبلة من شفاهها بالسعادة تسري في عروقه . إنه يحس وهو الى جانبها انه كالطائر الذي يقع راضيا في شرك الحب ، ولكن نشوة الحب غالبية عالية فهو خاضع لها . إنها أشد قوة في تأثيرها من الخمر . . . ومالي أمسح لكم كلام الرجل . . . استمعوا إلى ألفاظ أغنيته : —

« سارتقي صفحة النيل وممي حزمة من الغاب أحملها على كاهلي . . سأذهب الى ممفيس ، وسأقول إلى بتاح — سيد العدالة « امنحني أختي هذه الليلة . فالهر خر ، وبتاح غابه ، وسخمت لوتسه ، وإبارت براعمه ، وقرتم زهوره . . انظر الى الفجر وممفيس تبدو كأنها مترع بالفاكهة وضع امام بتاح الآله ذي الوجه الحسن

سأرقد في منزلي ، وسأظاهر بالمرض كما نى ضربت وسيأتي جيرانى ليعودوني ، وحينذاك ستأتي أختي معهم وستكون اشقى من الاطباء لأنها تعرف موطن الداء . . . أرى أختي قادمة فيحس قلبي السرور ، وأفتح ذراعي لأضما إلى . . عند ما تأتي حبيبتى يخفق قلبي في موضعه . . إذا ضممتها إلى وذراعاها تقبلاني يخيل إلى أننا في بلاد بنت . وإذا ما رشف قبلة من شفقتها وهما مفتوحتان فأنا سعيد دون خر . . . »

هذا هو حديث الرجل . . . حديث ساذج بسيط ينبىء عن حب سهل يسير . هو يقع في الشرك سريعا ، ويمكن استرضاؤه بسهولة . . . اما حديث المرأة فسرون أنه يختلف عن حديث الرجل فهي أشد مكرآ في حبها وأكثر كياسة في صبرها وأشد رضاء في فوزها . . . انها تستعمل كل وسائل الاغراء . لقد اعتادت كل يوم الخروج لتنصب الشباك لصيد الطيور ، ثم تعود الى أمها محملة بالصيد . ولكنها تؤثر حبيبها على الطيور وأنها . . . انها تفضل ان تقضي الوقت معه على ان تجلس لمراقبة الطيور وصيداها . بل انها لترجو ان تطلق الطير لتستمع الى شكواه وشدوه وحبيبها الى جانبها يشاركها السماع . فشعورها ملتهب ولكن افكارها عملية . كل ما تريد هو اتحاد خالد . هي تريد الزواج . وإليك ألفاظ أغنيها : —

« أيها الأخ الحبيب ! قلبي يتبع حبك وأنا أقول انظر ماذا افعل . . لقد اتيت ونصبت الشباك يدي . كل طيور بنت تشرق في سماء مصر ودهن المر يغطيها . ولكن الطائر السابق هو الذي يلتقط الحب . وسيحضر العطر معه من بلاد بنت وستكون محال به محملة بالبخور . وكل بغيتي ان نطلق سراح الطائر معاً أنا وأنت وحيدين ثم نستمع الى صوته الشاكي المحمل برائحة المر . كم أكون سعيدة عند ما تكون ممي وأنا أنصب الشراك ! صوت الاوزة يشكو عند ما تلتقط الطعم . . وحبك سيأخذني اليك — وسوف لا أفقده — بل سأغادر شباكي . ماذا أقول لأمي التي أعود اليها كل يوم محملة بالطيور . . ؟؟ واذا سألتني . . « ألم تنصي شباكاً اليوم . . ؟ ! » لا . . بل أنا أسيرة حبك

قبلتك وحدها هي التي تبعث الحياة في قلبي . وعند ما أنا لها سأدعو آمون ان يحفظها لي الى الابد

أيها الجليل ! كل ما يريد قلبي هو ان أستولي على اثنائك كسيدة لمنزلك وذراعي في ذراعتك وإذا تحول حبك عني فأني أحدث قلبي « اخي العظيم بعيد عني الليلة . . » وحينذاك أصبح كميت في قبر

لم لا . . ؟ ألسنت لي الصحة والحياة . . ؟ ! »

وإليكم أغنية أخرى تاجي فيها فتاة اليمامة التي توقظها عند بزوغ الفجر بشدوها العذب وتضطرها إلى الاستيقاظ المبكر :

« صوت اليمامة يتحدث إلي . . » انه الفجر — أليس في نيتك الخروج ؟ لا ايها اليمامة لقد وجدت « اخي » في فراشه . قلبي يفيض بالسرور فقد قال لي : « سوف لا أركك وستبقى يدي في يدك . سأكون معك في تجوالي في كل مكان جميل . . » لقد جعلني اولى الفتيات ولم يبعث الالم الى قلبي . . »

الى جانب هذه الاغاني الفياضة بالحب المتبادل والاخلاص نجد الكثير من الاغاني المملوءة بالشكوى — الشكوى من الرجل غير المخلص المتقلب في حبه . وفيها نلاحظ ان حب المرأة أغنى في التعبير وأوفر في ألوان العاطفة من حب الرجل . كذلك نلاحظ على هذه الاغاني ان الشاعر توفرت لديه عناصر الشاعرية ، فهو اذ يتكلم عن الحب يخلق للأغنية الجو الشعري الذي يؤام الحب . فيتحدث عن المرأة التي تمشي في البستان وتهادى بين الورود والرياحين ، او يصور نباتاً او فاكهة تتحدث عن نفسها حديثاً يتصل بالحب ، او ينقل حديث الاشجار فهي التي تحمي المحبين تحت فروعها فتكون الامينة على أسرارهم . .

والى هذين الصنفين من الاغاني نجد صنفاً ثالثاً هو نوع من الغزل يتحدث عن الحب

فتحدث عن المرأة وجمالها النسوي فيصفها عضواً عضواً . . ومن دراسة هذا الصنف الثالث نستطيع ان نلمح اي لون من الوان الجمال كان المصري القديم يفضل . كان المثل الاعلى للجمال عنده يتمثل في الشعر الأشد حليكة من الظلام ، والاسنان الاكثر صفلاً من الصوان ، والقفا الأهيف ، والصدر المزن الثابت

ونستطيع نحن بدراسة التماثيل والصور القديمة ان نعرف ان المصري القديم لم يكن ليعجب بالمرأة السمينه الضخمة ، بل كان يعجب كل الاعجاب بالمرأة النحيفة الرشيقه التي كانت تعده في العالم الآخر زوجة شابة صغيرة الى الابد

(المغنون والرواة) : مذ عرف المصري الكتابة والكتاب يورثون اسرارها واساليبها خلفهم جيلاً بعد جيل . ونشأت في مصر تبعاً لهذا طبقة من الكتاب العلماء يتولون وظائف الحكومة الادارية ويديرون دفة الحكم في حذق ومهارة ويضبطون ميزانية الدولة ويراقبون حياة الضرائب ويشرفون على توزيع الاراضي وريتها وفلاحتها واصلاحها . ولذا كان لهذه الطبقة مكانة جد محترمة لدى الملوك والشعب . وقد حذق بعض هؤلاء الكتاب فنه واغرم البعض الآخر بالعلم والبحث والدرس وشغف نفر ثالث بالادب وقد وصلتنا عن هؤلاء جميعاً وثائق تشهد لهم بالعلم والثقافة والاسلوب الرفيع

والى جانب هؤلاء كانت في مصر طبقة من المغنين والقصاصين . وهؤلاء عاشوا للشعب ومن الشعب ، ولازلنا نرى لهذا اللون من الادب اثرأ حياً في مصر الحديثة نحسها في هذه الآهات الرطاشة وهذه الليالي العذبة التي يرددوها الفلاح في حقله او الملاح في سفينته ، يستعين بها وبالاغاني الشعبية الساذجة الحلوة على اداء واجبه . وكثيراً ما سجل الحفارون المصريون القدماء بعض هذه الاغاني التي كان يترنم بها الصناع والفلاحون والملاحون فوق الصور المنقوشة على جدران المقابر والتي تمثل حياة هؤلاء جميعاً

وكثيراً ما نعتز على صور بعض العبيان الذين يحترفون الغناء منقوشة على هذه الجدران وهذه دون شك صورة قديمة لازلنا نرى لها شبيهاً في حياتنا الحاضرة . وهؤلاء الفتيات الراقصات المغنيات اللاتي يطفن بالقرى والاسواق صورة واضحة للفتاة المغنية في « رحلة اوباون Unanin »

ويرى A. Erman ان هذا الشاعر الذي يرتقي دكته العالية في المقاهي البلدية اثر مصري قديم انحدر اليانا من مصر القديمة . حقا ان جدران المقابر لم تحفظ لنا صورته ولم ترو لنا قصصه ولكننا لو عرفنا ان غالبية هذه المقابر المنقوشة كانت تبني للملوك وكبار رجال الدولة وان النقوش كانت لا تمثل الا حياة هؤلاء أو حياة خاصتهم وخدمهم في صناعتهم أو زراعتهم أو

صيدهم أدركنا لم لم نحفظ هذه الجدران صورة هذا الشاعر القصص الذي كان يتحدث الى الشعب في الشوارع والطرق دون شك والذي كان يتحدث اليهم عن آلامهم وآلامهم مستمداً مادة قصصه وشعره من حياتهم أولاً ومن حياة الآلهة والابطال والملوك والرحالة ثانياً

ويعود Herodotus فيقول ان معظم القصص التي وصلتنا عن مصر القديمة تؤيد وجود هذا الشاعر لان القصص التي يتلوها شاعر مصر الحديثة تتحدث في الغالب عن شخصيات تاريخية لها مكانتها في الشجاعة والكرم والبطولة كقصّة الظاهر بيرس أو هارون الرشيد وكذلك معظم القصص التي وصلتنا عن مصر القديمة تتحدث عن شخصيات تاريخية لها هذا المقام . فقد وصلتنا عن العصر المسيحي قصة عن قميز . وعن العصر الاغريقي قصة عن نكتنبو Nektanebus ونقل هيرودوت كذلك قصة رامسينتس Rhampsinitus ولدينا من عصر المملكة الحديثة قصص تحتس الثالث وقصة الملك الهكسوسي « أبوفيس Apophis » ومن أواخر المملكة المتوسطة قصص « خوفو »

﴿ القصص المصري القديم ﴾ : وهذا موضوع خطير يحتاج الى مجلد وحده لبحثه بحثاً وافياً شافياً فنحن وصلتنا عن مختلف عصور مصر القديمة قصص كثيرة بعضها يتحدث عن الآلهة والملوك والابطال ، وبعضها يتحدث عن السحر والسحرة والحيوانات الالهية كالتمساح والحية والبقرة ، وبعضها يتحدث عن أفراد الشعب وحياتهم وأحزانهم وأفراحهم وحبهم . وكل قصة من هذه القصص تحتاج الى بحث خاص لدراستها وتحليلها

وهناك ناحية أخرى أراها جديرة بالاهتمام وألفت اليها الانظار . تلك هي : الى اي حدثاثر القصص المصري في العصور الوسطى بالقصص المصري القديم ؟ واعني بذلك الى اي حد تأثرت الموسوعة القصصية « الف ليلة وليلة » او قصة « الاميرة ذات اللمة » او قصة « الظاهر بيرس » . اقول الى اي حد تأثرت هذه القصص بالقصص المصري القديم ؟

وانا من ناحيتي ارى ان الدراسة التحليلية لقصة « الملاح الغريق » ومقارنتها بقصة « السندباد البحري » او لقصة « الشقيقتين » ومقارنتها بقصتي « موسى ويوسف » قصة « قر الزمان » (إحدى قصص الف ليلة) او دراسة قصة « احزان الفلاح » وتحليلها ومقارنة نوع الحياة التي كان يحياها فلاح مصر القديمة بنوع الحياة التي يحياها فلاح مصر الحديثة . اقول إن دراسة من هذا النوع تكون طريقة كل الطرافة وجديدة كل الجدة . وعسى ان اوفق الى بعض هذا في المستقبل ان شاء الله

مراجع

رأينا — اتماماً للفائدة ان تلحق بالكتاب نبذة بالمراجع التي يمكن القارىء ان يرجع اليها اذا شاء ان يستزيد من العلم بتاريخ مصر القديمة وحضارتها . ويلاحظ القارىء اننا اقتصرنا على أهمّ الكتب وأوثقها لان ما كتب عن مصر القديمة اكثر من ان نخصيه كتاب كامل كهذا

Select Bibliography

I. General Works.

- Breasted (J. H.) , A History of Egypt (1 vol.) translated into Arabic by Dr. Hassan Kamal.
- Baikie (J.) , A History of Egypt (2 vol.)
- Brunton (W.) , Great Ones of Ancient Egypt (1 vol.)
- Budge (E. A. Wallis) , a History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra VII.
- Erman (A.) , Aegypten und aegyptische Leben in Altertum (1 vol.) reviewed by H. Ranke (1 vol.)
- Herodotus, translated into English by H. F. Cary
- Jequier (G.) , Histoire de la civilisation Egyptienne
- Maspero (G.) , Histoire ancienne des Peuples de l'Orient classique (3 vol.)
— Causeries d'Egypte (1 vol.)
- Meyer (E.) , Geschichte des Altertums.
- Moret (A.) et G. Davy. Des clans aux Empires
- Moret (A.) , Le Nil et la Civilisation Egyptienne (1 vol.)
— Au temps des Pharaons (1 vol.)
- Morgan, (I. De) , Recherches sur les origines de l'Egypte
- Petrie (F.) , A History of Egypt (3 vol.)
— Prehistoric Egypt
- Smith (E.) , History of Mummification in Egypt
- Steindorff (G.) , Die Blütezeit des Pharaonenreichs
— Geschichte Ägyptens
- Weigal (A.) , The Life and Times of Akhnaton
— , The Treasury of Ancient Egypt
- Wiedemann (A.) , Agyptische Geschichte (2 vol.)

II. Excavations.

- Firth, Excavations at Saqqara
- Junker (H.) , Merimde, Benisaläme
Giza.
- Lepsius (R.) , Denkmäler aus Ägypten und Aethiopien
- Menghin (O.) , Mustafa Amer, The Excavations. of the Egyptian University in the Neolithic Site at Maadi
- Reisner G.) , Mycerinus
- Selim Hassan, The Excavations of the Egyptian University at Giza

III Documents.

- Breasted (J. H.) , Ancient Records of Egypt (5 vol.)
 Gardiner (A.) , Late Egyptian Stories
 Selim Hassan, Inscription Sur un socle de Statuette
 Sethe (K.) , Untersuchungen zur Geschichte und altertumskunde Aegyptens.
 — , Urkunden des alten Reiches
 Steindorff (G.) , Urkunden des Aegyptischen Altertums

IV Morale, Religion, Social Life.

- Breasted (J. H.) , Development of Religion and Thought in Ancient Egypt (1 vol.
 — , Dawn of Conscience. The Origins of Civilisation
 Budge (E. A. Wallis) , The Book of the Dead. An English Translation (3 vol.)
 — , The Gods of the Egyptians
 — , Osiris and the Egyptian Resurrection
 Erman (A.) , Die Aegyptische Religion (1 vol.) , translated into English by Griffith
 — A Handbook of Egyptian Religion
 Junker (H.) , Die Stundenwachen in den Osirisnysterien
 — , Die Osirislegende
 Maspero (G.) , Etudes de mythologie et d'archeologie égyptiennes. (8 vol.)
 Moret (A.) , De caractère religieux de la royauté Pharaonique (1 vol.)
 — , Mystères égyptiens (1 vol.)
 — , Rois et Dieux d'Egypte (1 vol.)
 Petrie (F.) , Religion and Conscience in Ancient Egypt (1 vol.)
 — , Social Life in Ancient Egypt (1 vol.)
 — , Religious Life in Ancient Egypt (1 vol.)
 Plutarque, Isis & Osiris translated by M. Meunier
 Sayce (A. H.) , The Religion of Ancient Egypt
 Schäfer (H.) , Die Religion und Kunst von El-Amarna.
 Selim Hassan, Hymnes religieux du Moyen Empire.
 Sethe (K.) , Amun und die acht Urgötter von Hermopolis
 — , Urgeschichte und Älteste Religion der Ägypter
 Steindorff (G.) , The Religion of the Ancient Egyptians, translated into Arabic by
 Prof. Selim Hassan Bey (1 vol.)
 Wiedemann (A.) , Religion of the Ancient Egyptians (1 vol.)
 Wilkinson (L. G.) , Manners and Customs of the Ancient Egyptians (3 vol.)

V Literature

- Budge (E. A. Wallis) *The Literature of the Ancient Egyptians*
 Erman (A.) *Die Literatur des Aegypten* (1 vol.) Translated into English by Blackmann
 — *The Literature of the Ancient Egyptians*
 Lange (H. O.) , *Das Weisheitsbuch des Amenemope*
 Maspero (G.) , *Contes populaires de l'Egypte ancienne* (1 vol.)
 Petrie (F.) , *Egyptian Tales translated from the Papyri* (2 vol.)
 Sami Gabra, *Les Conseils de Fonctionnaires dans L'Egypte Pharaonique*
 Selim Hassan *Le Poeme dit de Pentaour et le Rapport officiel sur la Bataille de Qadesh.* (1 Vol.)
 Wiedemann (A.) *Popular Literature in Ancient. Egypt* (1 vol.)

VI Archaeology, Fine Arts.

- Bissing (Von) , *Denkmäler ägyptischer Sculptur* (2 vol.)
 Boreaux (C.) , *L'art égyptien* (1 vol.)
 Capari (J.) , *Les origines de l'art et l'art égyptien* (1 vol.)
 — , *Les débuts de l'art en Égypte* (1 vol.)
 Jéquier (J.) , *Manuel d'archéologie égyptienne*
 Maspero (G.) , *L'archéologie égyptienne* (1 vol.)
 — , *Histoire Generale de l'art : Egypte* (1 vol.)
 — , *Essai sur l'art égyptien* (1 vol.)
 Petrie (F.) , *The Arts and Crafts of Ancient Egypt* (1 vol.)
 Schäfer (H.) , *Von ägyptischer Kunst, besonders der Zeichenkunst* (2 vol.)
 Steindorff (G.) *Die Kunst der Ägypter* (1 vol.)
 Wilkinson (J. G.) , *The Architecture of Ancient Egypt* (2 vol.)

VII Periodical Publications.

- Annals of Archaeology and Anthropology* issued by the Institute of Archaeology,
 University of Liverpool.
Annals du Service des Antiquités de l'Egypte
Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale
The Journal of Egyptian Archaeology, published by the Egypt Exploration Society
Proceedings of the Society of Biblical Archaeology
Revue de l'Egypte ancienne
Revue égyptologique
Revue de l'histoire des religions
Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde.

تفريق قريب

ليسانس الآداب (قسم التاريخ) وعميد الآثار المصرية

فهرست

المقدمة	۴
مصر وماضيها : للاستاذ حسين . وولس	۶
جينز هنري برستد : للاستاذ مصطفى عامر	۹
التراث العلمي لمصر القديمة : للدكتور حسن كمال	۱۷
رياضيات المصريين القدماء : للدكتور كاربنسكي : نقاها الاستاذ قدري حافظ طوقان	۲۹
تراث مصر اللغوي . للاستاذ الدكتور جورج صبحي بك	۳۷
التراث القانوني لمصر القديمة : للدكتور زكي عبد المتعال	۴۹
القانون الدولي والاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين : لجورجي نجيب الراهب	۶۵
تراث مصر الفني والمعماري : للاستاذ محرم كمال	۷۷
تراث مصر الفكري والفلسفي : للاستاذ سلامه موسى	۹۳
مظاهر الفكر عند قدماء المصريين : للاستاذ سامي جبره	۱۰۱
كيف انتقلت حضارة مصر : للاستاذ عبد الهادي حماده	۱۱۱
الادب المصري القديم : لجمال الدين الشيال	۱۲۳
مراجع	۱۳۵